

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٢

أسس تفسير القرآن الكريم في تاريخه الكلي بفيض من الأدلة عز وجل

مَعَالِمُ الْإِيمَانِ

وَتَفْسِيرُ الْقُرْآنِ

الجزء الخامس

المراجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح الطائي
استاذ الفقه والحديث والتفسير واللاهوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى ونوراً وشفاء ووعاء سماوياً مباركاً لأحكام الشريعة وبيانا لما تفضل به في اللوح المحفوظ من الإوامر والنواهي وحجة وآية للتصديق بنبوة الرسول الإكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصلة دائمة بين السماء والأرض ومنبعا للعلوم.

ولقد إجتهد العلماء في البحث والتفسير وسبر أغوار القرآن ولا زال الباب مفتوحاً، وذخائره تفيض بالكنوز والمعارف، لقد وصف الله تعالى الجنة وما فيها من النعم والفاكهة فقال سبحانه وتعالى ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، كلما قطعت ثمرة حلت جديدة محلها، تلك النعمة موجودة وملموسة في القرآن تحسها وتدرکها في كل آية وما فيها من الثمرات العلمية والعقائدية [١] وتبرز إلى الخارج في كل مبحث شريف ودراسة مقارنة أو إستنباطية، وكان التدبر في آيات القرآن طريق إلى ثمار الجنة تلك، والدنيا مزرعة الآخرة، وترى علوماً جديدة ومسائل في مختلف أبواب العلوم تطل عليك بإشراق ملكوتية أثناء الدراسة والبحث فضلاً من الله تعالى وآية إعجازية من آيات القرآن تتجدد وتتسع بمواصلة البحث بالإضافة إلى تشعبها مع الإكتشافات والعلوم المدنية الحديثة.

وبادرت متوكلاً على الله عز وجل بالشروع ببحث ودروس التفسير في الحوزة العلمية إحياء لعلوم القرآن وتنشيطاً لدروس الحوزة الشريفة وأداء للوظيفة العلمية، وكانت الإفاضات الربانية جلية على هذا البحث موضوعاً ومنهجاً وأسباباً.

ويتناول هذا الجزء والذي يليه مباحث في علوم القرآن وإشراقات مما

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٤

فيه من الفيض الإلهي وهو مدخل كريم في أبواب علم التفسير، ولقد حرصت على جعل هذه المباحث والمحاضرات بعيدة عن الخلاف وأسباب الشقاق، ومنحصرة بإحياء علوم القرآن وما تؤدي إليه جرياً وإنطباقاً من مضامين الوحدة بين المسلمين وتعظيم الشعائر ونبذ الفرقة .
لقد أراد الله عز وجل القرآن أن يكون سور الموجبة الكلية الذي يجذب المسلمين جميعاً إلى مائدة السماء، لينهلوا مجتمعين ومتفرقين من خزائنه، ويقتبسوا من درره وفرائده، والله ولي التوفيق.

النجف لإشرف

سلامة القرآن من التحريف

التحريف في اللغة هو الإمالة والعدول بالشيء عن موضعه، وتحريف الكلام تغييره عن مواضعه، وفي الإصطلاح قد يقصد المعنى اللغوي وقد يراد منه التأويل بخلاف القصد والغاية والمعنى الظاهر المراد منه، وفي تفسير قوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١).

قيل (أي يفسرونه على غير ما أنزل ويغيرون صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

ولكن المعنى أعم ويتعلق بذات الكلام كما هو ظاهر الآية والعموم لأن القرآن لم ينزل لأهل زمان دون زمان أو يخص أمة دون أخرى بل هو متجدد ومستوعب للوقائع والأحداث في كل زمان ومكان، لذا إنفرد بخصوصية إعجازية وهي إحاطته باللامحدود مع كونه محدوداً في حروفه وكلماته.

ورمي فرقة أو مذهب بتحريف القرآن فيه مسألتان، صغرى وكبرى، الصغرى الطعن والتهمة بين المسلمين، والكبرى: هي الإساءة إلى القرآن وإن كانت الغاية بخلافه والإساءة ليست مقصودة بالذات، وهو أمر لا يرضاه أي مسلم مما يقتضي تحمل المسؤولية في حفظ القرآن وتعاهده، وقاعدة تقديم الأهم على المهم بإجتناّب إتهام الآخرين بالتحريف لما في هذا الإتهام من إساءة للقرآن.

وعلى علماء المسلمين الإلتفات إلى هذه القاعدة الكلية وضرورة جعلها من أساسيات وألويات عملهم، ولا يمنع ذلك من التصدي للمقالات الباطلة إكراماً للقرآن، وأسرار الوحي، بل إن المسؤولية لا تنحصر بالعلماء فهي وظيفة كل مسلم مسلمة خصوصاً مع هذا الإرتقاء

(١) سورة النساء ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦

النوعي في المدارك والعلوم ومراتب التحصيل، كل مسلم مسؤول عن تعاهد وسلامة القرآن، وترك الطف والرمي بتحريف القرآن من مقدمات الوصية الإسلامية وأسباب طرد النفرة والكدورات بين المسلمين لقد شرف الله المسلمين فجعلهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ومن خصائص خير أمة في المقام وجوه:

الأول: التنزه عن تحريف الكتاب النازل على نبيها.

الثاني: تعاهد وحفظ القرآن من التحريف والتبديل والتغيير.

الثالث: تلاوة آيات القرآن، وعدم تضييعه، وتتجلى هذه الآية بإعجاز في عبادات المسلمين بتلاوة المسلمين للقرآن في الصلاة اليومية على نحو الوجوب.

الرابع: منع رمي بعض المسلمين بعضهم الآخر بالتحريف، لأنه سالبة بانتفاء الموضوع، فالقرآن المتوارث خال من التحريف، ويتلوه كل المسلمين.

وفي الرسائل العملية يذكر في موارد جواز الغيبة القدح في المقالات الباطلة وأن أدى إلى نقص في قائلها وهو موضوع صحيح إلا أنه من جهة المحمول قد لا يصدق عليه أنه من موارد الغيبة الجائزة لأن الغيبة ورد عنها النهي مطلقاً قال تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ (١) وموارد الجواز الجواز لا بد أن تحمل عنواناً غير الغيبة وأن مثل هذا المورد يخرج بالخصوص من عنوان الغيبة خصوصاً وأنه يتعلق بالأصل بالمقالة فيدخل مثلاً تحت عمومات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحياء الحق وإماتة الباطل.

ومما يدل على تمام وكمال القرآن وإنعدام التحريف فيه أمور:

(١) سورة الحجرات ١٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧

الاول: النصوص الدالة على عرض الحديث النبوي على القرآن
وطرح ما يخالفه، ومعرفة صحة الحديث بموافقة القرآن فلو لم يكن القرآن الذي بأيدينا تاماً وصحيحاً فكيف يكون القياس الوحيد لمعرفة المصدر الثاني في التشريع الإسلامي وهو السنة النبوية، فأحاديث العرض شاهد على خلو القرآن من التحريف.

الثاني: الآيات القرآنية التي تدل على عدم حصول التغيير فيه كآية التدبير ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١) فهذه الآية وان جاءت بصيغة الخبر إلا أنها تحمل معنى الإنشاء والتحدي، والخطاب فيها ينحل ويتوجه إلى جميع الناس فهو تثبيت لإيمان المسلمين، وتحد وتأديب للكافرين وأهل الجحود والضلالة.

الثالث: آية الحفظ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٢)، لقد جعل الله تعالى القرآن نوراً يهدي للتي هي أقوم، وهو وسيلة للاحتجاج، وحجة دافعة.

الرابع: آية عدم طرو الباطل على القرآن .

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٣) فتدل الآية على عصمة القرآن من الزيادة والنقيصة والتبديل والتحريف بعناية ولطف من الله تعالى.

الخامس: وآية الجمع ﴿أَنْزَلْنَا جُمُعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٤) وليس من حصر للآيات التي تؤكد سلامة القرآن من التحريف، وحرص المسلمين على

(١) سورة النساء ٨٢.

(٢) سورة الحج ٨.

(٣) سورة فصلت ٤٢.

(٤) سورة القيامة ١٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٨

عصمته، وتلك آية إعجازية في القرآن وأسرار بقائه غصاً طرياً كزمان تنزيله، ويجذب النفوس ويبعث فيها معاني الإيمان.

السادس: دليل العقل اذ أن القرآن عماد الدين {المصدر الأول للتشريع ودستور المسلمين في دار الحياة الدنيا.

السادس: مبادرة الصحابة إلى حفظ آيات القرآن حال نزولها، ودراستها، ومعرفة تفسيرها.

السابع: حفظ المسلمين لآيات وسور القرآن ، ففي كل جيل من المسلمين ومن أيام التنزيل والصحابة هناك أمة تحفظ القرآن.

الثامن: رجوع عامة المسلمين إلى من يحفظ القرآن.

التاسع: عرض النسخ المكتوبة من الصحف على النسخ الأخرى، ومقارنتها {والإرادة العامة بلزوم التطابق بينها.

العاشر: يدل تعدد القراءات، والتي تسمى بالقراءات السبعة، والقراءات العشرة على خلو القرآن من التحريف وحرص المسلمين على تعاهد حروفه وكلماته وآياته، من وجوه:

الأول: عدم وقوع التباين في تلك القراءات إلى كلمات معدودة.

الثاني: حصر المسلمين جميعاً للتباين في الحروف بتلك القراءات.

الثالث: إتفاق المسلمين على أولوية القراءة المرسومة في المصحف عند التباين في القراءات، وعدم إلتفات أغلب المسلمين إلى تلك القراءات لإكتفائهم بما في المصحف.

لقد تعاهد المسلمون القرآن حفظاً ودراسة وعناية، ومن إعجاز القرآن أن المسلمين في كل جيل يعتبرون أن من واجبه حفظ القرآن، ومع أن الإعجاز في القرآن يتعدى موضوع البلاغة، فإن بلاغته وفصاحته تثبت بالواسطة أن يد التحريف لم تصل إلى القرآن مع أن اللغة العربية مملوءة بالمشارك اللفظي.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩

وإذا كانت هناك أحاديث تقول بالنقص في القرآن فهي ضعيفة دلالة وسنداً، إذ أن أغلبها يرجع إلى رجال ضعيفي الحديث أو فاسدي المذهب أو أنهم نعتوا في كتب علم الرجال بالكذب والتهمة أو بالوقف أو وصفوا بالغلو.

وهناك قاعدة كلية في علم الحديث وهي أن الحديث إذا خالف الكتاب والسنة المتواترة والإجماع بدليل قطعي فلا بد من تأويله أو حمله على ما يناسبه وإلا فإنه يطرح ويرجع إلى أهله وإن كان صحيح السند، وعليه منهج الأصوليين والمحدثين وعليه إجماع المفسرين، ولا عبرة بمن شذ وخالف القول الثابت والمتوارث عند المسلمين بعدم وقوع التغيير في القرآن مطلقاً.

ويؤكد حديث الثقلين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "تركتم فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي" (١)، بالدلالة التضمنية على بقاء القرآن، وعدم تحريفه.

وبلحاظ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر عن كثير من المغيبات فلا يمكن أن يأمر بشيء مستقبلي إلا وهو تام وكامل { } والنصوص القائلة بالنقيصة إذا عرضت على القرآن تراها تحتاج إلى التأويل وأنها نفسها تتعلق بالتأويل والمعنى والتفسير { } وتدل على بعض أسرار القرآن وعجز الآخرين عن إدراك كنهه.

وهل كان هذا النقص المزعوم من الأحكام أم في باب الاعتقاد أم الأخبار.

وإستقراء اهتمام المسلمين في أيام الرسالة بالآيات القرآنية حفظاً وتدويناً يدل على ضبط القرآن آنذاك وعدم سقوط كلمة واحدة منه، وكذا الاعراض عنها بعد ثبوت عدم صحتها.

(١) الدر المنثور ٢/٤٠١ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠
فلا بد من تأويل أخبار التحريف، وينحل نفي التحريف في المقام إلى
موضوعين.

الاول: إثبات سلامة وصيانة القرآن من التحريف.

الثاني: نفي الأخبار القائلة بالتحريف سنداً ودلالة.

إن ذكر أخبار النقيصة في بعض كتب المحدثين لا يعني بالضرورة أنهم
ملتزمون بها او بالعمل بظاهرها، فليس في الكتب المعتبرة عند كل فرقة
من فرق المسلمين ما يدل على التحريف والقول به، كما إن نقل الحديث
لا يدل في باب الحجية على إتخاذ ناقله له عقيدة ورأياً نعم طرح تلك
الإحاديث هو الاولى { } وحرص التابعين على العناية بكلمات القرآن
وضبط حركاته والاكثار من نسخه ونشرها في الامصار من السمات
التأريخية والرجالية { } والشواهد على تواتر وتوارث كلمات وآيات
القرآن.

ووردت بعض الكلمات من قبل بعض الصحابة في
القراءة { } عن الطبري حدثنا محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد بن
جعفر، قال: ثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: في قراءة عبد الله (وَاللَّيْلِ إِذَا
يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَالذِّكْرِ وَالْأُنثَى) (١).

وكذا نسب إلى ابن عباس أنه كان يقرأ: "حم سق" بإسقاط (العين)
وهي قراءة الإاعمش (٢)، فهل هذا تحريف، الجواب: ليس بتحريف والمدار
والمدار على القرآن الذي بين أيدينا، ومثل هذه الكلمات موجودة في
القرآن الذي تقرأه، وإلإسقاط على فرض صحة سنده قول نادر وأجنبي
عن القرآن فلا يصدق أنه تحريف، بل هو قول متروك أعرض عنه
المسلمون وتمسكوا بما في الكتاب.

(١) تفسير الطبري ٤٦٦/٢٤ .

(٢) تفسير الطبري ٥٠٠/٢١ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١

لقد ذم الله الذين ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (١) أي يميلونه عنها
عنها ويغيرونه لفظاً، ومعنى، أو هما معاً، ويحملونه على خلاف الظاهر
وما تدل عليه القرائن، لقد سعوا في كتم البشارات برسالة محمد صلى الله
عليه وآله وسلم التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة وأرادوا كتم
الحقيقة بتغيير المعنى والتأويل.

ومما هو متسالم وثابت واقعاً ووجداناً أن القرآن باق إلى يوم القيامة،
والبقاء لا يكون تاماً إلا بحفظ الأجزاء والمفردات والكلمات وأن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والأئمة عليهم السلام بذلوا الوسع
في تحقيق ذلك.

وورد في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ (٢)
أنها بشارة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإطمئنان له من تلاعب أهل
البدع بالقرآن من بعده، ولا بد من إعداد دراسة خاصة تتعلق بما تتضمنه
السنة النبوية الشريفة بخصوص تعاهد القرآن وحفظ آياته وكلماته، وفي
جمعه وسلامته من التحريف والتغيير لكي يبقى محفوظاً إلى يوم القيامة.

وهناك نقطة يجب الإلتفات لها بما يفيد الحصر في التحقيق وهي هل
يتعلق موضوع التحريف بما بين الدفتين على نحو القضية في واقعة او
السالبة الجزئية، ام أنه يخص غير آيات القرآن الذي بين أيدينا؟ بعبارة
أخرى هل كلمات القرآن هذا فيها تغيير أو تبديل ام أن المقصود
بالتحريف ما هو خارج الدفتين.

وإجماع علماء المسلمين على سلامة القرآن الذي بين أيدينا أي أن
موضوع التحريف لا يخص ما بين الدفتين وعندها يهون الخطب ويقل
ويتضاءل النزاع وتتضح الصورة اذ أن تجديد البحوث في موضوع تحريف

(١) سورة النساء ٣٦.

(٢) سورة الحجر ٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢

القرآن فيه لبس وتضليل للناس خاصة وأن المتخصصين في العلم قليلون، وموضوع التحريف جملة وتفصيلاً يتعلق بما هو خارج عما بين الدفتين وفي نفيه إستدامة لوحدة المسلمين وقيام الحجّة على المكلفين ودعوة للناس جميعاً لكي ينهلوا من القرآن وعلومه لأن كل كلمة فيه هي تنزيل من رب العالمين، وليس من قرآن غير هذا الذي بين أيدينا أسماً ومسمى ومن الآيات أن القرآن ينفرد بهذا الإسم، وهو علم عالمي يعرفه أهل الأرض بهذه التسمية.

وورد في بعض تلك الاخبار أنه نقص ثلث القرآن او ربه، ونقص اربعين اسماً في سورة تبت منها أسماء جماعة من المنافيين، ولكن لو كان لبان، وشاع بين المسلمين والأخبار {ك} ودون في الكتب ولتنادى أولاد أبي لهب أن إسم أينا ليس وحده في السورة بل معه فلان وفلان لاسيما وأنهم اشتكوا للنبي من إسماع الناس لهم بعض الكلام بهذا الخصوص. وتلك أخبار آحاد لا ترقى إلى القطع والاختذ بها فطرحها أولى وذكر العدد إجمالاً دون ذكر الاشخاص باب للتهمة والظنة وإثارة للأحقاد والضغائن، كما يمكن حملها على التأويل والتفسير والتخويف {ك} وأن باب التوبة مفتوح لذا كان الستر {ك} بينما جاء ذكر أبي لهب من علم الله عز وجل أن التوبة لن تدركه بالإسم والنعته وهو إعجاز قرآني.

ومن الأنصاف أن نقول وبما ينفع الحقيقة ، لماذا يذهب أفراد إلى الإحتجاج بأنه مع تقدير النقص او هذا التحريف لم يبق لنا إعتداد على القرآن ولبطلت حجته والإحتجاج به لأنها تكون على خلاف ما أنزل الله، وأن الفائدة منه مع التحريف غير تامة هم أرادوا الإشكال والرد على أولئك الذين قالوا بالتحريف، فصوروه اعم مما قيل، وأخذوه على نحو لإطلاق دفعا للتهمة وتعريضاً بالقائلين به، ولكن ردهم لا يخلو من القصور إلا أن يكون لإقامة الحجّة وإبطال الشبهة بإستحضار كبرى كلية

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣

وهي ثبوت حجية القرآن فلا بد من بيان القصد ورفع اللبس.
ولا بأس دراسة تحصر موضوع التحريف المزعوم وسند النصوص الواردة فيه وبينان ضعف رجالها وضعف الدلالة وتقييدها أو تأويلها بما لا يتعارض وآيات القرآن والسنة النبوية الشريفة وهذا جزء من تحدي القرآن للتحريف، وهناك دراسات عديدة في هذا الباب بذل مؤلفوها جهوداً علمية جريئة في التحقيق ولكن الأمر يحتاج إلى المزيد بما يناسب وضرورة الذب والدفاع عن القرآن وإتباع منهجية جديدة مع التوسعة فيها، وتكون المناقشة والدراسة فيها على وجوه:

الأول: دلالة القرآن بذاته على خلوه من التحريف.

الثاني: ورود النصوص التي تؤكد سلامة وعصمة القرآن.

الثالث: دلالة علم الأصول على عصمة القرآن.

الرابع: كلمات وأقوال الصحابة وعلماء المسلمين عامة.

الخامس: منافسة تلك الأخبار الضعيفة عقلاً وتاريخياً ووجداناً وعقائدياً مع عدم الطعن بفرق المسلمين.

وقد يكون من المناسب أيضاً تجاهل هذا الموضوع ونفيه بإثبات خلو القرآن من التحريف، خصوصاً وأن عامة المسلمين متسالمون على أن هذا القرآن خال من التحريف، وبذا يقومون بتعاهده.

ويساهم القول بالمعنى الأعم للإعجاز وبيان مصاديقه في طرد ونبد وتفنيد القول بتحريف القرآن وهو مدرسة جديدة في علوم إعجاز القرآن تبين سعتها وكثرتها وتعددتها في كل ما يتعلق بعلم القرآن.

وفي القرآن الذي جمعه الإمام علي عليه السلام قال: ولقد جئتكم بالكتاب كمالاً مشتملاً التأويل، فقد يكون الساقط هو التأويل أو من الحديث القدسي ونحوه.

وترى المسلمين يحرصون على تجنب نعت بعضهم بعضاً بالتحريف لما

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ١٤

في ذلك من الافتراء وإلساءة إلى القرآن أيضاً، ولصعوبة تحققة واقعاً بعد ثبوت حقيقة وهي أن القرآن بين الدفتين.

وقداسة القرآن عند كل المسلمين معروفة وهي من ضروريات الدين وما تبتنى عليه عقيدتهم وأن آيات القرآن وظواهره حجة.

في كتب الفقه الاستدلالي ترانا نمتنع عن الإستدلال بالحديث الذي لا يوافق القرآن ، ولا نأخذ به مدركاً ودليلاً، والقرآن الذي بين أيدينا جمع أيام النبوة والخلافة الراشدة إذا ما هو الجمع؟ هل هو اكتمال السور ام الترتيب؟ اذا كان الأول فقد حصل في ايام النبوة وما بعدها مباشرة هو المتواتر تواتراً قطعياً عند عموم المسلمين.

وتم الجمع ايضاً أيام الخليفة أبي بكر الصديق وتم جمعه وتوحيده في عهد الخليفة عثمان، وأن هذا الجمع ليس فيه زيادة او تحريف وهو الذي بين أيدينا الآن، حينما تكون هناك قاعدة كلية وضابطة عامة فلا بد من تأويل الأحاديث بما يتناسب معها، نحن نقول بعدم تبدل كلمة من القرآن ﴿﴾

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي: "القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس فخذوه وأجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة..." الحديث.

ولا نقول بمسألة الإنساء التي تذرع بها بعض إلاصوليين لتوجيه ما ورد من ضياع بعض الآيات بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والقرآن الموجود بين أيدينا بجمع عثمان بعد أن أحرق المصاحف الأخرى.

وفي بسم الله الرحمن الرحيم منهم من قال أنها ليست من القرآن وأنها زائدة وأن عثمان اثبتها فيه على رأس السور فصلاً بين السورتين، وكثير من الصحابة بإلاضافة إلى ائمة اهل البيت يجمعون على أنها من

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥

القرآن وجزء من كل سورة منها بل هي اشرف آية وفي هذا القول تعاهد للقرآن وتثبيت وإقرار بالكبرى الكلية وهي أن ما بين الدفتين قرآن. وفي موضوع نفي التحريف عن القرآن ذب وصيانة للعقيدة والأحكام الشرعية، فالقرآن ميثاق السماء في الأرض وعلى فرض حصول تحريف للقرآن، فمتى وأين وكيف، ومن قام به ولماذا؟ بل أن السؤال الذي يتقدم هو هل يجزأ عليه احد؟

الجواب: لا، وعلى فرض وجود مثل هذا الشخص ممن نزغ الشيطان في نفسه فهل يستطيع فعله؟ هل يتمكن شخص او جماعة من إحداث تحريف في القرآن؟ الجواب: لا لأن الحفظ والتعاهد الإلهي للقرآن وحرص المسلمين على صيانتته ودفع يد التبديل والتحريف عنه سد منبع وأمان دائم يجعل القرآن في حرز، والمسلمون لم يفتروا ساعة واحدة وفي كل بلدانهم عن تدارسه وقراءته وختمه ومتابعة وجوه تفسيره وتأويله.

وقد تتصدى بعض الأقلام بين الحين والآخر إلى هذا الموضوع وتأتي بروايات تتعلق في ظاهرها بالنقص في القرآن او عدم إحتوائه آيات معينة كانت نازلة، ولكن تلك التهمة وحيث يكون موضوعها القرآن والتحريف فيه لا أصل لها، وينفيها التأريخ والواقع، وفيه إيذاء للمسلمين وإرباك وتحد لهم في باب العقيدة وأن كان بالإمكان التفكيك بين المسألتين وإللتزام بحفظ وصيانة القرآن.

ويمكن القول ان تلك المسألة هي الكبرى ويلزم إعلام الأمة واقطاب الشريعة بالتصدي للاقلام التي تسيء إلى القرآن بالواسطة أو بالعرض ومن غير قصد.

لابد أن يكون موضوع التحريف الموهوم هو هذا القرآن الذي تسالم عليه المسلمون وعلى ما بين دفتيه منذ أيام الإسلام الأولى، وعلى الباحثين في هذا الباب ألا يحرصوا جهودهم في الذب عن مذهبهم وأن أصحابهم لم يحرفوا القرآن ويجمعوا على ما يظهر أن غيرهم هو الذي

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦

حرف في القرآن ويبحثوا في بطون الكتب ليأتوا ببعض الروايات التي يحاول أن يستقرأ من ظاهرها ما يدل على ذلك، ومقتضى الأصل أن تكون وظيفتهم هي الذب عن القرآن وتوكيد سلامته من التحريف ويتفرع عنه جرياً وإنطباعاً تنزيه المسلمين جميعاً، لأن الملاك هو نصرة الحق وتثبيت الهداية في النفوس ومنع إتخاذ القرآن آلة للفتنة وقد إراد الله عز وجل رحمة وعزاً وسلاحاً ونصراً للمسلمين.

وأعرض كبار العلماء والمفسرين عن التعرض للقول بتحريف القرآن الموضوع جملة وتفصيلاً لا عن عدم إكتراث والتفات أو غفلة وسهو بل عن تجاهل مقصود وورع في النفوس مغروس وللتسالم

على عدم وجود تحريف في القرآن، وتدارك تلك الأخبار المؤمنون أحياناً بالتأويل والتوجيه وحالت العناية السماوية دون تفشي أضرارها ومادتها، وفيه إعجاز قرآني، وهو مصداق لحفظ الله تعالى للقرآن وعمل جهادي يثاب عليه أهل الايمان وحملة القرآن.

قال الامام الصادق عليه السلام: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نور فما وافق كتاب الله

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧

فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه" (١).

وصدرت أخبار العرض هذه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا عبرة بالقول الشاذ القائل بأنه لا تعارض بينها وبين حصول التحريف وسقوط بعض الآيات بعد أن إنتقال صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى.

لأن النصوص التي نصت على إرجاع السنة إلى القرآن وردت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في كتب المسلمين وهي غضة حية في كل زمان عن الإئمة عليهم السلام أيضاً، وبضمنية أن القرآن الذي كان في أيامهم هو نفسه الذي في أيدينا الآن.

إن تلك النصوص وإبتداء من زمن النبوة تؤكد حجية القرآن وعدم حجية ما لم يقطع بأنه قرآن وما ليس بين الدفتين فلا بد أن يكون العرض عليه كموجود متواتر قطعي الصدور وتدل عليه أيضاً قاعدة نفي الحرج، إذ كيف يكون التكليف بما لا يطاق وهو بحضوره وهيئته وقراءته المتواترة بين المسلمين قاطبة ينفي النقيصة حينما تعرض عليه لإحاديث بإعتبار أنه الكتاب السماوي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (٢).

ومن ضرورات الدين التمسك بمحكم آيات كتاب الله في العبادات والمعاملات وعدم الإلتفات إلى ما يعارضه، ولاقوال التي تتعارض مع صيانه وإجلاله وحفظه.

وأخبار النقيصة في القرآن أخبار آحاد فلا تصلح للإستدلال فيما يستلزم القطع والتواتر بل ويتعارض معه ولا بد من تأويلها فمثلاً قال عبد الله بن مسعود وهو من كبار الصحابة ومن الأوائل الذي جهروا بقراءة القرآن بمكة وكان يقوم بخدمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) تفسير العياشي ٨/١ .

(٢) سورة فصلت ٤٢ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ١٨

ورففته في الحل والترحال والغزو، أن المعوذتين ليستا من القرآن، وكان يحكما من المصحف ولم يأخذ المسلمون بهذا القول، وقد ورد بإسناد عن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "القرآن عرصة لإسلام" (١)، وأن كان على نحو الاستعارة ويدل الحديث على أن القرآن هو الوعاء العقائدي لأحكام الإسلام وهو الجامع المانع. وقال أصحاب عبد الكريم بن عجرد من الخوارج في أواخر المائة الأولى أن سورة يوسف ليست من القرآن أنها قصة عشق ولا يجوز أن تكون وحياً كما عن الملل والنحل، وعلى فرض صحة النسبة فلا إعتبار بقولهم هذا وقد فاتهم الالتفات إلى نظمها وما فيها من الإعجاز والدروس وتجراًوا على ما تسالم عليه المسلمون منذ أيام التنزيل بأنها جزء من القرآن.

وورد في حلية الأولياء بإسناد عن رجل من أشجع قال: "سمع الناس بالمدائن أن سلمان في المسجد فاتوه فجعلوا يثوبون إليه حتى إجتمع إليه نحو من ألف، قال: فقام: فجعل يقول: إجلسوا إجلسوا، فلما جلسوا فتح سورة يوسف يقرؤها فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقى في نحو من مائة فغضب وقال: الزخرف من القول أردتم؟ ثم قرأت عليكم كتاب الله فذهبتم" (٢).

إن وجود إختلاف في كلمة أو حرف في بعض القراءات لا يعني تحريفاً كما في قراءة (وسارعوا) وأخرى (سارعوا) بلا واو (٣).

أن الكتاب المعد لنقل الرواية لا يعبر عن رأي صاحبه فاذا أورد خبراً بالتحريف فلا يعني أن صاحب الكتاب يقول بالتحريف إلا أن يتعهد صاحب الكتاب بصحة ما يرويه على الاطلاق تعهداً صريحاً

(١) مجمع البحرين ١٤٨/٥ .

(٢) سورة .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٣ وقرأ أهل المدينة والشام بغير الواو، والباقون بالواو .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩

وشاملاً، وظهور تلك الإحاديث ظهوراً بيناً لا يحتمل تأويلاً أو وجوهاً أخرى، وعدم وجود معارض لها فيكون التسايط أو النظر بالرجحان. أما القول بالزيادة في القرآن أي أن القرآن الذي بين أيدينا فيه زيادة غير منزلة فلم يقل به أحد من المسلمين ولا اعتبار بقول فرقة مندثرة، بل أن الموعظة تقرأ من حالهم وتجراهم على القرآن، ولم يبق لهم الله أثراً. والقول بتغيير كلمات القرآن لم يثبت وروده ولم يرد عن معصوم، فما بين الدفتين قرآن منزل وعليه إجماع بل بضرورة من الدين، أما القول بالنقص في القرآن وهو موضوع التحريف المزعوم وقال به افراد وإستدلوا على ذلك بروايات تبين النقص في القرآن ولكن طريقها آحاد وهي لا تفيد العلم ونادرة أو شاذة ولا بد من تأويلها، والاجماع سبق قولهم وتأخر عليه.

عن العلامة الحلبي: الحق أنه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه وأنه لم يزد ولم ينقص وأعوذ بالله تعالى من أن يعتقد مثل ذلك فإنه يوجب التطرق إلى معجزة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المنقولة بالتواتر. وقال الصدوق الذي يلقب بشيخ المحدثين قبل أكثر من الف سنة وكان حائطاً باخبار إائمة عليهم السلام: إعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك^(١).

وبعدم التحريف في القرآن قال الشيخ المفيد وهو معروف بورعه وتقواه وكثرة الاعتماد على إخبار القرينة بما في ذلك المحفوف بالقرينة، كما قال به أيضاً السيد المرتضى والشيخ الطوسي.

والمتقدمون من الفقهاء والمفسرين لم يقولوا بالزيادة والنقيصة ولكن الخلاف نسب إلى علي بن ابراهيم بل هو مذكور في مقدمة تفسيره،

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠

والمقدمة ليست من إعداده بل كتبها ما قيل أنه تلميذه وهو العباس بن محمد والذي لم يوثق.

اما موضوع النسخ فإنه لا يعني تحريفاً واذ ثبت أن الله عز وجل أسقطه من القرآن فهو إعجاز ولا يعد تحريفاً، لكن النزاع في الكبرى وهي كيف كان الطريق والدليل إلى احتمال نسخ التلاوة وإعتقاد سقوط شيء من القرآن.

ووردت نصوص في بعض الكتب عن النقص في القرآن، قال عبد الله بن عمر: "لا يقولن احدكم قد أخذت القرآن كله، ما يدرية ما كله، قد ذهب منه قرآن كثير" (١)، وقالت عائشة: "كانت سورة الاحزاب تقرأ في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم تقدر إلا ما هو الآن"، والمدار على ما بين الدفتين. بالإضافة إلى مسألة نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، أي هناك آيات نسخت ورفعت ولكن حكمها لا زال باقياً.

عن هشام بن الحكم وغيره عن الصادق عليه السلام قال: خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنى فقال: "أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله".

وتبرز في موضوع نفي التحريف عن القرآن أهمية علم الرجال اذ أن الروايات التي تشير ضمناً إلى تحريف القرآن ضعيفة السند بالإضافة إلى أنها أخبار آحاد ولا حجية لها ولا تستطيع معارضته إلاولى القطعية التي تفيد سلامة القرآن ممن التحريف.

وفي القرآن تبيان لكل شيء وهو المرجع في الخصومة والنزاع وطلب الحقيقة، هل أخبر القرآن عن عدم التحريف فيه، لقد تعرض القرآن إلى المسائل الابتلائية التي تخص المسلمين بل وعامة بني آدم فكيف بمثل هذا

(١) الدر المنثور/١/٢٠٠ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٢١

الموضوع العام البلوى؟ وأكدت آيات القرآن سلامته من التحريف والتبديل وإلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿أَنَا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ (١).

في خبر السكوني عن الصادق عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، وماحل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل" خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا موجه إلى الامة بأجيالها المتعاقبة فهو يوصي بالقرآن لأنه يعلم بالعلم الحضوري أنه موجود عندهم.

وورد لفظ التحريف في ثلاثة مواضع من القرآن فيها لفريق من أهل الكتاب على تحريفهم الكلم عن مواضعه، فالقرآن لم يذم المسلمين ويحذرهم من الاقدام على تحريف القرآن، وإجماعهم على عدم التحريف والنقص فيه وليس من وجود لمسألة التحريف في حياة المسلمين بمعنى أنهم متسالمون على أن ما بين الدفتين نازل من عند الله تعالى.

ووردت بعض نسخ القرآن بفرق كلمة، ودعوى التحريف لم تتعلق بالمعنى اللغوي، وقد يحصل الخلاف والنزاع في التفسير والتأويل، والمعنى موضوع مختلف عما يقصد القوم من التحريف في القرآن، إنهم يريدون أمراً آخر، يقولون إن في القرآن تغييراً وتبدلاً لما نزل على صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والذي يذم غيره بهذا ينفي التهمة عن نفسه في التحريف وتلك تهمة يرفضها ويرفض ما فيها من العار والفضيحة كل مسلم.

هل هناك أيادي ونوايا سوء ضد الإسلام في سرد بعض الإخبار

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٢

والروايات المفتعلة وإلا كاذب أريد منها الفرقة بين المسلمين لا يستبعد ذلك لا أقل في إستغلال وترويح مثل هذه الإخبار، ويجب أن لا يكون القرآن عرضة لأسباب الخصومة المذهبية والخلافات الفقهية في باب الأحكام لأن مداركها جميعاً من القرآن، وهو موضوع الوحدة بين المسلمين قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

ولا غرابة في وقوع إختلاف بالتأويل ووجوه الإستنباط ونوع الروايات المعتمدة عند بعضهم والمعتمدة عند البعض إاخر سواء كأن بلحاظ السند أو الدلالة والمضمون ولا ربط لموضوع التحريف بالقراء والقراءات لأن القرآن هو الكتاب المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإختلاف في القراءة إجتهد في بيان النطق وقراءة القرآن، وفي كيفية أدائه والمساحة والتعدد فيها لا صلة لها بالتحريف وهناك شواهد في أيام النبوة على القراءة المتعددة لبعض الكلمات للبيان والتيسير والتفسير كقضية في واقعة.

وبالإسناد عن عبد الأعلى، قال الصادق عليه السلام: "أصحاب العربية يحرفون كلام الله عن مواضعه"، والمراد منه إختلاف القراء وإجتهدهم في قراءتهم مع وجود أصل القرآن بين الدفتين سواء على القول بتواتر القراءات السبع ام على القول بعدم تواترها وابتنائها على إجتهد لغوي ظني لكيفية القراءة، ويظهر هذا التحريف بالقراءات الشاذة وله شواهد كثيرة في كتب التفسير والقراءات، ولا علاقة لهذا التحريف بالمعنى الإصطلاحي ويدل على أن التحريف إذا ورد في النص أعم من التحريف في الإصطلاح.

والزيادة او النقص في الحروف او في الحركات واقع في قراءة القرآن

(١) سورة آل عمران ١٠٣، أنظر الجزء السابع والأربعين الذي جاء خاصا بتفسير هذه الآية الكريمة .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٣

لعدم ثبوت تواتر جميع القراءات لأن القرآن المنزل مطابق لأحدى القراءات، وعلى فرض ثبوتها فإنها رحمة وسعة وفضل من الله تعالى على المسلمين، وآية في التنزيل.

وهذا ليس من التحريف الإصطلاحي وإدعاء تعدد وجوه التحريف إرباك للمسلمين وخلاف الدقة في التحقيق.

والمدار في التحريف يجب أن يكون موضوعية هذا القرآن الذي بين أيدينا وإذا ما شككنا بالتحريف، فالأصل البراءة لأنه من الشبهة الموضوعية.

ومع إمكان استعمال لفظ التحريف في أكثر من معنى ويكون من المشترك اللفظي، فالقاعدة تقتضي إستحضار القرينة لفهم أحد معانيه وعدم إبقائه مجملاً لا يدل على أحد معانيه، إذ لا يمكن أن يجتمع في آن واحد على ملحوظ واحد من جهة واحدة لأن الوجود بسيط.

بالإضافة إلى أصالة الظهور أي أن اللفظ قد يراد منه معنى معين لا يقبل الخلاف فيكون فيه نص، وقد يحتمل اللفظ إرادة غير الظاهر، فالأصل فيه حيثئذ هو قصد المتكلم للمعنى الظاهر من اللفظ دون خلافه إلا مع القرينة الصارفة إلى غير الظاهر لذا قيل أن لإصول العملية الأخرى راجعة إلى هذا الأصل فإذا كان اللفظ يحتمل المجاز يحمل على ظاهره، وإن كان يحتمل التقييد فيحمل على الإطلاق وإذا احتمل التخصيص فإنه ظاهر في العموم.

وهكذا بناء العقلاء ومحاوراتهم في الخطابات الجارية بينهم وهي عدم الالتفات إلى احتمال غير الظاهر إلا مع القرينة فماذا يراد من التحريف؟ المتبادر هو أن تغييراً حصل في أصل القرآن، وهذا ما لم يحصل وخلاف النص والظاهر والوجدان، وتعاهد المسلمين منذ عصر النبوة لآيات القرآن.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٢٤

لاسيما وأن الموضوع يتعلق بكل مسلم يلتزم ويرتبط بعقيدته وبأخلاقه ثم أن لم يتيسر لكل المسلمين البحث والدراسة وأخذ زبدة الاحكام وثمره البحوث ونتائج الدراسات، فلا بد من تحديد معنى إصطلاحي للتحريف ثم إيجاد أسماء أخرى لتلك المعاني التي قد يطلق عليها بعضهم عنوان التحريف مجازاً أو إستعارة، للفصل والتمييز والمحافظة على النظرة النوعية السليمة للقرآن بما يناسب عظيم منزلته وما يستحقه من الاكرام.

فنفي التحريف عن القرآن، فيه فوائد ومنافع من وجوه:

١. تنزيه كتاب الله.

٢. الإقرار والانصياع لعمومات قوله تعالى ﴿أَنَا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ

لحافظون﴾ (١).

٣. تعاهد الوحدة الإسلامية وهي حاجة ملحة في هذا الزمان، وفي كل زمان.

٤. دخول القرآن وإلامة نظام العولة بتماسك وثقة وحصانة عقائدية.

٥. طرد روح الشك والتردد من النفوس.

٦. تعاهد الآيات القرآنية وحفظها والغبطة من منازل العبودية بالصلة مع الباري عز وجل عند القراءة والتلاوة.

٧. الإبتعاد عن الافتراء والقذف بالمسلمين أو بالفرق الأخرى.

٨. الإندفاع النوعي العام في دراسة القرآن وإظهار علومه ومكنوناته.

ويمكن تقسيم التحريف بلحاظ الزمان إلى ثلاثة أقسام أمس واليوم وغداً.

وبالنسبة للتحريف في أمس والمراد منه الماضي والمنصرم من أفراد الزمان إذ لم يبت التحريف وقصده وإرادته، وكان المسلمون جميعاً

(١) سورة الحجر ٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٥

حريصين على سلامة القرآن من التحريف إلى جانب الفضل والمدد الإلهي في حفظه.

أما الحاضر فهو تأكيد بعض إخبار الشاذة التي تتعلق بالتحريف وإستغلاله لمقاصد خبيثة أو سوء تأويله.

أما المستقبل فهو ما يحتمل أن يحصل من تحريف في المعنى والمضمون والتأويل.

والتحريف في القرآن يتصور على وجوه:

١. وجود الزيادة فيه.

٢. وجود النقيصة.

٣. تغيير وتبديل بعض الكلمات والحروف.

٤. تغيير مواضع الآيات والتقديم والتأخير.

والأمر يقسم إلى:

١. ما قبل التنزيل.

٢. أيام التنزيل - محاولات إغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٣. ما بعد أن تقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق

الاعلى.

٤. تحول النظام الإسلامي إلى ممالك وحصول الاحتلال أحياناً

ودخول المستشرقين.

٥. ظهور الفرق والطوائف عند المسلمين.

٦. حصول الفتن بين فرق المسلمين.

والقرآن بنفسه ينفي التحريف عنه، ولا يحتاج إلى جهود ومؤسسات

ولكن هذا لا يمنع من تظافر الجهود لإبراز الإعجاز الذاتي للقرآن في منع

التحريف ووسائله وأسبابه من الوصول إليه.

وكتمان الآيات من التحريف ولكن هذا لا يمنع من الاجتهاد في نفي

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٢٦

وإبطال دعوى التحريف وان جاءت لاحقة، وليس من كتمان آيات القرآن خاصة وأن الله تعالى جعل قراءته واجبة يومياً على كل ملكف من المسلمين والمسلمات وجعل واقية على النبي قال تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(١)، وهو من عمومات سلامة القرآن من التحريف، ومنع الكفار من تحريفه.

ونتناول التحريف اليوم، والمراد من اليوم لغة ما يشمل الأيام المعاصرة، والسنوات القليلة الماضية والتي نعيشها فكيف يتحدى القرآن التحريف فيها؟

وأن كأن العنوان أمس واليوم وغداً وعطف كل منها على الآخر، والعطف يدل على التعدد والتغاير بمعنى حينما نقول صليت الظهر والعصر، فهذه الواو بينهما تدل على أن الظهر غير العصر وأن جئنا بهما جمعاً من غير أي فصل بينهما، ويؤثر بعضها ببعض الآخر، فالتحريف في أمس يؤثر على حال القرآن والمسلمين في هذا الزمان وفي الغد أيضاً، ولكنه لم يحصل وإدعاءه وتجديد القول به وطعن بعض فرق المسلمين بالقول به أمر لا أصل له ويجب تنزيه القرآن، وإجتنب التعدي عليه، وأن جاء في زمان وكيفية معينة، ومن وجوه دراسة الموضوع:

١. الفارق بين النسخ والتحريف.
٢. التحريف في الكتب السابقة للقرآن.
٣. فلسفة عدم تحريف القرآن، فما دام هو الكتاب السماوي والشريعة الثابتة إلى يوم القيامة فلا بد أنه غير محرف، بتعاهد من الله تعالى وعليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والوجدان.
٤. الصلة بين جمع القرآن وأوانه من جهة وبين عدم التحريف.

(١) سورة الإسراء ٤٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٧

٥. البحث في الأخبار القائلة بالتحريف وإبطالها بعرضها على القرآن والسنة بل بأقوال أصحابها الأخرى وإقرارهم وتسليمهم بعدم التحريف، ويساهم بالمفهوم في نفي التحريف لما يدل عليه من الإقرار بنزوله من عند الله تعالى.

٦. مطابقة القرآن للوقائع والأحداث والمكتشفات العلمية تدل على إعجازه.

٧. مقامات التحدي وأقسامها:

- ◆ الحسية.
- ◆ العقلية.
- ◆ الجسمانية.
- ◆ العلمية.
- ◆ التاريخية.
- ◆ الأخلاقية.
- ◆ الاجتماعية.

قال تعالى ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١).

نطرح لها تفسيراً يتماشى وحقيقة التحدي القرآني وهو أن الاجتماع لا ينحصر بأهل زمان دون زمان، فالالف واللام وردت للجنس وليس للعهد، أي لو أن كل أمة من الإنس والجن في زمانها اجتمعت وأعدت ما تسعى لأن يشبه القرآن ثم جاءت الأمة اللاحقة والجيل التالي وتم وهكذا إلى يوم القيامة لما استطاعت الأجيال مجتمعة أن تأتي بمثله، وكما يشير القرآن إلى العلوم والآفاق فإنه أيضاً ناظر إلى مسألة التطور التقني والثورة المعلوماتية.

ويمكن أن نستقرأ أخبار القرآن في هذه الآية عن حصول وحلول العوالة، فقد يقال سابقاً أن الآية مجرد فرض إذ لا يمكن اجتماع الناس وهم في امصار شتى، أما الآن فإن الاجتماع حاصل والتحدي القرآني

(١) سورة الإسراء ٨٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٢٨

باق، نعم لا بد أن نجتهد في إظهار إعجاز القرآن وعلومه في خصائص القرآن أنه متقدم على زمانه دائماً في علومه ومضامينه وأحكامه، فعلى أن نؤكد بالمبرز الخارجي وبالأرقام والإحصائيات أنه متقدم على زمانه.

مثلاً نخبر عن اختراع يخبر القرآن على أنه من عالم الإمكان لا أن نقف عند حال الرجوع إلى القرآن عند اكتشاف علمي جديد للبحث عن مصداقه في آياته الشريفة وإن كان هذا الأمر حسن أيضاً، إلا أنه يكون اقوى حجية وعوناً للناس لو تم إبتداءً، ولا بد من تأسيس مؤسسات متخصصة في كافة أبواب العلوم وظيفتها تلمس أوجه الأكتشاف في القرآن في هذا الباب ليقى التحدي متصلة ولإثبات حاجة الناس للقرآن.

مثلاً قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِتَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)، ما من داء إلا له دواء، مما يستلزم العمل الدؤوب من الدول والمؤسسات وبذل الأموال وإعانة الأطباء في بحوثهم وبناء المختبرات وصناعة الأجهزة المناسبة لإكتشاف الدواء للأمراض المستعصية.

وفي قوله تعالى ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)، مسائل:

الأولى: حث على تأسيس وزارة باسم وزارة الأرض.

الثانية: لزوم العناية بالزراعة ومقدماتها.

الثالثة: بشارة خروج كنوز الأرض من النفط وغيره.

الرابعة: إخبار عن أن في أرض مصر ثروات أرضية لم تستثمر بعد وأن كان ظاهرها الزراعة، ولكنها أعم.

الخامسة: منع التفريط بخيرات الأرض.

(١) سورة الشعراء ٨٠.

(٢) سورة يوسف ٥٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٩

السادسة: وجوب إختيار أيادي أمينة تتولى الإشراف على الثروات التي تخرج من الأرض فقد كان يوسف عليه السلام نبياً. هناك وظائف إيمانية خاصة بهذا الباب منها:

١. الذب عن القرآن وحفظه.

٢. تقوية الايمان.

٣. تحبيب القرآن للنفوس، وجعل الناس تتدبر في آياته قال تعالى ﴿وَإِذَا

قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ (١).

٤. مواصلة التحدي وإلجهار به بالقرآن وهو من عمومات قوله تعالى

﴿وَرَبِّ الْقُرْآنِ تَرْبِيًّا﴾ (٢)، أي أن الآية أعلاه تدعو للجهد بالقرآن.

٥. الدخول إلى العولة والهجوم بأقوى الأسلحة وهو القرآن خاصة

وأن ميزان القوى المادية يميل إلى جانب غير المسلمين، فيأتي القرآن ليرجح كفة المسلمين بالصلاح والامانة وتمسكهم بالقرآن وأحكامه.

٦. أن تحدي القرآن لا ينحصر بالمنعة الذاتية أي لا يقف عند طرو

محاولات التغيير والتبديل في كلماته وآياته، بل يمكن أن نحمل التحريف على المعنى الأعم، فهل يستطيع القرآن أن يتحدى التحريف في القيم والأخلاق والقوانين والشرائع الجواب: نعم، وبذا نقل موضوع الجهاد القرآني إلى الساحة العالمية ومختلف الميادين.

٧. من التحريف الذي يتحدها القرآن الظلم والجور الذي يتعرض له

المسلمون.

٨. ومن التحريف غزو المسلمين في عقر دارهم، فالقرآن يفضحه

ويخزيه قال تعالى ﴿فَنَنْزِلْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٢) سورة المزمل ٤.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٣٠

عَلَيْكُمْ ﴿١﴾.

٩. سلامة القرآن من التحريف حرز وحفظ للمسلمين وعوائلهم
ومساجدهم.

وعن الإمام علي عليه السلام قال: "كنا اذا حما الوطيس لذنا بالنبى صلى
الله عليه وآله وسلم"، فعلينا أن نلوذ بالقرآن، نثور، نستخرج علومه،
نجمه ملاذاً.

ومن إعجاز القرآن، أنه يحارب التحريف عند الملل الأخرى، وفي
مناهج السلوك في كل زمان.

ترى ما هي النسبة بين الإعجاز والتحدي؟

النسبة هي عموم وخصوص مطلق فكل إعجاز هو تحدٍ وليس كل
تحدٍ هو إعجاز، والقرآن بذاته يتحدى القائلين بالتحريف ويمنع من وجود
مستمع لهم ، ويبدد أخبار الآحاد والشاذة التي تقول به، ليقى شاهداً
على جهاد المسلمين في حفظه وتعاوده ،

وسلامة القرآن من التحريف دعوة للناس للإيمان، وحث على اللجوء
إلى كلام الله لتتجلى في تلاوته والعمل بأحكامه صلة الانسان بالباري عز
وجل وإرتقاء المسلم في عالم الملكوت.

وقد تفضل الله عز وجل وأنزل القرآن نجوماً وعلى مدى ثلاث
وعشرون سنة ليكون هذا التدرج والتعاقب في نزول الآيات وسيلة مباركة
لسلامته من التحريف، وحفظ المسلمين له في صدورهم، وقيامهم بتدوين
آياته، وكثرة نسخها، وقد أراد الكفار نزوله مرة واحدة ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (٢)، وهم لا يعلمون أن تنزيله نجوماً دعوة متجددة

(١) سورة البقرة ١٤٩ .

(٢) سورة الفرقان ٣١ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٣٢

والوحي مصدر التكليف والشرائع، وبه تعرف النبوة وقيل لولاه لإنقطعت أخبار السماء، أقول: أنه نوع طريق للتبليغ والله واسع كريم فاذا لم يكن الوحي فإن الله تعالى يختار أنبياءه، ويبلغ الأحكام بما يتدعه.

قال الإمام علي عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجهيزه: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد إنقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء" (١).

ووردت مادة (وحي) في نحو سبعين موضعاً من القرآن، وهناك آيات أخرى تتعلق بالوحي، ولكن بغير لفظه كما في قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَذِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢).

ولا يدرك كنهه وكيفية ذلك التعليم لأنه حدث في السماء، ولعل له نواميس تختلف عن نواميس وأحكام الأرض، وبينهما عموم وخصوص من وجه، وعلى هذا هل يكون هذا التعليم لآدم بمثل الوحي بواسطة الملك أو لا، الأقرب هو الثاني إذ أنه وبعد أن تم تعليم آدم عليه السلام قالت الملائكة ﴿ لَا عَلِمَ لَنَا ﴾، ومن المستبعد أن ينقل الملك ما لا يعلمه، أي أن الملك لم ينقل هذا الوحي إلا على فرض أن الملك الذي نقل الوحي والتعليم إلى آدم لم يكن مشمولاً بسؤاله وأمره تعالى ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾.

وبين الوحي والقرآن عموم وخصوص مطلق، فكل قرآن هو وحي، وليس كل وحي قرآناً، وأول ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء وكان يخلو في غار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد في الليالي ذوات العدد، (لعل العدد هنا الإحصاء

(١) نهج البلاغة ٢/١٧٠.

(٢) سورة البقرة ٣١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٣٣

والحصر)، قبل أن ينزع إلى أهله ويرجع إلى خديجة ويتزود مثلها حتى جاء الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١).

والوحي أعم من النبوة ومعرفة التكاليف ويدل على عموم قدرة الله تعالى وإتصالها إبتداءً وخلقاً وإستدامة فكل ممكن يتمتع حصوله وبقاؤه بدون علة، والوحي يدل على إنقطاع سلسلة الممكنات بواجب الوجود لذاته، ويدل أيضاً على أن الموجودات لا تستطيع الإستغناء عن مشيئته تعالى للملازمة الحاجة للإمكان.

وبين النبوة والوحي ملازمة وإن كان بعض الأنبياء ممن يتنبأ في منامه ومنهم من يسمع الصوت ولا يرى الملك، وصحيح أن الأنبياء من البشر، ولكنهم اختلفوا عن الناس بما خصهم الله عز وجل به من الفضل وشرف النبوة وعظيم وظائفها.

ومن المسلمات أن الوحي إلى الأنبياء لم يكن على مرتبة وكيفية واحدة، وهو أعم من أن يكون لفظاً، وقد جمعت للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجوه الوحي.

وقد ينقطع الإنسان إلى التسييح والعبادة ويمارس رياضة روحية وقسوة في نوع الغذاء وكميته، وقد يحصل على كشف أهل العرفان أو الهام أهل الوصل، ولكنه حس ذاتي ووجد أن نفسي وتوظيف للا شعور أو الحاسة السادسة أو إفاضة ربانية، ويختلف في الماهية والموضوع عن الوحي السماوي الذي هو فيض من الكمال إختص الله به الأنبياء على

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٣٤

نحو الحصر تشريفاً ومرتبة ووظيفة ملكوتية كمبعوثين لأهل الأرض برسالة السماء.

وفلسفة الوحي أكبر من أن تدركها أوهام البشر فهو عنوان الإتصال الدائم بين الباري والخلق، فكما نفخ الله سبحانه من روحه في آدم عليه السلام فإنه تعالى أبى أن يترك الإنسان الذي أسجد له الملائكة وكلفه بالعبادات من غير مادة للإتصال ومعرفة ما يجب عليه وما ينتهي عنه إلا الوحي للأنبياء، فكان الوحي قواعد سماوية وتشريعية ثابتة لأنارة دروب الهداية وفضح صيغ الضلالة ووجوه الكفر.

وقد يكون معنى الوحي في القرآن أخص من معناه في اللغة، فلم يرد لفظ الوحي فيه موضوعاً بين الناس بعضهم مع بعضهم الآخر، مما يدل على أهمية المعنى الإصطلاحي له ولإعطائه صبغة عقائدية ولتوكيد أهميته، نعم ورد في زكريا ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١).

وقال المفسرون أن الوحي هنا الإشارة، ولكن البحث فيه أعم، فإنه وحي بالواسطة ودعوة صامته وتلك الدعوة قد تجمع أحياناً بين الوظيفة الشرعية والأمن على النفس، وفيه دلالة على موضوعية التسييح في الدعوة إلى الله وأهمية المواظبة عليه كطريق إلى التقوى وسبيل إلى الإنصات إلى الأنبياء في تبليغهم ونقلهم لرسالة السماء، وبيان الحقيقة وهي أن الدعوة الصامته فرد من مصاديق جذب الناس إلى الإيمان .

لقد أوحى إليهم زكريا أن سبحوا الله، والنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالأحكام والشريعة الحققة لفظاً وفعلاً وتقريراً، مما يدل على علو درجته في عالم النبوة.

(١) سورة مريم ١١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٣٥

وفي دراسة مقارنة تظهر نعمة الله تعالى على المسلمين بالوحي فإن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يرون ما يصيبه من الكرب وأن جبينه يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ساعة نزول الوحي كآية محسوسة لفلسفة الرسالة ومشقة تحملها، لذا فمن مستلزمات الوحي إمتلاك شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم للكاملات الإنسانية بفضل الله، كمقدمة عقائدية وإجتماعية ومصدر توفيق ومقدمة لتصديق الناس وإستماعهم له، فمن لا يكون صادقاً مع الناس في سيرته ومعاملاته وكلامه لا يصدق الناس بدعوى النبوة.

وأطلق الباحثون في علم الكلام هذه المقولة على نحو السالبة الكلية، ولكن على القول بعصمة الأنبياء مطلقاً فإن الله عز وجل إذا أراد أمراً أتقنه وأحكمه وقبض أسبابه ويمكن الإستشهاد بالمعجزة فهي دليل قاطع على صدق النبي، وقد يكون الإنسان صادقاً في كل حياته ثم يدعي النبوة كاذباً او وهماً او خيالاً وإن كان هذا على سبيل الفرض، فمن إعتاد الصدق وتلبس به كفرد من أفراد الصلاح تتبلور بنفسه حواجز أدبية وأخلاقية، وتكون عنده طبائع حميدة تحول دون إدعاء الزور والكذب، نعم كانت العصمة رحمة، وعنوان تخفيف عن الناس ومقدمة علمية للتصديق بالنبي وإعداداً إلهياً لمنصب النبوة والإمامة.

ووجود أسباب وشرائط الصحة من طرف الفاعل والقابل لأنه تعالى أتقن كل شيء، وعلى فرض وجود خلل سابق في القابل، فإن الأسباب من طرف الفاعل والعلة الغائية كافية في التنجيز وتحقيق غايات النبوة لعظيم قدرة الله تعالى، وإستجابة المخلوقات جميعاً لإرادته.

وهذا القول يفتح آفاقاً لإستمرار الوحدة العقائدية للمسلمين وإن إختلفت مذاهبهم الكلامية ليصبح تباين الأقوال في عصمة الأنبياء قبل النبوة نزاعاً صغروباً وهو الحق، وليس في ذلك إغراء للمكلفين باتباع الكاذب، لإعتبار موضوعية المعجزة في ثبوت دعوى النبوة، والمعجزة في

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٣٦

الإصطلاح أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، ولا ينالها الكاذب للتناقض والتضاد بين النبوة والكذب، ولعصمة الأنبياء مطلقاً، ولأنها فيض وفضل إلهي إختص به أشرف خلقه وهم الأنبياء. وللوحي أسرار وأحكام لم تستوف الدراسات الإسلامية حقها سواء ما تعلق بكيفيته وموضوعيته وإختلاف صورته عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ما أنزل إليه وإلى غيره من الأنبياء، وصفات الملك الذي يأتي بالوحي وهيئته ومقدماته وبدائياته وموضوعه وغاياته وأثره ونفعه العقائدي والأخلاقي.

روي الحرث بن هشام أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟"، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس [٢٢٢] أي صوت الجرس - وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول" (١).

وعن عبادة بن الصامت قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه" (٢)، وفي رواية نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما سرى عنه رفع رأسه".

وفي حديث الوحي كأنه صلصلة على صفوان، والصلصلة صوت الحديد، إشارة إلى وجود المشقة والصعوبة في تلقي الوحي، إن مقام النبوة منزلة لا تنال إلا بفضل وتعاهد وعناية من الله تعالى، فمن لا يعده الله لتلقي الوحي لا يستطيع تحمله، أي أن الإعداد للنبوة يسبق مرحلة الوحي، وهذا الإعداد لا ينحصر بإيجاد المقدرة البدنية على تلقي الوحي بل يشمل المدارك والملكات والأخلاق والأعمال، فلا غرابة إذن أن يسبق

(١) الدر المنثور ٨٣/٩ .

(٢) الدر المنثور ٧٥/٣ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٣٧

نزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تحثه في غار حراء.

ويذكر المفسرون والمؤرخون عزلته صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء، ودرس كل منا في صباه وعلى مستوى العالم الإسلامي ومدارسه هذا في المدرسة، ومن الآيات أنه من المواضيع المدرسية التي سرعان ما ترسخ في الأذهان وتبقى عالقة فيها، ويشترك طلاب الصف على اختلاف وتباين مداركهم في وعيها ومتابعتها بشوق وإجلال، ليكون شاهداً وسراً من أسرار حفظ الوحي، ولكن من غير بيان وذكر العلة وإستقراء الدروس والعبر من هذه العزلة، فلم تكن عزلة حكماء أو فلاسفة بل كانت جزء علة للوحي، فلا بد أن تكون هناك أسباب سماوية لتلك العزلة، إنها مقدمة وباب للإستعداد للوحي ورياضة النفس في مسالك العرفان والإنتطاق إلى الله تعالى.

ونطرح في هذا الباب تساؤلاً جديداً وهو هل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بدايات العزلة وأثناء التحث ينتظر نزول الوحي عليه، الجواب: نعم.

(أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء)^(١)، وكانت الرؤيا الصادقة تسير بعرض واحد مع حب الخلو لخلق العزم والقوة على تلقي الوحي بطمأنينة بعيداً عن الشك في أمره او التردد في تبليغ ما يحمله من أحكام، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: "أول ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ثم حجب إليه الخلاء".

(١) الدر المنثور ١٠/٢٩٨ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٣٨

(وقد روي أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة) وتأويله أن مدة الرؤيا ستة أشهر من أصل ثلاث وعشرين سنة، مدة النبوة والوحي، وفيها تهيئة للنفس لمرحلة سمع وتكليف ومعاينة، وفي قوله تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا﴾ (١)، فأودع في كل سماء السنن والأنظمة الكونية وما يصلح السماوات والأرض وما فيهن.

والظاهر أن المعنى أكثر سعة ومضموناً، وأن الآية تدل على أن الوحي لم ينحصر بالأنبياء تلقياً أو بالإنسان موضوعاً، وأن النظام الكوني محتاج في إستدامة الأحكام الشرعية في أطرافه التي يعجز العقل البشري عن إدراك ما بينها من البعد الهائل إلى الوحي، وأن الملائكة القائمين في أمور السماوات وشؤونها يأتيهم الوحي ليس فقط بخصوص السماء وما يتعلق بها من المسائل الكونية بل وما يهم عباداتهم، ومصاديق الإرادة التكوينية، ويدل عليه أمور:

الأول: لغة المضارع وإلاستقبال في صيغة الأمر الإلهي الوارد في قوله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢).

الثاني: إجتماع صيغتي الماضي والمضارع الذي يدل على الإثنية والتعدد في الأمر كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣)، الأمر الذي يدل على أهمية موضوع الوحي في عالم المخلوقات مطلقاً إذ لا بد من طريق مبارك لتلقي الأحكام من عند الله

(١) سورة فصلت ١٢.

(٢) سورة النحل ٥.

(٣) سورة التحريم ٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٣٩

تعالى ولكن الوحي بآيات القرآن له خصوصية ويمتاز بصفات ملكوتية تتطلب دراسته وتحقيقه ففيه إكرام للإسلام بل لبني الإنسان عامة، ومن فلسفة الوحي توكيد حاجة الناس المستمرة إلى واجب الوجود.

لقد تجسدت فلسفة الوحي بأسمى معانيها بإنزال القرآن فهو أعظم الكتب السماوية، وكان ولا زال المسلمون يتلقون الروايات التي تؤكد عظمته بالتسليم للمصداق العملي الذي يتجلى في آياته وما فيها من الخزائن والإعجاز، والآن وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة وتداخل الحضارات وإرتقاء العلوم أثبت القرآن تلك العظمة، ونشعر بالتقصير والتخلف عن إظهار علومه المناسبة والتي تفيد تقدمه على علوم العصر، وكان الأولى إستظهار العلوم منه، وجعل الأمم تدرك حقيقة ثابتة هي أن القرآن مصدر للعلوم كما هو مصدر للأحكام.

ومن رحمة الله تعالى أن الوحي الإنساني لم ينحصر بالأنبياء بل شمل غيرهم، كما في قوله تعالى ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ (١)، وقوله تعالى (ما يوحى) يفيد أنه وحي حقيقة ومن سنخ ما يوحى إلى الأنبياء إلا أنه لا يتعلق بالأحكام الشرعية، ولكن بإتيان فعل يكون مقدمة وتعاهداً وحفظاً للنبوة، كما مبين في الآية التالية لها ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ (٢)، فالوحي جاء بالعرض مع حصره بفعل محدد ما كان إلا بإرادة إلهية، ولطف يصل إلى أم موسى خصوصاً وأنه مقدمة لفعل يدل في ظاهره على الهلاك.

وفي ترجمة خزيمه بن ثابت الأوسي الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماه "ذا الشهادتين" وجعل شهادته عن شهادة رجلين، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إشتري فرساً من إعرابي، ثم أن

(١) سورة طه ٣٨.

(٢) سورة طه ٣٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤٠

الإعرابي أنكر البيع، فأقبل خزيمه بن ثابت الأنصاري ففرج الناس بيده حتى إنتهى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أشهد يا رسول الله لقد إشتريت منه، فقال الأعرابي: أتشهد ولم تحضرنا؟ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أشهدتنا؟ قال: لا، يا رسول الله، ولكنني علمت أنك إشتريت أفأصدقك بما جئت به من عند الله، ولا أصدقك على هذا الأعرابي الخبيث؟ قال: فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: يا خزيمه شهادتك شهادة رجلين. رواه الكليني بسند صحيح عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام^(١).

والحديث يدل على موضوعية الوحي في إسلام الكثير من المسلمين ورسوخ الإيمان في صدورهم وصيرورته ملكة ومرتكزاً للمعاملة مع إلتزامهم بالامتثال له أمراً ونهياً، وجاءت إفاضات الوحي والتصديق به على نحو القضية الشخصية في الشرف العظيم الذي ناله خزيمه وبواسطته المسلمين جميعاً لتصديقهم بالوحي والنبوة.

ويمكن تقسيم الوحي بلحاظ الواسطة والموحى إليه إلى:

١. ملك إلى ملك، وهذا ينقسم بلحاظ المحل إلى قسمين:
١. ملك إلى ملك في السماء.

٢. ملك إلى ملك في الأرض، وهو برزخ في الوحي، ومنه ما أنزل على الملكين في بابل كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾^(٢).

٣. بواسطة ملك إلى بشر، وهذا ينقسم بلحاظ الشرف والمسؤولية الرسالية إلى:

١. الوحي إلى الرسول.

(١) الكافي الجزء ٧ كتاب الشهادات ٥ باب النوادر (٢٣) الحديث ١.

(٢) سورة البقرة ١٠٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤١

٢. الوحي إلى النبي.

٢- الوحي إلى الصديقين، وهذا ينقسم إلى:

١. ما هو مقدمة إلى النبوة كما في قوله تعالى ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي

التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ (١).

٢. وحي الهداية الملحق واللازم او المتعقب للنبوة.

٢- الوحي إلى حيوان غير ناطق.

١. الوحي إلى عالم الكون.

ويمكن تقسيم الوحي بلحاظ الموضوع الى:

١. الوحي السماوي.

٢. وحي النبوة.

٣. وحي الصالحين، ومنه أيضاً ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ

أَمْتُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ (٢).

٤. الوحي العام وهو ما عدا الأقسام الثلاثة اعلاه كما في قوله

تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٣)، ويرى النظام الدقيق لحياة وعمل النحل

مجتمعاً وأفراداً وبغريزة قذفت فيها بالوحي، ولعله من باب المثال الظاهر،

والآية الحسية وليس من باب الحصر في عالم الحيوان، وتدل الآية في

مفهومها على التنظيم الدقيق لنوع الحيوان.

وهل الوحي عقلي أو حسي ونوع وقوف على أصول علمية وفلسفية

(١) سورة طه ٣٩.

(٢) سورة المائدة ١١١.

(٣) سورة النحل ٦٨-٦٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٤٢

ومطلق أعمال الفكر، أم أنه من جنس المبصرات والمسموعات ونحوها من أعمال الحواس؟ الجواب: إن الوحي يختلف في سنخيته عنهما فهو حقيقة نوعية متميزة تتعدى قدرات الإنسان، طرأت بالعرض على نفس النبي بآية من الله تعالى، وبها يختلف النبي عن غيره من الناس وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (١).

ليس الوحي فرع وجود شخصية ثانية للإنسان الذي قالت به بعض الدراسات الغربية في أواخر القرن التاسع عشر، أو أنه شخصية راقية فوق شخصيته العادية التي تحرك جوارحه، وليس هو من الوحي النفسي كما حاول بعض كبار رجال الكنيسة تفسير الوحي به في محاولة لإضعاف الإسلام والانتقاص من نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام.

لقد خلط بعض العلماء الماديين بين الوحي وما توصلوا إليه بالعلم التجريبي من نتائج تفوق مدارك صاحب التجربة الحسية والعقلية، كما في قدرة أحد الرعاة مثلاً على إيجاد الجذر التكعيبي لعدد يتكون من سبعة أرقام بدقة واحدة أوصله إلى معادلة جبرية، أو إمكانية صبي على عمليات حسابية في غاية التركيب وبسرعة، وحاولوا نفي نزول الوحي من السماء، ثم إنتقلوا من هذا الخلط إلى القول بتنزيه الله عز وجل عن سماع الملائكة لكلامه لأنه لا يوصف بمكان وأنه لا يعقل أن يقابلوه، لذا نسب إلى المستشرق موتيه نظرية وهي أن الوحي الهام يفيض من نفس النبي وليس من الخارج.

وتلك الأقوال محاولة لتحريف الحقائق وطمس العلوم السماوية، وإضرار بالإنسانية، وحجب رحمة نازلة لأهل الأرض بواسطة الأنبياء وظلت مجرد أقوال لا إعتبار لها في أبواب العلوم وعند الناس ولعل

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤٣

إنحسارها من مفاهيم قوله تعالى ﴿أَنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ
حَافِظُونَ﴾^(١)، ولأنها خلاف الحقيقة وهي ضلالة وتضليل وقصور في
الرؤية ومحاولة لطمس آيات ينتفع منها الناس جميعاً، فاستقلالية الوحي
ظاهرة ومعروفة عند الملمين، وغير الملمين وكانت سبباً لإيمان الكثيرين كما
أنها حجة في ملازمة الأصحاب للنبي بإدراكهم للحقيقة السماوية للوحي
وأنة لا يكون إلا من خارج الإنسان وبما يفوق الموهبة والنبوغ ونحوهما،
ويمكن إدراك ذلك بالوجدان وبالشواهد والوقائع فأيات الوحي لم
تنحصر بزمان وأيام النبوة.

إنه تمثل حقيقي للملك الرسول في عملية إكرام للجنس البشري ولكن
أهل الجحود يجربون عن أنفسهم ما فيه من الرحمة بما يوصله إليهم
الشیطان من الخلط ويجعله على أبصارهم من الغشاوة، ولقد حورب
الوحي من قبل الأنس والجن منذ ساعاته الأولى، فإبليس سخر جنوده،
والكفار إستقبلوا الوحي بدعوى أنه سحر وأنه أساطير الأولين.

وترى إنعدام أثر تلك الأقوال بل وفقدانها في الذاكرة الإنسانية لولا
أن القرآن هو الذي ذكرها.

وفيه آية من إعجاز القرآن في باب الوحي، لما فيه من دلالات على
أهمية موضوع الوحي في الشريعة الإسلامية ومنزلته العقائدية وما يترتب
على إثباته من حقائق وأحكام، كما يدل على علم الله تعالى بظهور تلك
الأقوال بأردية تناسب كل عصر وزمان، وهذا القول يمكن جعله جواباً لما
قد يقال في أسباب تجاهل مثل هذا الخلط والدعاوى الزائفة.

إن توسيع مباحث الوحي إظهار لنعمة الله ولعداوتنا للشیطان وهو
نوع تجاهر وإعلان للشكر على هذه النعمة الخالدة التي تعتبر منقذاً

(١) سورة الحجر ٩.

سماوياً لأهل الأرض.

ولم يبدأ الوحي مع نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وموضوع الوحي ملازم لوجود الإنسان على سطح الأرض وقبل أن ينزل لتفضل الله بتعليم آدم الأسماء في السماء وأمره لأدم أن يعلمها الملائكة ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (١) وإن إنقطع فترات معينة، ولكنه رفع بانتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، وقيل مما أوحى الله إلى أئينا آدم عليه السلام (أن المستنبطين للعلوم عندي أفضل من عمار الأرض بالصنائع، ومن إستنبط علماً ودونه في كتاب فهو بمنزلة آدم الصفي)، وورد أيضاً أن الله تعالى قال لأدم عليه السلام: (روحك من روحي وطبيعتك على خلاف كينونتي)، ولم يذكر السند في الخبرين ولا جهة الصدور.

وذكر الطبري ما نسبه إلى القليل "أنه كان مما أنزل الله تعالى على آدم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وحروف المعجم في احدى وعشرين ورقة"، وعدم ذكر السند ونسبته إلى القليل نوع تضعيف للحديث إلا أن هذا كله لا يمنع من الأقرار بتلقي آدم الوحي للملازمة بين النبوة والوحي وللإجماع وورود النصوص على نبوته، بالإضافة إلى ظاهر وإطلاق قوله تعالى ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (٢)، وقوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (٣).

والوحي سر سماوي متصل بالأرض جاء بواسطة أشخاص الأنبياء، وفيض ملكوتي مبارك، وزائر لم يأت إلا في أيام النبوة وقد غادرنا بإنقطاعها إلى يوم القيامة، ولكنه لم يغادر إلا بعد أن ثبتت حقيقته في

(١) سورة البقرة ٣٣.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤٥

الأرض وبقي حياً في الكتب السماوية المنزلة لاسيما في القرآن ولعله بقي فيه وحده حصراً باعتباره الكتاب السماوي الوحيد الذي لم تصل إليه يد التحريف، وفي ذلك إعجاز للقرآن ليقى في موضوعه وما جاءت به الأنبياء من عند الله، والقرآن كله وحي.

وكل يوم تتجدد علوم الوحي، ويدرك المسلمون ما فيه من المفاهيم والكليات العقلية في تقريب منه تعالى للحقائق إلى أذهانهم، ومن آياته تعالى أنك ترى المسلمين يستحضرون وعلى نحو مستديم ومتصل أيام الوحي وما لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مشقة في تلقيه وما عاناه من قومه بسببه.

ومن جهة نزول الوحي فإنه يمر بثلاثة مراحل:

١. تفضل الله تعالى بالأمر بالوحي.

٢. نزول الملك وهو الواسطة بالوحي.

٣. تلقي الموحى إليه وهو النبي للوحي.

وللوحي كفيات متعددة يمكن إستقراؤها من السنة وتتبع الأخبار والنصوص منها:

١. أن يأتيه الملك مثل صلصلة الجرس لما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: اسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض^(١).

أي أنه مقدمة للوحي وإخبار الملك بما جاء به من عند الله ليفرغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قلبه له، "وقيل هو صوت خفق أجنحة الملك وأنه ينزل هكذا اذا نزلت آية وعيد وتهديد"^(١)، وهو تأويل حسن، ولكن الأمر أعم مما ذكر لتعلقه بخصوصية الوحي وإختلافه عن نواميس

(١) تفسير ابن كثير ٧/١٩٠.

(١) أنظر الإقتان في علوم القرآن ١/١٢٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤٦

الأرض والتعامل بين أهلها إنها نسخة السماء التي لا تنفصل بالموجود الأرضي إلا باحتكاك وحال لا يخفى معها عدم التجانس رغم سلامة توجهه إلى الغاية، والقصد الذي لا يمكن أن يخطئه.

٢. أن يأتي الملك في المنام كما تقدم في حديث الإمام الباقر عليه السلام لأن رؤيا الأنبياء وحي.

٣. أن ينفث في روع النبي الكلام نفثاً، كما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: "أن روح القدس نفث في روعي" (١)، والنفث شبيه بالنفخ وهو أقل من التفل لأن التفل لا يكون إلا ومعه شيء من الريق، والنفث نفخ لطيف بلا ريق، ويمكن القول أنه في الإصطلاح القاء المعنى في القلب بما يوقعه في البال ويكون مبيناً عند المتلقي.

٤. أن يسمع الصوت من غير أن يرى الملك.

٥. يسمع الصوت ويرى الملك في صورة رجل، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول" (٢)، وتلك الحالة يختص بها الرسول دون النبي.

٦. رؤية الرسول للملك بهيئته الأصلية، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "قال ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد كيف يأتيك الوحي يعني جبرئيل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... الحديث"

وأخرج عن النواس بن سمعان إذا أراد الله أن يوحى بأمر تكلم بالوحي ، فإذا تكلم بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله تعالى ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ،

(١) تفسير القرطبي ٤٨/١٦ .

(٢) الدر المنثور ٨٣/٩ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤٧

فيمضي به جبريل عليه السلام على الملائكة عليهم السلام ، كلما مر
بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول { قال الحق
وهو العلي الكبير } فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل عليه السلام ،
فيتهي جبريل عليه السلام بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض
(١).

أما الوسطة فهو جبرئيل عليه السلام الملك الموكل بالكتب والوحي إلى
الأنبياء الذي ينزل باللفظ، لاسيما وأن لفظ القرآن إعجازي، والقراءة
توقيفية، ولا يجوز القراءة بالمعنى.

وسيقى الوحي سر السماء في الأرض والنور النازل بالهداية والبركة
من غير مدخلية فيه لعقل النبي وحواسه فهو ليس من إلهام الذي يعني
الكشف المعنوي، بل أمر خارجي ينزل من عند الله عز وجل في اليقظة
وعلى مرأى من الناس ليكون حجة وآية كونية، وسيلاً إلى الإيمان،
ومناسبة لإيجاد أحكام الشريعة في الأرض، ووثيقة ملكوتية وشهادة
ودليلاً على أهلية المنزل عليه لخلافة الأرض، وحمل لواء التوحيد.

ويتضمن الوحي وعداً للمؤمنين ودروساً عقائدية وأخلاقية في صلاح
النفوس والدعوة إلى الله والصبر في جنبه والإجتهد والسعي في التبليغ،
ويمكن أن يدرك بعض أنواره بتدبر وإستقراء علومه وأسرار آيات
القرآن.

والوحي هبة الله عز وجل ورسالته إلى أنبيائه، ولكن ماذا يرى منه
الناس، وما يستبين لهم منه بالعرض وحسب الظاهر، فيه وجوه محتملة:

١. كل من كان حاضراً عند النبي يسمع الوحي.
٢. بعض الحاضرين يفوز بهذا الشرف على نحو القضية في الواقعة.
٣. لا يسمع الوحي إلا الذي له قدم في التقوى والصلاح دون غيره.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٤٨

٤. من يأذن له النبي بالسمع يستطيع السمع.
٥. لا يسمع أحد الوحي إلا النبي.
٦. لو كان إلى جانب النبي الموحى إليه نبي آخر فهل يشترك بسمع الوحي بالجامع التشريفي لإعتباري بينهما أم لا، الأقوى الثاني إلا أن يكون الوحي مشتركاً.
- ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه ليس من نبي في زمانه غيره.
٧. قد يسمع الوحي بعض الناس للحجة الخاصة بهم او العامة.
٨. ويرى المؤمنون والناس الآثار الخارجية الدالة على الوحي على نحو الإعجاز.
٩. وجود إختلاف نوعي في الوحي عند الأنبياء، فربما كان مما يوحى إلى الأنبياء قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسمع من قبل بعض الناس او الحاضرين منهم كآية حسية.
- والمتيقن هو الفقرة الثامنة أعلاه، وهي رؤية الآثار الخارجية الدالة على الوحي، ولا يمنع من وجود آيات أخرى عرضية، ولكن الوحي سر السماء الملقى إلى الأنبياء على نحو الخصوص والحصر.
- لقد كان الوحي المدد السماوي والعون والموازر الأول للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين في الدعوة إلى الإسلام، وكانت رسالة السماء سلاحاً وواقية وحرزاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لذا لا يمكن الإحاطة بمنافع الوحي وآثاره، ويتطلب الأمر دراسات مستحدثة في الإسلام تدرس الوحي من هذه الجوانب وأن لا تنحصر أبحاثها بتاريخ الوحي أو كلفيته، ومن تلك الدراسات على سبيل المثال:

١. كيف ساهم الوحي في تثبيت صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٤٩

- وسلم في إعلان الدعوة.
٢. منافع الوحي في نجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلامته من الغيلة والكيد.
٣. أهمية الوحي في إختيار المواقف الحاسمة للمسلمين.
٤. أثر الوحي في تحديد معارك المسلمين من حيث الزمان والمكان والجهة.
٥. كشف الوحي للمناققين.
٦. تصدي الوحي لأعداء الإسلام واثره في نفوسهم.
٧. إخبار الوحي عن المغيبات.
٨. إيمان وإسلام الكثيرين بسبب الوحي.
٩. مدرسة الإصغاء إلى الوحي وإنتظار ما يأتي به.
١٠. إستجابة المسلمين للوحي، الأسباب والنتائج.
١١. الوحي في الهيكل الإجتماعي للمسلمين.
١٢. مساهمة الوحي في تثبيت المسلمين على الإسلام، وتحدي الكفار والمشركين.
١٣. بشارات الوحي.
١٤. تصديق الوحي بالنبوات السابقة.
١٥. إخبار الوحي على لسان الأنبياء السابقين بنبوة الرسول الإكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
١٦. تتبع مراحل الوحي وتطوره.
١٧. صيغ وكيفيات الوحي بالنسبة للأنبياء عامة ثم بالنسبة للنبي

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٠

محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل

١. الوحي قبل القرآن.
٢. الوحي في مكة.
٣. الوحي في الأسراء.
٤. في الحرب والسفر.
٥. في المدينة والحضر.
١٨. أمانة الملك في الوحي.
١٩. وظيفة النبي في الوحي هل هي التلقي فقط، أم التلقي والتبليغ والعمل، ووظيفة المؤمنين.
٢٠. أقسام الوحي.
٢١. التهيئة والتعاهد الإلهي للنبي قبل وأثناء تلقي الوحي.
٢٢. الحكمة الإلهية في الوحي.
٢٣. الوحي والجن، من آمن منهم، ومن حاربه وكيفية محاربتهم له وإتصالها أو إنقطاعها.
٢٤. هل الوحي هو الطريق الوحيد لإتصال السماء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أم هناك طرق أخرى لتبليغه صلى الله عليه وآله وسلم وتبليغ الأنبياء، وهل إنفرد ببعض منها تشريفاً.
٢٥. خصوصيات الوحي والفرق بين وحي القرآن وغيره، كما ورد أن السنة أيضاً كان ينزل بها جبرئيل بالمعنى.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥١

٢٦. دراسة مقارنة بين الوحي إلى الأنبياء، والوحي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومراتب الوحي بين الأنبياء فالوحي إلى الرسول يختلف عن الوحي إلى النبي.
٢٧. منزلة الوحي في العقائد والملك.
٢٨. الوحي والإعجاز القرآني.
٢٩. الوحي من دلائل النبوة.
٣٠. الوحي وعصمة الأنبياء.
٣١. الوحي والأمانة وفق مبحث المشتق في علم إصول، أي الأمانة عند الموحى إليه قبل تلبس المبدأ في الحال أو بعد إنقضاء تلبس المبدأ في الحال، وإنصاف الأنبياء بالأمانة على نحو الإطلاق والإستدامة.
٣٢. إستعدادات النبي للوحي سواء تلك التي إتصلت ببدايات حياته أو تلك التي تسبق الوحي مباشرة.
٣٣. أثر إنقطاع الوحي.
٣٤. الوحي والرؤيا وكيفية التمييز بينهما، وخصائص رؤيا الأنبياء وما لها من الشواهد في القرآن كما في سورة يوسف.
٣٥. أنواع الوحي، والوحي لغير الإنسان.
٣٦. الوحي في القرآن.
٣٧. الوحي في السنة.
٣٨. دراسة مقارنة بين الوحي المكّي والمدني.
٣٩. الوحي رحمة.
٤٠. نزول الوحي.
٤١. الوحي وأهل السماوات.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٢

٤٢. روح القدس.
٤٣. لغة الوحي فقد ورد مثلاً عن سفيان الثوري أنه لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم ترجم كل نبي لقومه.
٤٤. الرد على بعض المستشرقين في موضوع الوحي.
٤٥. العلوم المستنبطة من الوحي.
٤٦. صيغ وكيفيات الوحي، فمنها رؤيا منام ومنها معاينة الملك الرسول، ومنها ما تكون إلى نبي وأخرى إلى رسول، ومنها ما يكون تبليغاً او كتاباً.
٤٧. توظيف الوحي وأسراره لتثبيت الإيمان ونشر الدين.
٤٨. جبرئيل والوحي.
٤٩. الوحي أعم من الكتب المنزلة.
٥٠. الحاجة إلى الوحي في مسالك الهداية والرشاد والصلاح.
٥١. أثر الوحي في حياة المسلمين.
٥٢. الوحي في الشعر والأدب.
٥٣. الوحي والأحكام الشرعية.
٥٤. كتاب الوحي من الصحابة.
٥٥. الوحي طريق لمعرفة لزوم طاعة الله تعالى وإجتنب معصيته.
٥٦. الوحي شهادة سماوية لضرورة النبوة وصدق النبي الموحى إليه.
٥٧. الوحي ومعجزات الأنبياء.
٥٨. دراسة مقارنة بإعتبار أن الوحي معجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
٥٩. الوحي والعرب.
٦٠. كيفية أداء الأنبياء للوحي بتبليغه وترسيخه في الأرض وما انفرد به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الباب  وإستحق

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٣

شرف الإرتقاء والسيادة في التبشير والإنذار.

٦١. الوحي معجزة عقلية.

٦٢. أسلوب وبلاغة الوحي.

٦٣. الوحي خير محض، ونفع دائم ومتجدد إلى يوم القيامة.

لقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"^(١).

الوحي ومنزلته في باب المعجزة، فكانت معجزات الأنبياء السابقين في الغالب حسية آمن بها الذي حضرها وشاهدها، أما معجزة القرآن فهي الوحي والتنزيل الذي يعتبر باقياً بالقرآن وأسراره وبلاغته وعلومه إلى يوم القيامة، وفيه دلالة وبرهان على عظمة الإسلام والإرتقاء الفكري عند المسلمين والمجتمع الذي نزل فيه الوحي، لأن الوحي وآيات القرآن أثبتت معجزات الأنبياء توكيداً وتوثيقاً كسفينة نوح، وناقة صالح، ونجاة ابراهيم، وعصا موسى، وعصمة يوسف، والآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام.

لذا يمكن إستقراء إعجاز قرآني وقاعدة كلامية كلية وهي: بالوحي ظلت معجزات الأنبياء معروفة وحاضرة.

وبين الإعجاز والوحي عموم وخصوص مطلق، فكل وحي إعجاز وليس كل إعجاز هو وحي، مع عدم إمكان التفكيك بينهما، وكل واحد منهما شاهد صدق ودليل ومتمم للآخر.

والوحي من عالم الأمر، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه"^(٢)، وجوامع الكلم لها معنيان:

(١) الدر المنثور/١/٤٦ .

(٢) الدر المنثور/٥/٣٦٧ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٤

الأول: معنى عام أنه كان يتكلم بلفظ قليل ولكنه يريد به المعاني الكثيرة المتعددة، وفي الحديث "حمدت الله بمجامع الحمد"^(١)، أي بكلمات بكلمات معدودة جمعت معاني الجهر والثناء لله تعالى.

الثاني: المعنى الخاص والمراد منه القرآن لأن الفاظه محدودة متناهية ولكنها تحيط باللامتناهي من الوقائع والأحداث، لذا ذكر: ما من حرف من حروف القرآن إلا وله سبعون ألف معنى).

ويمكن معرفة المقصود من اللفظ بلحاظ القرائن والأمارات وقوله صلى الله عليه وآله وسلم "أوتيت" يعني أن المقصود هو القرآن.

وفيه توكيد لإرتقاء القرآن على الكتب السماوية الأخرى، وإستغراق علومه في عالم الملكوت وهو كمال حقيقي وتحصيل في العلوم يترشح عنه إنطباقاً للإيمان واليقين، وترجمة واقعية لعالم الغيب بالدليل والبرهان وإستدلال بالشاهد الحسي على الغائب العقلي.

والوحي عنوان القدرة الإلهية، وكلام الله تعالى غير منحصر بالأصوات والحروف أو الألفاظ أو المعاني والأعراض، لذا قيل بأن نزول الوحي إنما هو مجاز، ولكنه حقيقة عقائدية عقلية وحسية.

وفسره المعتزلة بأن الله يخلق أصواتاً وحروفاً على لسان جبرئيل، وقال الأشاعرة بأن الله يخلق في اللوح المحفوظ كتابة فيقرأها الملك ويحفظها، وتارة تكون أصواتاً في جسم معين يأخذها جبرئيل مع علم ضروري بأنها كلام الله.

وهل الكلام مصدر، أم إسم مصدر، والأول ما دل على الحدث، والثاني ما دل على لفظ، وهذا اللفظ يدل على الحدث، الظاهر أنه الثاني، والكلام لغة الأصوات والحروف المتتابعة الصادرة من المتكلم، وعند جماعة من النحويين المركب من المسند والمسند إليه، الحروف

(١) مجمع البحرين ١/٣٧٨ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٥

المنتظمة والأصوات المسموعة.

ومنهم من جعله المعنى القائم في نفس المتكلم ويبرز إلى الخارج بالحروف والأصوات المسموعة وأكثر المتكلمين على الأول، والنزاع صغروي لأن تلك الحروف لا تصدر من المتكلم إلا على نحو الإخبار والبيان لما يريد وما قام في نفسه، لذا اختلف في إطلاق الكلام على المعاني النفسانية .

وهل هو إطلاق حقيقي أم مجازي، الأرجح هو الثاني.



الإستعاذة

الإستعاذة مشتقة من العوذ وهو الإلتجاء والإستجارة، وقيل أنه بمعنى الإلتصاق يقال أطيب اللحم أعوزه، وهو الملتصق منه بالعظم، ولا بد أن تعني الإستعاذة بهذا المعنى الإلتجاء إلى رحمة الله، وعظمته وإستجابة الأشياء جميعاً لإرادته.

ورد عن ابن عباس أن أول ما نزل به جبرئيل على محمد عليه الصلاة والسلام: قل يا محمد أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الأمر الذي يؤكد، ومن خلال آيات قرآنية ونصوص عديدة أهمية الإستعاذة ومنزلتها في مراتب العبادة والصلاح، والإستعاذة هي قولك (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١).

والمعنى الأول هو الأقرب والأنسب والأظهر، ولا مانع من التعدد بالمعنى والمفهوم، وهل المقصود من الشيطان المستعاذ منه إبليس أو إلام منه، الجواب أنه أعم من إبليس، والألف واللام للجنس وليس للعهد لأن المراد بالشيطان ما كان شراً مطبقاً بالذات والعرض والمدار على عموم اللفظ لا خصوص السبب فلا تنحصر الإستعاذة بالتوقي من إبليس وإن كان الفرد الأهم والأصل المستديم إلى الأجل المعلوم. والشيطان مأخوذ من الشطن وهو البعد، يقال شيطان دارك أي بعد، ولأن الشيطان يتلبس بالمعصية والجحود فانه إبتعد عن الرشاد والسداد أو عن رحمة الله، أو كليهما معاً لما بينهما من نوع ملازمة وتسيب. والرجيم: فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم، قال

(١) سورة النحل .٩٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٧

تعالى ﴿لَنْ نَمُنَّ بِكَ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ (١)، ونعت الشيطان بهذا الوصف لأمر الله الله تعالى الملائكة برمي إبليس بالشهب الثواقب طرداً له من عالم السماوات، ثم وصف به كل شرير متمرد، وفيه أي في تعميم هذا الوصف وعيد وإنذار وتخويف لهم، وتحذير للمؤمنين من شرهم، وجاءت الإستعاذة مطلقة عامة كما وردت شخصية خاصة، وهل الشيطان من المجردات أم أنه من عالم الخلق والمادة، وغير مجرد عن الزمان والمكان والجهة، الاصح هو الثاني لأنه لو كان أمراً عقلياً لما كان مزاحماً أو مضاداً لشيء.

قال تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ اعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٢)، والخطاب وإن كان موجهاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكن المقصود إلامة بأجيالها المتعاقبة وعلى نحو المجموع الإستغراقي للأولوية ومناسبة الحكم والموضوع، فاذا كان النبي المعصوم مأموراً بالإستعاذة فغيره أجدر بإتيانها والمواظبة عليها.

والإستعاذة إقرار من العبد بالعجز عن مواجهة الإبتلاء وإلافتان فهي نوع معرفة بالله عز وجل وتعلق قدرته بالمقدورات جميعاً لإشتراكها في الامكان وملازمة الحاجة للممكن ولانتفاء المانع بالنسبة لواجب الوجود لأن المقتضي قدرته تعالى وهي مطلقة ومتساوية بالنسبة للجميع لتجردها من الزمان والمكان والجهة.

والإستعاذة مصداق لفظي خارجي في أوانه المحدد، مع إعتبار الإستعاذة المعنوية باستكمال صفات الصلاح وإحاطة النفوس بقيود الإيمان، وواقية التقوى لتكون حرزاً من رذائل الأعمال وإغواء الشيطان. ولعل هذا التقسيم يدخل في أصل تشريعها والحكمة منها ليكون من

(١) سورة مريم ٤٦.

(٢) سورة المؤمنون ٩٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٥٨

وظائف الإستعاذة أيضاً، وتكون مصاديقه سلاحاً مركباً، وحصانة للنفس، ومناسبة للإلتفات المتجدد إلى صلاحها.

في القراءة

تعتبر الإستعاذة سرّاً من أسرار القرآن، ومفتاحاً لعلوم ومراتب في التقوى، ومغلاقاً لما يداهم النفس من شرور تحول دون الأنتفاع الامثل من القراءة، فالقوى الشيطانية التي تريد الانتقاص من توجه العبد إلى صلاته، وما في هذا التوجه من صلاح وثبات على دروب الهداية وإرتقاء في درجات العالية في منازل الثواب، ومضامين الاجر فإن قراءة القرآن واقية لدفع وطرد الشيطان وأثره.

ويجتهد الشيطان في إبتكار صيغ الضلالة وهو يحاول إفراغ الصلاة من صبغتها الروحية العبادية، وجعل العبد لا يخرج منها إلا بالقيام والقعود، أو يدس إلى النفس الشكوك والوسواس، او يجعله يجتهد وينقطع إلى العبادة بما يترك معه وظائفه الحياتية والمعاشية الأخرى لذا فإن الأمر القرآني بالإستعاذة نوع رحمة من الله تعالى وتخفيف ومدخل لنيل عظيم الثواب والإنتفاع الأمثل من العبادات، أي أنه تعالى تعاهد الصلاة الشخصية للعبد كما تعاهد الصلاة في كيائها ووجودها على الأرض، أنها سبيل إلى عدم التفريط أو الإفراط، وهذا القول يفتح آفاقاً في مباحث فلسفة الإستعاذة على نحو الانفراد في التصنيف والدراسة.

وتتعلق الآية الكريمة أعلاه بقراءة القرآن في الصلاة وغير الصلاة وأن كان وجوب القراءة ينحصر بالصلاة، فلا شيء من القراءة خارج الصلاة بواجب إلا أن يكون الوجوب بالعرض كالنذر ونحوه، لذا يمكن أن يكون المراد من القراءة الصلاة، تسمية للشيء ببعض أجزائه، ويمكن الاستدلال بقوله تعالى ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١) أي صلاة

(١) سورة الاسراء ٧٨.

الفجر وما يقرأ فيها.

والأمر بالاستعاذة أعم من الوجوب، إن دراسة في مضامين وماهية الاستعاذة يفيد عمومها وأنها تتعدى القراءة أيضاً.

وهل الاستعاذة واجبة في القراءة أم مستحبة الجواب: إنها مستحبة وعليه الإجماع والنصوص، وأوانها قبل الشروع في القراءة وفي الركعة الأولى، وصحيفة الحلبي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعد تكبيرة الإحرام، ثم تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم اقرأ فاتحة الكتاب، وقال السيوطي (يسن التعوذ قبل القراءة) (١) والمراد من السنة هنا الإستحباب والندب.

(وذهب جماعة إلى التعوذ بعد القراءة لظاهر الآية) ومنهم من قال بوجوبها لظاهر الأمر.

وذكرت الفاظ متعددة للإستعاذة منها أستعيذ ونستعيذ وإستعدت إقتباساً من صيغ الإستعاذة في القرآن، وليس فيها حصر من حيث الصيغة وتجوز الزيادة والتقيصة غير المخلة، ولكن السنة القولية والفعلية مبينة للقرآن وفيها أن التعوذ قبل القراءة والمقصود في الآية الكريمة: إذا أردت الصلاة).

وروي عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين إفتح الصلاة قال: الله أكبر كبيراً ثلاث مرات، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاث مرات ثم قال اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه.

والظاهر أنها جاءت على نحو القضية في الواقعة وأنها ليست ملازمة لكل صلاة فريضة، وهي ليست من الحديث المتواتر عن الصحابة وأهل البيت، ويدل إتيان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الإستعاذة

(١) الإتيان في علوم القرآن ١/١٢٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٠

على نحو المرة أو المرات القليلة إستحباب هذه الصيغة من الإستعاذة.
وفي صيغة الإستعاذة وجوه:

- الصيغة المشهورة للإستعاذة هي (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ونعتمها السيوطي: بأنها(صفته المشهورة)، وبه وردت رواية ابن عمار عن الأمام الصادق عليه السلام، وقال السيوطي وكان جماعة من السلف يزيدون(السميع العليم)^(١).

②- (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم).

وكل منهما نزل به القرآن، فمع أن الصيغة الأولى هي المشهورة، وفيها إيجاز، وإجزاء الثانية من المندوحة والسعة.

③- في بعض الأخبار بإضافة: "وأعوذ بالله أن يحضرون".

٦٤. في موثقة سماعة: "أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أن الله هو السميع العليم"، مما يدل على تعدد المطلوب وعدم الحصر، وصدق الإستعاذة اللفظية وتحقق الإجزاء بأي منها.

والكل يفيد الإمثال والإجزاء وفيها مجتمعة ومتفرقة أمر ذو أولوية وهو الإستعاذة المعنوية بأن يقحم المصلي نفسه في دروب الكمالات الإنسانية ويقهرها على الإبتعاد عن رذائل الشيطان والكدورات الظلمانية. وأختلف في كيفية الإتيان بالإستعاذة من حيث الاجهار بها أو الإخفات على أقوال:

١. الجهر بها إظهاراً لشعار القراءة كالجهر بالتلبية وتكبيرات العيد، وعن ابن الجوزي: "أنه المختار عند أئمة القراءة وأن منافع الجهر بها أن السامع ينصت للقراءة في أولها لا يفوته منها شيء"^(٢). وهل هذا المعنى يتعلق بالقراءة في غير الصلاة أم فيها وفي أداء الصلاة

(١) الإتيان في علوم القرآن/١٢٥ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن/١٢٥ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦١

الجهرية جماعة وانفراداً، وهي المغرب والعشاء وصلاة الصبح على القول بالتعميم وشمول الإستعاذة بخصائص الصلاة الجهرية، أم تكون بلحاظ عمومات أحكام الإستعاذة في الصلاة الجهرية والإخفائية- وهي الظهر والعصر- ذات طبيعة واحدة لوحدة الموضوع في تنقيح المناط.

٢. الإخفات بها، وفي الخلاف للشيخ الطوسي الإجماع عليه، وقيل يُسر مطلقاً^(١) وهذه النسبة نوع تضعيف له، وفي التذكرة أنه عليه - أي الإخفات- عمل لإثمة.

والقول الثاني هو الأقوى في الغالب فهو لا يمنع من الإتيان بها جهراً في الصلاة الجهرية خصوصاً مع وجود الراجح الذاتي أو الغيري أي ما يتعلق بالمصلي أو غيره لأن الإستعاذة طرد للكدورة الظلمانية، وتخل عن الأخلاق الذميمة وحرب على الشيطان.

والإستعاذة وفق القواعد الكلامية إقرار وإعتراف بضعف النفس عن مواجهة الفواحش، وحاجة المستعيز للإلتجاء إلى غيره الذي هو مصدر القوة والعزة إذ أن الإنسان يحتاج الإستعاذة بمراتب متفاوتة تتناسب في إطارها مع المنزلة والمقام الإجتماعي والديني والسياسي له، فكلما تكون مسؤوليته أرفع تكون حاجته للإستعاذة بالله أشد وأكثر الحاحاً بما يبذله الشيطان معه من إغواء ومحاولات إضلال متتالية ومتشعبة.

ولا تزيد الإستعاذة الذي ينهل منها إلا أماناً وغبطة لما تعنيه من مفاهيم التوكل على الله، وما فيها من عناوين صدق العبودية، فهي إلتجاء إلى أنوار الحكمة الإلهية من شرور عالم الموجودات والقوى الحيوانية الموجبة للحسد والأذى والعدوان.

ولا تنحصر الحاجة إلى الإستعاذة بالمسلمين، فلقد كانت ملازمة للإنسان منذ الساعات الأولى لخلقه أي منذ خلق الله عز وجل آدم اذ

(١) الاتقان في علوم القرآن ١/٢٩٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٢

حسده إبليس، ويمكن تقسيم الإستعاذة بلحاظ متعلقها الى:

١. الإستعاذة من إبليس، وإبليس إسم مشتق من التحير والندم والابتعاد عن الرحمة واليأس من النجاة، وهو إسم عربي، وقيل أنه أعجمي لا ينصرف، وكنية إبليس أبو مرة، وكان إسمه الحارث، وبالعبرانية عزازيل، فلما صدرت منه المعصية سمي إبليساً، وكان مع الملائكة ويتصف بالاجتهاد في العبادة، ولكنه كفر عندما خلق الله عز وجل آدم وأمره بالسجود للمخلوق الجديد، ولم يكتف بتلك المعصية وما ترتب عليها من عقاب شديد، وهو خروجه من الجنة، بل سعى في إطراد لإغواء بني آدم، ولكن ولعظيم رحمة الله تعالى وضعف كيد الشيطان .

وجعل الله سبحانه الإستعاذة وقاء من هذا الإغواء لذا يمكن إعتبارها حرزاً من النار وأماناً يوم القيامة بالواسطة، وسلاحاً مباركاً في مواجهة عدو مصاحب أو قريب، قال تعالى ﴿أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

٢. الإستعاذة من الشيطان على نحو العموم الإستغراقي أو العموم المجموعي الذي يعني إتحاد الجميع في الحكم بما هو مجموع، والعموم البدلي، وليكون موضوعاً واحداً كما جاء في قوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ اعْوِذْ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾^(٢)، وهذا العموم بوحوه المختلفة ينسبط على المستعبد منه.

وينفرد الله عز وجل بأنه وحده الذي يُستعاذ به، فكل إنسان يحتاج الإستعاذة لأنه ممكن، وللازمة الإحتياج للإمكان، وكل شيطان لا بد من الإستعاذة منه لشروبه الذاتية وفتنته.

(١) سورة فاطر ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون (٩٧-٩٨)

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٣

٣. يدخل إبليس في إصطلاح الشيطان المستعاذ منه، ليس كفرد فحسب فهو معلم ورائد الشر والكفر والضلالة، كما في قوله تعالى ﴿ فَكَبَّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إبليسَ أَجْمَعُونَ ﴾^(١)، ولا بد أن المستعاذ منه في هذا الباب أكثر أهمية من الإستعاذة من إبليس بمفرده للحصص الزائدة التي يفيدها التعدد، والمجموع الذي قد يأتي ضرره على نحو الأفراد.

٤. الإستعاذة من الشيطان كإسم جنس لا تنحصر بإبليس وأن ورد إسم الشيطان أحياناً علماً ودلالة على إبليس.

٥. الإستعاذة من الفعل القبيح كما في قوله تعالى حكاية عن موسى

﴿ قَالَ اعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾^(٢)، لما في

(١) سورة الشعراء ٩٥.

(٢) سورة البقرة ٦٧.

الفعل من مناسبة لحضور إبليس، ولأن الجهل مثلاً باب لنفاذه
وإستحواذه.
٦. الإستعادة بلحاظ المستعاذ به أي أن ها ترد على نحو الإطلاق،

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٥

وعدم التقييد بنوع أو جنس المستعاذ منه أو موضوع الإستعاذة، فتكون
إلتجاء إلى الله عز وجل من وجوه وأسباب الشر، ومن كل ما تخشاه
النفس من الأذى والضرر من وجوه:

الأول: ما يأتي مباشرة ودفعة واحدة.

الثاني: ما يكون سبباً ومقدمة للضرر.

الثالث: الضرر الذي يأتي بالواسطة أو على نحو التدرج.

٧. ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: أعوذ بك
منك^(١)، وفيه دلالة على أن العبد يكون في مراتب التقوى العالية منقطعاً
إلى الله ولا يرى في الوجود غيره، وهو أيضاً نوع خشية منه تعالى وخوف
من الفتنة وإلاستدراج والعقاب، وتقدير الحديث: أعوذ برحمتك من
سخطك.

٨. الإستعاذة وإلحتياط بلحاظ الفعل المأتي به، كما في قوله تعالى ﴿

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ...﴾^(٢).

٩. الإحتراز والإستعاذة من المكروهات، مما يصل إلى الإنسان من
التعب والنكد والفقر والمرض والسرقه والظلم والبغضاء ونحوها، مما
يستعيد منه الإنسان بإعتبار أنها طرق وأسباب لنزغ الشيطان.

١٠. الإستعاذة من قوة الشر في النفس ونزوغها إلى السوء والمنكر، رجاء

إتساع دائرة الإستثناء الوارد في قوله تعالى ﴿أَنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ

رَبِّي﴾^(٣).

١١. إنها إعدام لما في النفس من قوة وهمية مستجيبة لوساوس الشيطان.

(١) سنن ابي داود ٢٣٢/١.

(٢) سورة النحل ٩٨.

(٣) سورة يوسف ٥٣.

١٢. هناك وجوه أخرى متعلق بالإستعاذة يمكن إستقراؤها من الكتاب والسنة، كما في قوله تعالى ﴿ قَالَتْ أَنِي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ أَنْ كُنتَ تَقِيًّا ﴾ (١).

ولم تُبحث مسألة وجوب الإستعاذة أو عدمه بحثاً تفصيلياً وأكتفي بموضوع الإبتلاء وهو الإتيان بالإستعاذة في الصلاة مع التسليم بموضوعيتها وعظيم نفعها، وأهميتها في مراتب المندوب. وقد أفردت في رسالتي العملية الموسومة "الحجة" باباً للإستعاذة، وأكثر المفسرين لا يولون الوجوب والإستحباب في المقام عناية فتوائية ومع هذا ذكرت أقوال في المقام منها:

١. وجوب الإستعاذة المتجدد والمتكرر في كل مرة يقرأ بها القرآن وفي غير القراءة وبه قال عطاء، وأستدل عليه بمواظبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبقوله تعالى ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (٢) الذي يفيد الأمر فيه الوجوب.

٢. وفي علم الأصول أختلف في دلالة لفظ الأمر الذي هو بمعنى الطلب والبعث الدال على الإرادة والرغبة هل يدل على الوجوب أو على المعنى الأعم منه أو أنه مشترك بين الوجوب والندب إشتراكاً لفظياً. والأرجح هو الأول أي يدل على الوجوب إلا مع القرينة الصارفة عنه إلى غيره أو إلى المعنى الأعم، ولأن العقل يحكم بلزوم طاعة المولى والأمثال لإرادته لاسيما وأن الغاية من الأمر بالإستعاذة هو العبد نفسه وأستدل على الوجوب بأن دفع الشيطان واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والإستعاذة وسيلة لدفع شر الشيطان، والإحتياط يوجبها. ويمكن الرد على الإستدلال بمواظبة النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة مريم ١٨.

(٢) سورة فصلت ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٧

وسلم على الوجوب بوجوه:

الأول: المواظبة أعم من الوجوب، فقد تحصل المواظبة على المستحبات.

الثاني: قد يكون الوجوب منحصراً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يشمل الأمة تخفيفاً ورحمة كما في صوم الوصال ونحوه من مختصات النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: تأتي المواظبة لتوكيد أهميتها وأن كان الفعل من المستحبات. ومع ورود الإحتمال يبطل الإستدلال.

وفي قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(١)، أستدل على الوجوب بأن ذكر الحكم عقيب الوصف وترتيبه عليه مشعر بكون الوصف علة للحكم، وأن الحكم يتكرر لأجل العلة، فتجب الإستعاذة على كل إنسان للأمر بها.

ولكن وردت قرائن من السنة يمكن معها إستفادة الندب وعدم تجدد الوجوب في كل مرة ولا بد من الرجوع إلى السنة الشريفة في هذه المسألة الإبتلائية.

وفي مرسله الفقيه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتم الناس صلاة وأوجزهم، كان إذا دخل في صلاته قال: الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم) وفي خبر فرات عن الأمام الباقر عليه السلام: "فاذا قرأت بسم الله الرحمن الرحيم فلا تبالي أن لا تستعيز".

٣. إذا تعوذ الرجل مرة واحدة في عمره، فقد كفى في إسقاط الوجوب، وبه قال ابن سيرين^(٢).

٤. الإستعاذة مستحبة وهو المشهور والمختار.

(١) سورة النحل ٩٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١/٥٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٨

٥. ونضيف مسألة وهي يمكن التفصيل بين أمور:

الأول: الإتيان بالإستعاذة في الصلاة.

الثاني: ذكر الإستعاذة عند قراءة القرآن.

الثالث: الإتيان بالإستعاذة مطلقاً، وفي كل الأحوال، فقد تكون واجباً في أمر دون الأمر الآخر، أو أنها تعني في أحدهما.

وستبقى الإستعاذة من الكنوز السماوية التي أفتحت أبوابها لأهل الأرض وإن لم ينتفع منها إلا المؤمنون فلقد إقتضت الحكمة الإلهية إمتحان الإنسان في الحياة الدنيا وأن يكون إستحقاقه للخلود في النعيم الأخروي بأنماط من الإبتلاء ومداهمة الشرور من الشيطان، أو من جنوده من الأنس والجن، أو من ذات النفس الإمارة بالسوء.

ويقال أحياناً لماذا هذا الإبتلاء بوسوسة الشيطان، لو تفضل الله عز وجل علينا بسلب القدرة عن إبليس في الأثر والتأثير، الجواب: إن الإبتلاء بشرور إبليس ليس حتمياً أو قطعي الحصول بالنسبة لكل إنسان، فهناك إستثناء منه تدل عليه آيات قرآنية عديدة منها قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾^(١)، ومن الإستثناء ما كان في داخل الإنسان وجزء منه بما رزقه من النفس العاقلة وتفضله بنشوء مرحلة التكاليف بالبلوغ وتحقق التمييز العقلي.

وبالإستعاذة لا يكون إبتلاء بإغواء الشيطان، إنها نوع دعاء وتضرع إلى الله عز وجل وحصانة إختيارية، والدعاء سلاح الأنبياء، وهو قاهر بالتأكيد للكيد الضعيف الذي يجسده مكر إبليس وقد لا يكفي العلم والفضل والورع في التحصن من الشيطان لأن مكره معها يكون أخفى، وحيله أشد فلا بد من الإستعاذة والإلتجاء إلى الله عز وجل بالإستعاذة منه، أو تأتي الحصانة من الله تعالى إبتداءً.

(١) سورة ص (٨٢-٨٣).

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٦٩

وإذا كانت الإستعاذة مصداقاً وفرداً من أفراد الدعاء فهل:

١. الإتيان بالإستعاذة معلق على الإستجابة.

٢. يدل الأمر ضمناً على الوعد بالإستجابة لعمومات قوله تعالى ﴿

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١).

٣. الإستعاذة مقدمة للتخلص من مكر إبليس .

٤. إنها جزء علة لإعتبار موضوعية أعمال العبد.

وعدا الوجه الأول فان الوجوه الأخرى من مصاديق وغايات

الإستعاذة منفردة ومجمعة.

ويدل الأمر بالإستعاذة ووروده بلغة العموم على أن إبليس لم يكن مطلق اليد في العبث بالإنسان وإغوائه، وهي أمانة على عظيم رحمة الله عز وجل بما جعل عند الإنسان من سلاح دائم للتصدي لشور الشيطان، وما في هذا التصدي من الثواب والأجر، أي أن الإستعاذة لا ينحصر أثرها بطرد الشيطان، فهي دعاء ولجوء إلى الله وإحتراز وموضوع مستقل ذاتاً، بالإضافة إلى وظائفها التي شرعت من أجلها سواء كانت عند القراءة أو عند مداهمة العدو مطلقاً.

وهل الإستعاذة مستحب كفائي أو واجب عيني، فلو كان جماعة كل واحد منهم يقرأ القرآن فهل يكفي إستعاذة واحد منهم، كالتسمية على الأكل، أو كرد السلام الذي هو واجب كفائي وعليه الإجماع، أم يبقى الإستحباب لكل واحد منهم؟

إنها مستحب عيني لإنحلال الأمر بها بعدد المكلفين ليكون مستغرقاً لهم، وإتيان الفرد بالإستعاذة، لا يسقط إستحباب إتيان غيره بها لأن كل إنسان معرض للإبتلاء باغواء ووسوسة الشيطان والأمر بها جاء على نحو العموم البدلي بحكمه، لأن الغالب في التكليف والسنن والمتبادر عند

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧٠

الإطلاق، والأصل هو الوجود والاستحباب العيني وليس الكفائي.
والإستعاذة سبيل لطرد الشقاء الذي يحول دون الإرتقاء ونيل
الكمالات الأنسانية ودرجات المعرفة، إذ أن الإنسان ليس شريراً بالفعل
بل أن الشر وغلخته على السلوك تأتيه بالعرض.
وستبقى الإستعاذة صلة مباركة بين العبد وخالقه، وهي نوع إستغاثة
وليس من حاجب أو موانع بين نداءات الإستعاذة التي يطلقها العبد وبين
الله عز وجل، وهي عنوان التخلي عن الكبر والتكبر والإعجاب بالنفس
الذي هو مذموم من العبد، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "كلكم في
الجنة إلا من أبى"^(١)، والتكبر منه تعالى ممدوح وهو ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ
الْمُتَكَبِّرُ﴾^(٢).

وقد ترد الإستعاذة بالله ولكن بالواسطة كما في الحديث (وأعوذ
بكلمات الله التامات)^(٣)، فلا يعني الإستعاذة بها بالذات والإستقلال
والأصالة بل أنها من رحمته تعالى وصيغ الإستعانة بالله سبحانه ولو
بالواسطة، وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: إذا نزلت في الرجل
النازلة الشديدة، فليصم فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾^(٤)
يعني الصيام، إذ أن الأعمال العبادية نوع إستعاذة عملية وسلاح وواقية
بدنية ومالية من الشيطان وإغوائه.

فالصيام عبادة وإستعانة منطوقاً، وإستعاذة مفهوماً وأثراً، أما الإستعاذة
فإنها لجوء وإستغاثة بالله عز وجل منطوقاً، وإستعانة وحسن توكل مفهوماً.
والصبر هو كف النفس عن الهوى مع إلامتثال للتكاليف ويعتبر طريقاً

(١) لسان العرب ٤١٧/١٥.

(٢) سورة الحشر ٢٤.

(٣) الدر المنثور ٢٧٤/٢.

(٤) سورة البقرة ٤٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧١

مباركاً للكلمات الإنسانية بل له موضوعية وأعتبر من الفضائل، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفرغ إلى الصلاة، وعن الإمام الصادق عليه السلام: كان علي عليه السلام إذا أهاله أمر فرغ إلى الصلاة ثم تلا هذه الآية ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١).

فكما أن الإستعاذة طريق لإتيان التكليف فإن الصبر والمواظبة على العبادات طريق عملي لطرد الشيطان ونزغته وسد المنافذ النفسية التي قد ينفذ منها، وهو المبتعد عن الحق الذي إختار عداوة الإنسان لتفضيل الباري له وتفضله بالنفخ في روحه.

وتكرار الإستعاذة نوع تدرج وإرتقاء في سلم ومراتب الخلق الحسن، وهي بإستثناء موارد العصمة لا تتم إلا بالتدرج والإكتساب والصبر، وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بعثت لأتمم مكارم الإخلاق"^(٢)، وهل الإستعاذة سبب وطريق إلى التضرع، أم التضرع سبيل إلى الإتيان بالإستعاذة؟ الحق أن كلا منهما طريق وسبب للآخر وإرتقاء في درجاته.

إن موضوع إبليس والإبتلاء به يدل على وحدة الأديان السماوية وصدق النبوة وإخلاص الأنبياء وتفانيهم في هداية الناس فقد أُنذر الأنبياء من الشيطان وأخبروا بأنه مبعث الشر ورائد الفساد، وإذا إستقرت الآيات القرآنية، والقرآن فيه تبيان كل شيء تجد فيه الإخبار عن الشيطان متمثلاً بشخص خاص وله أعوان من صغار الشياطين يأتمرون بأوامره، ووسائل من الأُنس والجن، وأنه يغري الإنسان ويدعوه إلى الضلال ولكن على نحو الإقتضاء لا الجبر والإكراه.

وقد ينفذ الشيطان بالوسوسة وتزيين الشك والوهم ليكون مدخلاً إلى

(١) سورة البقرة ٤٥.

(٢) تفسير القرطبي ٣٠١/٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧٢

الحرام والضيق والسأم من فعل الصالحات، وفي رواية ابن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام قلت له: "رجل عاقل مبتلى بالوضوء، قال عليه السلام: وأي عقل له وهو يطيع الشيطان" والبلاء هنا بمعنى الإمتحان وكثرة الشك في أفعال الوضوء.

وليس حقيقة الشيطان هي الجهل او الجهل المركب كما قيل، بل أن الجهل والغفلة ونحوهما أبواب ينفذ منها الشيطان إلى النفس الإنسانية فلا بد من الاقرار بالحقيقة التكوينية وهي أن للشيطان وجوداً خارجياً، وفعلاً مؤثراً ومستقلاً عن الإنسان.

نعم لا يكون فعل الشيطان مطلقاً في تأثيره بل يتطلب إفساده لأحوال العبد وإبطال أعماله وإرباكه في معتقداته إستجابة القابل ومطاوعة النفس له، لذا فإن تحصين النفس بالتقوى سلاح لصعد إبليس، ومن وجوه تحصينها الإستعاذة إذ أن الإستعاذة تحذير وسبيل ودعوة للسعي في الإبتعاد والإعراض عنه، وإذا إستقرت الآيات القرآنية وجدت أفراداً من السوء والفواحش سببها إبليس وأسباب الغواية .

ويريد إبليس أن يبعد الإنسان عن فطرته ويعمي بغوايته بصيرته بما في ذلك ورود الخواطر الرديئة على الإنسان ونية الأفعال السفلية مما يستتبعه العقل، ومن إعجاز القرآن نعتة أهل الغواية والضلالة بأنهم شياطين وجعلهم بعرض واحد مع شياطين الجن قال تعالى ﴿شِيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾^(١).

وعن محمد بن مسلم عن الامام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(٢) قال: كل يمين بغير الله فهي من خطوات

(١) سورة الأنعام ١١٢.

(٢) سورة البقرة ١٦٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧٣

الشياطين.

وإجماع علماء الإسلام والنصوص على عدم إنعقاد اليمين إلا إذا كان المقسم به هو الله جل شأنه سواء بذكر إسم الجلالة المختص به وما لا يطلق على غيره كالرحمن أو بذكر الأوصاف والأفعال المختصة به التي لا يشاركه فيها غيره كقولك مقلب القلوب والأبصار، والذي نفسي بيده، والذي فلق الحبة وبرء النسمة.

ولا تنعقد اليمين بالحلف بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وسائر النفوس المقدسة المعظمة ولا بالقرآن الشريف والكعبة المشرفة ، وهو لا ينافي كون المقسم به مقدساً ومعظماً في ذاته لمنزلته عند الله ولكن تلك القدسية لا ترقى إلى اليمين بها.

وفي ترتب الأثر على وسوسة إبليس وجوهاً:

الأول : يؤثر في النفس الأمانة بالسوء وحدها ، تلك التي يخشى تبعيتها لهواها.

الثاني: يقع سلطانه على النفس اللوامة التي وردت الإشارة إليها بقوله تعالى ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾^(١) التي لا تزال تلوم نفسها، وتجتهد في الصلاح.

الثالث: يقع على النفس المطمئنة الآمنة التي لا يستقر فيها خوف أو حزن.

الرابع: النفس الراضية، أو المرضية.

الخامس: تتوجه شرور إبليس إلى عقل الإنسان الذي به يكون الثواب والعقاب.

السادس: الروح المنزهة عن صفات الجسمية والحاملة للأمانة وعهدة

(١) سورة القيامة ٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧٤

التكاليف ومواثيق العبادة، تلك التي لا تفتنى ولا تموت بل تتبدل حالها بالموت وقد يكون كاملاً لها.

السابع: يكون تأثير إبليس على الجوارح والأعمال.

الجواب: الإنسان وحدة متكاملة، وكيان تتداخل أعضاؤه، وهذا الجسم الذي يتضمن أعراضاً مجتمعة لا يقبل القسمة والإفتراق وهو جوهر مركب وروح مسكنها الأعضاء، فلا بد أن يكون التأثير على النفس والجوارح، نعم مثل هذا التأثير من الكليات المشككة فهو يختلف من إنسان إلى آخر، وهذه الحواس الظاهرة وقوى النفس البهيمية أو الشهوانية التي تميل إلى اللذات والنفس الحيوانية والسبعية تحتاج إلى حارس وعون ومدد خارجي من مصاديق التقوى والخشية من الله، ومنه الإستعاذة التي هي فرع وإلتجاء إلى الله تعالى.

لقد كان إستكبار إبليس عن السجود لآدم عليه السلام سبباً في طرده من الجنة، أي إنه علة طرد إبليس وحرمانه من نعيم الجنة، لعدم إكرامه للإنسان بالذي أمر الله عز وجل به من السجود له وفي التنزيل ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾^(١).

ومن باب الشكر لله عز وجل أن يطرد الناس إبليس من قلوبهم ويمنعوه من التأثير في أفعالهم ليس هذا فحسب، بل أن هذا الشكر منهم سبيل الدخول إلى الجنة فكيف يدخلها من لازم إبليس في حياته وجعله قريباً له في دار الإبتلاء، فأحكام الملازمة تقتضي عجز أقرانه وجنوده من الأنس والجن عن دخول الجنة أولئك الذين لم يستطيعوا التخلي والإنفصال عنه، لذا فإن الإستعاذة رحمة متجددة في الأرض وآلة إحتراز، وسلاح وقاية وحرز سماوي وأدب إيماني، ومدخل إلى الجنة.

(١) سورة الإسراء ٦١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧٥

وقال بعض أهل العرفان في إكرام الله تعالى للمؤمن: يا عبدي قلبك بستانني وجنتي بستانك، فلما لم تبخل علي بستانك أنزلت معرفتي فيه، فكيف أبخل بستانني عليك أو كيف أمنعك منه.

مسائل في الإستعاذة

١. من مستحبات القراءة في الصلاة الإستعاذة، وإستحبابها مؤكد قبل قراءة الفاتحة وعليه الإجماع والنص، وصيغتها "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" وتقدم ذكره، ويجوز أن يقول المصلي "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم"، وكل منهما نزل به القرآن وجاء به النص، والأولى هي الأشهر، إلا أن الثانية لا تتعارض معها بل هي في طولها. وفي صحيحة الحلبي عن الصادق عليه السلام: "بعد تكبيرة الإحرام (ثم تعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ثم اقرأ فاتحة الكتاب". وهو محمول على الإستحباب والندب بقريئة النصوص الأخرى التي تفيد صحة القراءة من غير الإستعاذة، وهناك صيغ أخرى للإستعاذة وردت بها النصوص منها إضافة ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾^(١).

٢. الظاهر وجود ملازمة إجمالية بين الإستعاذة اللفظية والإستعاذة المعنوية، فاللفظية مقدمة للمعنوية وتترشح عنها لتكون النفس مؤهلة لمنازل الفضيلة والكمال وإلتماس السعادة الأبدية بإخلاص العبودية.

٣. يؤتى بالإستعاذة إخفاً وأدعي الإجماع عليه، ويجوز أن يؤتى بها جهراً في الصلاة الجهرية، والأول هو الأحوط. وفي خبر حنان: "صليت خلف الإمام الصادق عليه السلام فتعوذ بإجهار"، وقيل أنها قضية في واقعة لا تنافي الإجماع والسيرة، والأقوى إستفادة السعة والجواز ولو على سبيل

(١) سورة المؤمنون ٩٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٧٦
الفرد النادر والقرائن التي ترجح إستحباب الجهر بها خصوصاً في الصلاة
الجهرية كالمغرب والعشاء والصبح من غير تعارض مع تعلق الإستحباب
أصلاً بالإخفات.



أسباب النزول

هو العلم بالحوادث والوقائع و المواضيع والأسئلة التي كانت سبباً مباشراً وطريقاً محضاً، ومناسبة وقرينة حالية على نزول الآية القرآنية لذا يمكن جعلها أمانة على الموضوع والحكم المستنبط من الآية، وإدراك فهم شطر من تفسيرها وتأويلها لتكون بمنزلة الحكم الظاهري.

والقول بأن أسباب النزول طريق محض تقييد لها ، ومنع للظن بأنها علة تامة للآية لاسيما وأنه ليس لآيات القرآن كلها أسباب للنزول لذا يمكن تقسيم آيات القرآن بلحاظ أسباب النزول إلى:

١. ما نزل إبتداء من غير أسباب مباشرة، ووقائع شخصية للنزول.
٢. ما نزل بأسباب خاصة ووقائع معينة.
٣. ما يبعث إلى أحداث وأفعال مخصوصة.
٤. ما نزل بأحوال عقائدية وإجتماعية خاصة.
٥. مما يمكن إعتبارها برزخاً بين القسمين الثاني والثالث أعلاه وقسماً لهما.

وتتجلى أهمية هذ العلم وضرورة دراسته وإستقراء الدروس والأحكام منه بتتبع آياته تفسيراً وتأويلاً بلحاظ زمان نزول الآيات والأحوال السائدة العامة أو الخاصة فعلى سبيل المثال تعرف السور المكية بلغة الإنذار والوعيد، والمدنية بتضمنها لتشريع الأحكام، وكل منهما نزل بأحوال تختلف في الجملة عن أحوال أخرى.

إنه العلم الذي يبين تأريخ نزول الآية وموضعه، ولو على نحو الإجمال، وهل تلك الأسباب جزء علة مادية أو صورية، نعم هي أحد أفراد ومصاديق العلة الغائية لموضوع الآية المنبسط على جميع الوقائع المشابهة في أفراد الزمان الطولية، والمكان العرضية وحتى يوم القيامة، لأن أحكام القرآن جاءت على نحو العام الإستغراقي الأزمانى لا على نحو

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٧٨

العام البدلي الإفرادي^(١)، فإن نزول الآية القرآنية عقب واقعة معينة يفتح أبواباً من العلم في تفسير تلك الآية ولا يعني هذا أن مضمون الآية ينحصر بأسباب النزول لأن المدار والملاك في عموم اللفظ وليس السبب وحده أو أن معرفة أسباب النزول علم لا طائل منه، بل أن النصوص والسيرة والعقل تملي إتخاذ موقف برزخ بينهما يعطي إعتباراً وموضوعية لأسباب النزول من غير أن يتعارض مع سعة مضامين الآية، لأن المدار على عموم اللفظ وليس سبب النزول.

وأسباب النزول علم وموضوع فيه توثيق قرآني كريم مبني على الإلتعاط والإعتبار بسبب النزول وإتخاذه آلة وحجة ومدخلاً لتفسير الآية، وعلى العالم والمفسر أن ينتفع من كل ما يقع في طريق إستنباط الأحكام وإستخراج العلوم من الآية الكريمة ولا بد أن تكون النسبة بين ظواهر القرآن وأسباب النزول عموماً وخصوصاً مطلقاً.

وإعجاز القرآن وحجته عامة وتبدو جلية في ظواهره ومعانيه وما يفهمه المسلمون من مدلولاته فسبب النزول يكون في موضوعه جزء من التفسير، وليس كل التفسير، فمثلاً يستدل الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تحذيره لأبي جعفر المنصور من قبول خبر النمام، بقوله تعالى ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (٢).

وقد تكون أسباب النزول نوع تقييد لإطلاق الآية.

وفي قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ

(١) العام هو اللفظ الدال على المفهوم القابل للإلتطابق على الكثير المتعدد وفعليته، والإستغراقي العام المستقل لكل فرد كما لو قال اكرم كل عالم، والأزماني أي سريان العام على الأزمان الطولية، والبدلي هو شموله للأفراد على نحو البدل والفردية، نحو **أكرم** أي مسلم، **والأفرادي** أي سريان المفهوم بحسب **الأفراد** وهو في مقابل الأزمان.

(٢) سورة الحجرات ٦.

أَنْبِ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا ﴿١﴾، قال مروان قال اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس فقل لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معدباً لنعدبن أجمعون. فقال ابن عباس ما لكم ولهذه الآية إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) هذه الآية وتلا ابن عباس (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) وقال ابن عباس سألهم النبي - صلى الله عليه وسلم - عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ﴿٢﴾.

إنها رحمة وتخفيف وبيان وتفصيل للأحكام، نعم يمكن أن يجد العالم والباحث أمارات التقييد ونحوه في آيات أخرى من القرآن لقاعدة القرآن يفسر بعضه بعضاً، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٣﴾، ويجدها أيضاً في السنة النبوية الشريفة التي هي بيان للقرآن، وقد تظهر أسباب النزول بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ﴿٤﴾، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ﴿٥﴾ وهي ضياء مبارك لتثبيت علم وموضوع أسباب النزول. وفي قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً﴾ ﴿٦﴾، ورد أنها نزلت في امرأة سرقت، وسئل ابن عباس عنها أخاص أم عام؟

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) صحيح مسلم ٨/١٢٢.

(٣) سورة يونس ٥٨.

(٤) سورة البقرة ٢١٦.

(٥) سورة النساء ١٢٧.

(٦) سورة المائدة ٣٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٨٠

فقال: بل عام^(١) وقد يكون مثل هذا السؤال زائداً في هذا الزمان لما تسالم بين الفقهاء وإرتكز في عقول الناس من عموم الآية بالإضافة إلى دلالة اللغة بتعدد المعاني في الآية والسنة القولية والفعلية.

ولكن السؤال يدل إجمالاً على إعتبار أسباب النزول آنذاك وهو أمر حسن مع خلوه من التفريط الذي يتمثل بحصر المفهوم على تلك الأسباب، ولا ترى لذلك التفريط أثراً أو أدنى وجود في تأريخ المسلمين لما وضعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قواعد وعلوم وما ثبتته الأئمة والصحابة وطبقات المفسرين من أسس ومفاهيم تدل على ما للآيات القرآنية من عموم وإطلاق ولما في القرآن من قابلية الإلتساع والإحاطة بالوقائع والأحداث وهي غير متناهية، وإملاكه الحصانة الذاتية بوجه التقييد، وهو من أفراد إعجاز القرآن، وبذا تتضح لنا مدرسة جديدة في إعجاز القرآن وهي أن القرآن بذاته يأبى حصر معانيه وتأويله في زمان دون آخر، أو وقائع دون غيرها فهو حي ويبعث الحياة العلمية.

وصحيح أن علم أسباب النزول مستقل وينفرد بخصوصيات تساعد على التفسير الأمثل إلا أن ذلك لا يمنع من إرجاع أخباره إلى علم الرجال وتقسيماته وفق القواعد الرجالية إذ أننا لا نأخذ ما ذكر في أسباب النزول بالتسليم والقبول التام إذا وجدناه معارضاً بما هو أهم وأقرب إلى ظاهر الآية أو أنه مخالف للأحكام الواقعية.

ففي قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾^(٢)، جاء عن السدي أنها نزلت في الأحنس بن شريك الثقفي حليف بني زهرة، أقبل إلى النبي صلى الله

(١) تفسير الطبري ٢٩٦/١٠ .

(٢) سورة البقرة ٢٠٤ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٨١

عليه وآله وسلم في المدينة، وقال: جئت أريد الإسلام، ويعلم الله أنني لصادق، فأعجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منه، فخرج من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمر بزرع لقوم من المسلمين وحممر، فأحرق الزرع وعقر الحممر، فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (١).

وفي أسباب النزول في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢) وردت أقوال:

١. أنها نزلت في علي عليه السلام لما بات في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة خروجه إلى الغار وهو الأرجح، وأن جبرئيل قام عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادي بخ، بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يياهي الله بك الملائكة، ونزلت الآية.

٢. نسب إلى ابن عباس أنها نزلت في صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جذعان وفي عمار بن ياسر، وفي سمية أمه وفي ياسر أبيه.

والأول مروى عن الأمام الباقر عليه السلام، وفي تفسير البرهان نسبه إلى ابن عباس، أما الثاني فنسب إلى ابن عباس فلا مانع من الإشتراك والتعدد في أسباب نزولها لاسيما وأن إجماع المسلمين على أن مفهوم الآية عام لا ينحصر بسبب نزول، ولا يمكن إخفاء فضيلة قرآنية لوجود شواهد ونصوص متواترة على الأول.

إن سبب النزول قطعي الدخول في المفهوم العام للآية أي أن عدم إعتباره علة تامة لنزول الآية لا يعني تجريده من الخصوصية أو عدم أخذه جزء من تأويل الآية وتفسيرها، كما أن سبب النزول لا يمنع من

(١) سورة البقرة ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة ٢٠٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٨٢

وضعها ضمن السياق العام للآيات.

٣. إنها نزلت في رجل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، روي عن عمر
إبن الخطاب وإبن عباس، وفي بعض الكتب نسب إلى علي عليه السلام.

٤. قال نفر من المفسرين أن المراد به البيع والشراء أي أن المكلف باع
نفسه بثواب الآخرة وأن الله عز وجل كالمشتري لقوله تعالى ﴿أَنْ اللَّهُ
اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١).

ويمكن إعتبار أسباب النزول فرداً من إعجاز القرآن لأثرها الإيجابي
في تحديد مسارات القيم الإجتماعية والأخلاقية وكانت عوناً على العمل
وفق أحكام الشريعة، وشاهداً حاضراً ودليلاً في جادة الهداية، يجد فيها
المؤمن ضالته لتطيب نفسه بما يوافق إحساسه المشروع كما في قول أم
سلمة أنها قالت : يا رسول الله ألا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء
فأنزل الله تعالى ﴿أَنْبِي لَأُضِيعُ عَمَلِ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرِ أَوْ
ويمكن القول بنزول أكثر من آية في سبب شخصي واحد ويجوز حمله على
تعدد حيثياته، والأمر هين بعد الإقرار بالمفهوم والغرض العام لنزول الآية.
ويمكن التساؤل لماذا تأخر النزول إلى حين ورود السؤال أنه مناسبة
كريمة للإهتمام الزائد في موضوع الآية ورسوخه في الأذهان على نحو
ظاهر من القبول والبيان والإلتفات إلى إحترام المرأة لما يضيفي عليها
موضوع النزول من إستقلالية وكيان تنفرد به بلحاظ سبب النزول أو
الواقعة والحادثة التي كانت سبباً للنزول وما تمثله من إكرام القرآن
للمؤمنين وحاجاتهم الشخصية، ليضاف موضوع أسباب النزول لإعجاز

(١) سورة التوبة ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

(٣) تفسير القرطبي ٣٠٩/٤.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٨٣

القرآن، ويكون أحد مصاديقه وإن دأب المفسرون على دراسة إعجاز القرآن وكذا سبب النزول على نحو منفصل.

وترى في سبب نزول الآية أعلاه إعجازاً للقرآن خاصة في هذا الزمان يتعلق بما يمنحه الإسلام للمرأة من حقوق وإكرام ومساواة في الثواب وإستحقاقه، وحثاً لها على الإرتقاء في أبواب الصلاح والعمل والجهاد. إن سبب النزول إسكات لأولئك الذي يحاولون النيل من الإسلام في خصوص باب حقوق المرأة بما يجسده من شأن وموضوعية وإعتبار لأفعالها على نحو مستقل ومسؤول ويدل سبب نزول الآية على فضل الله تعالى على أزواج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمات مطلقاً، وفيه دعوة لإكرامهن وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) من وجوه:

الأول: سؤال أم سلمة وتطلعها لأن يكون لها شأن في القرآن ، وفي إدراك للحاجة لجذب النساء إلى منازل الإيمان.

الثاني: دعوة المسلمين إلى إكرام المسلمات على نحو الإجتماع والإنفرد، وإعانتهم في أداء ما عليهن من العبادات.

الثالث: التوثيق السماوي لجهاد وهجرة المسلمات.

الرابع: بيان حقيقة وهي نيل المسلمات لمراتب الإكرام بالذكر في القرآن على نحو الخصوص، مع أن خطابات القرآن شاملة للذكور والإناث، كما في قوله تعالى ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فالمراد وجوب فريضة الصيام على المكلفين والمكلفات من المسلمين.

وورد الخطاب بصيغة التذكير لتغليب الذكر والمؤنث.

وكما يجوز إتحاد السبب وتعدد المسبب في نزول الآية كذلك يجوز

(١) سورة آل عمران ١١٠.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٨٤

تعدد السبب وإتحاد المسبب، فيجتمع سببان أو أكثر على نزول آية واحدة مع صحة السند وجهة الصدور والدلالة والمعنى.

ويتوصل إلى معرفة أسباب النزول وتحديدتها بما يكون سبباً معتبراً لأخذها في التفسير والتأويل بوجوه:

الأول: تعرف بالنص والإخبار عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو أعرف بأحوال الوحي ومناسباته.

الثاني: تؤخذ عن الذين شاهدوا التنزيل من الصحابة واخبروا غيرهم بالرواية والسماع، لما من أهمية لحضورهم ومصاحبتهم ووقوفهم على الأسباب المباشرة للنزول، وأن كانت معرفتهم لها بعد نزول الآية بالتتابع والإطلاع والتدبر في موضوع الآية، فقد كان الصحابة يحرصون على تدارس القرآن، كما أن سبب النزول من الوقائع التي تثبت في الذاكرة وتحظى بعناية خاصة.

وقد يحصل للصحابة العلم بها نتيجة قرائن تحيط بالوقائع والأحداث، وإن قال الصحابي أحسب وأظن هذه الآية نزلت في كذا فإن عدم القطع لا يفقد هذا القول الإعتبار بل يبقى للقول شأن ولو على نحو الموجبة الجزئية.

الثالث: يمكن إستقراء أسباب النزول ومعرفتها من أخبار أهل البيت، وهل تعرف بمحدث التابعي الجواب: نعم إذا حديثه مرفوعاً وأن جاء مرسلأ مع ما في الإرسال من أمانة على الضعف ولكن المقام فيه سعة ومندوحة لأن أسباب النزول أحداث ووقائع لم توثق إلا من الذين عاصروها ولعل الصحابة نقلوها للتابعين، ولا بد من بيان السببية والملازمة بينها وبين الآية الكريمة، إلا أن يكون التابعي قد سمعها من الصحابة ورواها من غير ذكر المصدر والجهة.

فالمطلوب إستنباط الدروس، وإستظهار وجوه الحكمة وما يدركه العقل من ظاهرها وتأويلها، وليس كل صحابي يعرف كل سبب للنزول وإلا لاحتجنا إلى التواتر في الطبقة الأولى من سند كل حديث خاص

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٨٥

بأسباب النزول، فقد يكون الصحابي غير موجود ساعة نزول الآية وأسبابها بلحاظ سرايا الغزو ونحوها، وربما سأل الصحابي أخاه عن تفسير آية أو منطوقها ليبقى عنوان الصحبة من أهم المصادر التي تحدد أسباب النزول لموضوعية وإعتبار الشهادة المقرونة بالعدالة.

منافعه

لعلم أسباب النزول منافع وفوائد لا تنحصر بموضوع النزول وأوانه بل تتعداه لتشمل أجيال المسلمين لصدق ملازمته للآية في باب الموضوع والتفسير، وليصبح مدخلاً كريماً وضوءاً مباركاً تنبعث منه مصابيح للتأويل والدراسة والإستنباط.

ويقع بيان منافع هذا العلم جواباً وتعليلاً لقولنا بأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن مما يملئ علينا التحقيق في إحصائها والتتبع لآثارها ومنها:

١. معرفة الحكمة والعلة لتشريع الحكم.
٢. تخصيص الحكم عند من يقول بالجمود على سبب النزول أو أنها عون على فهم موضوعه إن وجد ، ولا دليل على التخصيص، إذ أن الجمود على سبب النزول لا يخلو من تقصير عن إدراك علوم القرآن وفيه تخلف عن معرفة عظيم منافعه وتخصيص من غير مخصص.
٣. الوقوف على المعنى وطرد التردد والإشكال إذ أن معرفة سبب النزول سبيل ومدخل إلى علم التفسير، وخوض غمرات التأويل لما تسالم عليه بأن معرفة السبب تساهم في العلم بالمسبب.
٤. إن سبب النزول قطعي الدخول في المفهوم العام للآية، وعدم إعتباره علة تامة لنزول الآية لا يعني تجريده عن الخصوصية أو الإعراض عنه وعدم أخذه جزء من تفسيرها، فهو مما لم يقل به أحد من العلماء، بل أن التفقه في السبب يساعد في معرفة سياق الآيات وأسرار ترتيبها.
٥. يساهم علم أسباب النزول في رفع الوهم، ومنع حمل الآية على

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٨٦

غير محاملها والمقاصد والغايات منها، كما في قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ (١).

وظاهر قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهَ اللَّهُ﴾ (٢) الإطلاق وتساوي الجهات في جميع الصفات وصلاحتها للإستقبال، وعدم حصر الإستقبال بالبيت الحرام، وهو خلاف ضرورة الدين وما عليه الإجماع في موضوع القبلة، بالإضافة إلى الإرادة التكوينية والتشريعية في تحويل القبلة مع أن أهل الريب والشك يشيرون الشبهات، فجاء تغيير القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام حكماً إلهياً، وإنعطافاً في صيغ العبادة يتصف بالدوام والثبات وما هو أعم من أسباب النزول، وإذا رجعنا إلى سبب النزول فإنه يدل على تقييد الموضوع بناقلة السفر، والإجتهاد فيها، وفي حال العجز عن معرفة جهة القبلة، وفي النصوص الصحيحة أنها نزلت في قبة المتحير.

٦. تعظيم شعائر الله ودفْع الخلاف في إتيانها وإمثال الحكم الشرعي، ففي قوله تعالى ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣)، ورد في عن الإمام الصادق عليه السلام أن المسلمين كانوا يظنون أن السعي ما بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون فأنزل الله هذه الآية، وقريب منه في الدر المنثور، وقد ذهب بعضهم كعروة بن الزبير إلى عدم فرض السعي تمسكاً بظاهر اللفظ وأن بعض الصحابة تأمّموا من

(١) سورة المائدة ٩٣.

(٢) سورة البقرة ١١٥.

(٣) سورة المائدة ٩٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٨٧

السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية، فجاءت الآية لتثبيت هذه الشعيرة والحكم إلى يوم القيامة.

٧. منع الفهم الخاطئ للآية الكريمة، وطرد التحريف والتفريط والإجتهد خلاف النص، وأسباب النزول، فمثلاً تجد في سورة الكافرون الحاجة إلى إستحضار أسباب النزول لمعرفة التفسير، وعدم إقرار النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمشركين على دينهم وعبادتهم للأوثان.

٨. التسليم بأن سبب النزول لا يحصر موضوع الآية به، فعند معرفته وعرضه على الآية الكريمة تجدها أعم منه ماهية وموضوعاً ومحمولاً وزماناً ومكاناً.

٩. إنه فرد من علوم القرآن ومبحث علمي وتاريخي وعقائدي مستقل يعكس صورة وأحوال المسلمين والبيئة المحيطة بهم آنذاك ودليل على عظيم جهادهم وصبرهم في ذات الله وإيمانهم بالوحي وتصديقهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

١٠. إنه باب رحمة وسبيل إلى التألف وعدم الإختلاف في التفسير، وما يتعلق به من التشريع، وطرد للفرقة والشقاق.

١١. هو حاجز وواقية من سوء التفسير أو توجيه الآية الكريمة في غير الذي أنزلت فيه.

١٢. فيه دروس تدل على إعجاز القرآن سواء تلك الدروس الخاصة بكل سبب لآية معينة أو الدروس والعبر المستنبطة والمستقرة من هذا العلم على نحو العام المجموعي^(١)، بإضافة إلى العام الإستغراقي.



المعوذتان وجزئتهما من القرآن

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وختم آخر الكتب

(١) العام المجموعي: هو ترتب حكم على الجميع على نحو الاشتراك لا الاستقلال كما في الايمان بالانبياء أو إكرام كل عالم عند الأمر به بحيث لو **أخل** في فرد واحد لأعتبر عاصياً.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٨٨

السمائية بذكر وتعظيم مقام الإلهية إذ قال تعالى ﴿مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾^(١) ليدل على قهره لوسوسة الشيطان، ويدعونا للإلتجاء إليه واللوذ بمقام الربوبية ويطرد عن قلوبنا حب غيره، ولمنع تمرين النفس الحيوانية على خلاف توجه النفس الناطقة المطمئنة الصاعدة، في سلم المبادئ العالية، إنه إثبات تقييد إستطاعة العبد وعجزه عن مواجهة الشرور، وحاجته للرجوع إلى الخالق بديع كل حي، ومفيض كمال كل موجود فالق ظلمة العدم بنور الوجود.

تفضل الله وأمر نبيه ومن خلاله الأمة والناس إذ أن النبي واسطة مباركة لتبليغ الأمة، والقرآن لم ينزل ليخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو مائدة مباركة للمسلمين جميعاً يأخذون منه الأحكام، يعملون به ويلوذون بآياته وأحكامه، فالقرآن هو الكلام المنزل من عند الله عز وجل ويتعوذون من الشرور التي جاءت بالعرض والإبتلاء في الحياة الدنيا سواء كانت الجسمانية منها أو النفسية، وإن كانت النفس الأنسانية مخلوقة في جوهرها على النقاء والصفاء، قابلة لاكتساب العلوم وأنوار المعرفة وخالية من الكدورات، ولكنها مهددة بالشرور والموجودات الظلمانية لحكمة من الله تعالى في الخلق ونفاذ مشيئته وقضائه إلول في اللاحق من الموجودات والممكنات ﴿لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَأَنْ لِّلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

ثبت في العلوم العقلية أنه ما من موجود من الممكنات إلا وله كمال ونقص، يكونا عنده في عرض واحد أو في مراتب متفاوتة ولكن لا ينعدم أحدهما ولا يقوم على واحد منهما فقط، فتراه يستأنس بما نال من صفات

(١) سورة الناس (٢-٣).

(٢) سورة الأنفال ٤٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ٨٩

الحسن والكمال، ويشتاق ويسعى إلى ما يريد وما فاته وذلك من لوازم العقل، والإنسان له خاصية في تطوره وتبدله في الأحوال المتباينة.

ولقد جعل الله عند الإنسان ملكة وحب إشتياق للأعلى من مراتب الكمالات التي لا تنتهي، فكلما وصل إلى درجة سعى إلى ما هو أعلى بحرص وشوق، الأمر الذي لا يخلو من مصاحبة الألم والشقاء والزجر له، وتلك الملازمة ظاهرة في عالم الإمكان لأن من خصائصه النقص والقصور ليكون اللجوء إلى واجب الوجود حتمياً، والحاجة إلى الله تعالى مستديمة ومتصلة، وهو خالق كل شيء بحكمة واتقان.

وقد يتعذر على الإنسان طريق الإهداء إلى المنازل الرفيعة فتكفل الله سبحانه هدايته بالقرآن الذي جعله ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

ويمكن الاستدلال على كون المعوذتين من القرآن بالقدرة الذاتية، والعناية الالهية بالقرآن وتعاهده سبحانه له كتاباً وآيات بقوله تعالى ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، وقوله تعالى ﴿أَنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾^(٣)، فالجمع بين الآيتين يفيد أن كل ما بين الدفتين هو قرآن وعليه إجماع المسلمين.

وأخرج ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق علي بن الحسين عن أبيه عن أمه فاطمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دنا ولادها امر أم سلمة وزينب بنت جحش أن ياتيا فاطمة فيقرأ عندها آية الكرسي وأن ربكم الله إلى آخر الآية ويعوداها بالمعوذتين^(٤).

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة الأنعام ٣٨.

(٣) سورة الحجر ٩.

(٤) الدر المنثور ١/٣٢٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٠

وموضوع جزئية المعوذتين من القرآن أو عدمها من المواضيع التي لم يقف العلماء كثيراً عندها لإنقطاع الخلاف بوجودهما بين الدفتين وهو فرع إعجاز القرآن بأن تترشح قدسيته على جزئه فيعرف الجزء بالكل، وإكتساب المنعة والحصانة وثبوت صبغة القرآنية به، وصعوبة العثور على دليل يفيد الخلاف، الذي يتعلق حصراً بنسبة القول بأنهما ليسا من القرآن إلى عبد الله بن مسعود مع إجماع الصحابة وأهل البيت على خلافه.

وتناقش هذه المسألة كبرى وصغرى، أما الكبرى فإجماع المسلمين على أن المعوذتين جزء من القرآن، وفي طريقتين عام وخاص، أما العام فإن ما بين الدفتين قرآن، وأما الخاص فالتسالم بين المسلمين عامة على أنهما جزء من القرآن.

والصغرى هي إثبات هذه النسبة إلى ابن مسعود، وعلى فرض نسبتها ما المقصود بقوله أنهما ليستا من القرآن؟ فقد نقل عنه أنه أنكر إثباتهما في المصحف وإثبات الحمد، وفي رواية أنه نفي الحمد أيضاً لأنه كانت السنة عنده بعدم ثبوت شيء إلا ما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإثباته وكتبه، ولكن أمر النبي وإثباته للكتاب أعم من أن يطلع عليه عبد الله بن مسعود إذ أنه لم يلزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل أنات الليل النهار، وتلك حقيقة منبسطة على أغلب الصحابة، ولكن لم ينعت أحد منهم بعض سور القرآن بأنها ليست منه.

وفي صحيح ابن حبان عن زرّ، قلنا لأبي بن كعب: أن ابن مسعود لا يكتب في مصحفه المعوذتين فقال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبرئيل ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فقلتها، وقال لي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)،

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/١٢٨ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩١

أي أن جبرئيل نزل بهما كقرآن، ولذا يرد على قول ابن مسعود على فرض صدوره منه في عرض واحد قول مغاير من صحابي آخر معروف بقراءته ويدل الخبر بالدلالة الإلزامية على حصر قول ابن مسعود بالمعوذتين وعدم جزئيتهما من القرآن، ولا يشمل سورة الفاتحة التي تقرأ في كل فريضة صلاة.

وقال الرازي: "نقل عن ابن مسعود حذف المعوذتين وحذف الفاتحة عن القرآن ويجب علينا إحسان الظن به، وأن نقول: أنه رجع عن هذه المذاهب"^(١).

وظاهر الكلام أن حذفهما مخالف للإجماع على جزئيتهما من القرآن إلى جانب إعتبار موضوعية وجودها بين الدفتين، وكل ما هو بينهما من القرآن، وعليه تسالم المسلمون في أجيالهم المتعاقبة.

ولعل ابن مسعود أراد غير الذي نسبوه له من نفي جزئيتهما من القرآن، فقد كان متسامحاً في تعليم القرآن عند الضرورة والتعليم من غير أن يفرض بأصل القرآن، فقد روي أنه كان يعلم رجلاً القرآن فقال: "أن شجرة الزقوم طعام الأثيم، وكان الرجل أعجمياً فكان يقول طعام اليتيم، فقال: قل طعام الفاجر، ثم قال عبد الله: أنه ليس الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان العليم الحكيم، بل أن يضع آية الرحمة مكان آية العذاب".

وقد إحتج القائل بجواز قراءة الفاتحة مترجمة بهذا الخبر، ولكنه لا يصلح للإستدلال، فهذا الموضوع مغاير ومختلف عن موضوع المعوذتين، فكأنه يجتهد بجواز الإتيان بالمرادف للفظ القرآني من أجل التعليم، ولا بد أنه يقيده بالخطأ والسهو والعجز عن اللفظ القرآني كما أشار إليه في كلامه (ليس الخطأ في القرآن)، كما أنه جعل من الخطأ وضع آية رحمة مكان آية عذاب.

(١) مفاتيح الغيب ١/٢١٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٢

وفي المحلى قال ابن حزم: هذا كذب على ابن مسعود وموضوع، وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عنه، وفيه المعوذتان والفاطحة^(١). مما يدل على ورود روايتين عن ابن مسعود بذات الطريق، بطريق زر بن حبيش، ومقتضى القاعدة حينئذ التعارض والتساقط والرجوع إلى الأصل والتسالم على جزئيهما من القرآن والرجوع إلى أقوال الصحابة الآخرين بالقطع بجزئيهما.

أما الرازي كما عن السيوطي في الإتيان فنسبه إلى النقل من بعض الكتب القديمة وفيها أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن، وهو في غاية الصعوبة فإذا كان النقل المتواتر حاصلًا في عصر الصحابة فلا يجوز إنكاره خصوصًا في آيات وسور القرآن.

عن ابن عباس وابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف ويقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البزار: لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتتا في المصحف^(٢). وكان ابن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب ويقول: لو كتبتها لكتبتها في أول كل شيء، ولا ملازمة بكتابه لها والإقرار بجزئيهما من القرآن.

وذكر أنه في مصحف أبي بن كعب: اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك قال حماد: هذه الآن سورة، وأحسبه قال: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نخشى عذابك، ونرجو رحمتك، إن عذابك

(١) البرهان في علوم القرآن ١٢٨/٢.

(٢) الدر المنثور ٣٩٤/١٠.

بالكفار ملحق" (١).

والحق أنه لا إفراط ولا تفريط، لا بالنقص المنسوب لابن مسعود، ولا الزيادة المنسوبة لأبي بن كعب، لقد كتب عثمان المصحف بمراى من الصحابة وجاء الإمام علي عليه السلام ولم ينف في خلافته جزئية المعوذتين من القرآن، ولماذا لا ينفي ما نسب إلى ابن مسعود، قلت: أن كتابة أبي بكر وعثمان للمعوذتين، وإمضاء الصحابة لجزئية المعوذتين من القرآن يدل بالدلالة الإلتزامية وفي مفهومه على نفي دعوى عدم جزئيتهما من القرآن، وهو إعراض وتجاهل لها على فرض وجودها وهو الأرجح بدليل نقص الأشخاص الذين رووا وإهتموا بهذا الموضوع، فلو كان لهذه الدعوى أثر وإعتبار لوجدت إهتماماً كبيراً بها ولو بإتجاه نفيه، ولبرزت على نحو السؤال والإستفهام المتكرر من الأئمة ونقل جوابهم فيها، و صحة قراءة المعوذتين في الصلاة تقرير وإمضاء لجزئيتهما من القرآن.

أن مثل هذا القول يوجب على العلماء بذل الجهود العلمية لإثبات قرآنيتهما وما فيهما من أسرار إلهية، إذ أن الموضوع لا يتعلق فقط بالسورتين بل يمنع الكلام والشك في قرآنية أي جزء منه.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفسير لبعض آيات السورتين ذكر منها السيوطي في الجزء الرابع من الإتيقان أربعة أحاديث، بالإضافة إلى الأخبار الخاصة بالمقام منها (ما أخرج عن أبي سعيد الخدري: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فأخذهما وترك ما سواها) (٢).

وعن ابن مسعود: "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره

(١) الدر المنثور ١٠/٤٠٣ .

(٢) سنن الترمذي ٨/١٢١ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٤

الرقمي إلا بالمعوذتين^(١)، وهو الطب الروحاني والشفاء الرباني قبل أن تصل النوبة إلى الطب الجسماني.

ولقد ورد عن ابن مسعود ما يدل على أنه كان يرجع إلى الصحابة وأهل البيت في علوم القرآن، وقد ورد عن أبي عبد الرحمن أن عبد الله بن مسعود قال: (لو كنت اسلم أن أحدا أعلم بكتاب الله مني لأتيته، فقلت له: فعلي، قال: أو لم آته)^(٢).

بحث اصولي

أختلف في الإخذ بقول الصحابي هل يرجع اليه، وأن تفسيره بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الحاكم في تفسيره، أو أنه ليس بحجة، إلا أن يدل دليل أو قرينة معتبرة على أن الحديث مرفوع، وأياً كان الكلام فأنما يتعلق ذلك بالتفسير وليس في قرآنية الآية والسورة، فذاك موضوع مستقل.

ويشترك في الحديث المرفوع أقسام الحديث الأربعة الصحيح والحسن والموثق والضعيف، وهو أي الحديث المرفوع أدنى من المسند الذي إتصل سنده إلى النبي من غير إنقطاع، وللمرفوع إطلاقان:

الأول: ما سقط من وسط سنده وآخره واحد أو أكثر مع ظهور الرفع أو التصريح به كما في رواية الحسن البصري عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الكليني عن علي بن ابراهيم عن ابيه يرفعه عن الإمام الصادق عليه السلام، وإبراهيم هذا لم يعاصر الإمام عليه السلام، ويمكن إعتبار هذا النوع من المرفوع من مصاديق المرسل بالمعنى الأعم.

الثاني: ما يقصد منه الإضافة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قول أو فعل أو تقرير سواء كان في طريقه قطع وعدم ذكر لبعض الرواة أو

(١) تفسير القرطبي ٢٧٤/١٠.

(٢) مجمع البيان ٤٥/٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٥

إرسال برواية بعض رجال سنده عن لم يسمع منه، أو إبهام بعض رواياته وقد يكون سنده متصلاً إليه ولكنه يستعمل غالباً في المعنى الأول.

أن محبة الصحابي وعدم بغضه نوع إكرام له لأجل تشرفه بصحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم به والإخلاص لدين الله.

وسنة الصحابي مطلقاً أي كل من يصدق عليه أنه من الصحابة ليست بحجة، وقد إعتبر الشاطبي سنة جميع الصحابة حجة كاشفة عن حكم الشريعة، ويذكر قول الشافعي في الصحابي (كيف اترك الحديث لقول حدثه لحجته).

وقد يخالف الصحابي الصحابي الآخر، ولا يعني هذا ابطال قولهما لإحتمال الاختلاف في تأويل أو النسخ والتغيير في النقل والسند ولاجماع المسلمين على عدم عصمة الصحابي، وعدم حجية مفهوم الوصف، ولا تصل النوبة لاحتمال الخطأ والسهو ولكنه لم يحط بما بلغه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التنزيل، وقد يكون التباين في قولهما من عمومات الآية والناسخ والمنسوخ، فقد يكون أحدهما علم بالمنسوخ دون الناسخ، أو أنه أراد ذكر المنسوخ على نحو التعيين وكل فرد من قوليهما تراث.

ومع إعتبر قول الصحابي فقد لا يكون قوله من باب الرواية وهو إلى الرأي أقرب، وعلى القول بجعل قول الصحابة على إطلاق حجة ودليلاً، فإن قول ابن مسعود معارض بقول الصحابة جميعهم أو اغلبهم، بما يدل عليه ظاهر القرآن وهو أن المعوذتين جزء مما بين الدفتين فليس لقوله الأهلية على المعارضة.

أنه خلاف السيرة العملية وخلاف المصاحف المتعارفة بين المسلمين، بل يعد مستكراً عند من يقرأ القرآن، فمثلاً ورد عن أبي بن كعب أنه لم يفصل بين الضحى وألم نشرح لإتحاد موضوعهما، مع لزوم الفصل بينهما بالتسمية، وإن كان الأقوى والمشهور جواز الإتيان بهما معاً في القراءة مع الإتيان بالبسملة بينهما وقراءتهما في ركعة واحدة أعم من

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٦

إتحادهما، والمدار على المرسوم في المصاحف الثابت بالتواتر عند عامة المسلمين.

قاعدة قرآنية

إن سياق الآيات القرآنية مدرسة وحجة تؤكد أن القرآن كلام الخالق ويحمل بطوناً من العلم ، وأسراراً نورانية تنبعث من كل حرف وكلمة، وعلى المفسرين والعلماء إعطاء أهمية خاصة للمعوذتين لما فيهما من الأسرار والمنافع، وما يترتب عليهما من الحكمة والرحمة العامة، وهما وقاية وحرز وتطهير وتكميل، وعلينا أن نؤكد قرآنيتهما بإستخراج ما فيهما من الكنوز والذخائر وإظهار وجوه الإعجاز فيهما.

ونحن نطرح قاعدة قرآنية جديدة وهي أن السورة والآية القرآنية تثبت بذاتها جزئيتها من القرآن قبل أن تصل النبوة إلى الإستدلال عليها من عامة القرآن أو من خارجها، وهذه القاعدة فرع الإعجاز الذاتي للقرآن.

١. تأتي السورتان للإستعاذة مما قدر من الشرور اللازمة أو العارضة في عالم الخلق والتقدير، سواء كانت الأمور المتعلقة بذات الانسان وخصوصياته كقواه المدركة والمحركة والقوة الوهمية التي تتصف بإطاعة الشيطان في إغوائه ووساوسه ومكره وكيدته أو في محاولاته في جعل الأنسان تضعف همته في الصالحات وبما يمينه بالكذب والخداع، ومطالب الإنسان متعددة وكثيرة فيجب أن يستعيد لأجل كل مطلوب.

٢. تطرد قراءة المعوذتين أثر نحوسة الكواكب وإتصالاتها التي تكون أحياناً ذات وبال وآثار على الإنسان ، وتأتي أحياناً على نحو أسباب كونية أو عنصرية ضارة كحرق النار وعصف الرياح الشديدة وكثرة الأمطار المخربة للديار، فجاءت المعوذتان بل الإستعاذة مطلقاً للنجاة والتخلص من النحوسة والمنكرات وما يعد به الشيطان من الفقر، قال الله

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٧

تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (١).

٣. أفرد الله عز وجل للإستعاذة في القرآن سورتين لتوكيد أهميتها وتعدد وجوه الإستعاذة وأبوابها والحاجة إليها في النفس والبدن وعلى نحو العموم، بالإضافة إلى آيات أخرى في الإستعاذة.

٤. يختتم القرآن بالمعوذتين، والسورتان تجسدان النزاع بين آدم وإبليس وهو البلاء المستديم الملازم للإنسان في الحياة الدنيا، وكانت النجاة والفلاح والخلاص بالقرآن، وكأنه بالإستعاذة تتحقق نهاية سعيدة للإنسان بل ولعالم الدنيا وحياة الإنسان فيها.

إن المعوذتين وموضعهما في القرآن بشارة السعادة الأبدية لمن آمن بهما وتعاهد قراءتهما، فالذي ينكر قرآنيتهما يسعى في تضييع آية مركبة ونفع متعدد الجوانب.

٥. إنهما هداية لكيفية إستعانة الأرواح البشرية لدفع شرور الأرواح الخبيثة الظلمانية والكدورات الموحشة.

٦. المعوذتان سبيل للحيلولة دون شرور الآخرة التي لا تكون شرور الدنيا معها ذات أهلية للمقارنة.

٧. تساهم المعوذتان في إزالة الموانع العرضية التي يحاول إبليس وضعها في طريقك إلى الجنة.

٨. كل من السورتين رحمة إلهية في تنقية الصدر وتحصينه وهو مسكن النفس الحيوانية، ولم يقل الله سبحانه بتأثير الوسوسة في القلب لأن القلب محور النفس الناطقة، ولكي لا يكون منع إبليس لإرتقاء الإنسان في كل كمال على نحو السالبة الكلية.

٩. لكل آية من المعوذتين أسرار خاصة ، وعلوم مستقلة ومنافع ثابتة.

(١) سورة البقرة ٢٦٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٨

١٠. وردت نصوص عديدة في فضل السورتين منها:

الأول: روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من قرأ سورة الفلق كل ليلة عند منامه كتب الله له من الأجر كأجر من حج وأعتمر وصام، وهي رقية نافعة وحرز من كل عين ناظرة)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "من قرأها عند نومه كان له أجر عظيم وهي حرز من كل عين ناظرة"، وإطلاق إسم السورة عليها يعني التسالم على جزئيتها من القرآن.

الثاني: وفي سورة الناس روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من قرأ هذه السورة على ألم سكن بإذن الله تعالى، وهي شفاء لمن قرأها".

الثالث: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من قرأها عند النوم كان في حرز الله تعالى حتى يصبح، وهي عوذة من كل ألم ووجع وآفة وهي شفاء لمن قرأها".

الرابع: قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "من قرأها في كل ليلة من ليالي شهر رمضان كانت في نافلة أو فريضة كان كمن صام في مكة، وله ثواب من حج وإعتمر بإذن الله تعالى".

الخامس: وقال الإمام الصادق عليه السلام: "من قرأها في منزله كل ليلة أمن من الجن والوسواس، ومن كتبها وعلقها على الأطفال الصغار حفظوا من الجن بإذن الله".

السادس: والسورتان هبة إلهية للمسلمين لم تيسر لأية أمة من الأمم، أنها إلامة المرحومة، لقد طرد الله إبليس من السماء، وجاءت الإستعانة والمعوذتان لتطرده عن باب القلب، وذاك من بركات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد أخرج الله عز وجل الشيطان من الجنة لأنه أبى السجود لآدم

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٩٩

عندما أمره الله تعالى بالسجود له، إذ أنه لم يكرم آدم وذريته بالسجود، وفي باب الشكر لله يجب على الإنسان أن يخرج عدو الله من قلبه ويجعله جنة لذكره تعالى وفي الخبر (بيتي قلب عبدي الذي وسعني حين ضاق عني أرضي وسمائي).

وسورة الفلق والناس والإخلاص تعوذ بهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل أن المعوذتين كان يقال لهما المشققتان أي تبرئان من النفاق.

وقال القرطبي^(١): وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به، وليستا من القرآن، خالف به إجماع من الصحابة واهل البيت، وهناك قول بأن ابن مسعود لم يكتب المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشك في حفظه وإتقانه لها.

ويرد على هذا القول بأنه قد كتب سورة النصر والكوثر والإخلاص وهذا يجري مجرى الفاتحة بلحاظ عدم طول السورة، والحفظ اليهن أسرع ونسيانهن مأمون، وأياً كان فإن إقتران المعوذتين بالفاتحة في القول بإسقاط ابن مسعود لها في قرأته، والإجماع والضرورة على جزئية الفاتحة من القرآن يعني أن هناك وجهاً وتأويلاً لعدم كتابته للمعوذتين في القرآن، على فرض صحة دعوى عدم كتابته لهما.

روى النسائي عن عقبة بن عامر أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أقرأتني سورة هود، أقرأتني سورة يوسف، قال لي: ولن تقرأ

(١) القرطبي: عبد الله بن محمد بن احمد الخزرجي الأندلسي ت ٦٧١ هجرية، وهو مالكي المذهب وكثيراً ما يخرج عن مذهبه ويتبع الدليل والحجة ولم يكن شديداً على من خالفه، وتفسيره الجامع لأحكام القرآن جليل الشأن كثير النفع.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠٠

شيئاً ابلغ عند الله من ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾^(١)، وعنه قال: سمعته يقرأ بهما بهما في الصلاة).

وفي حديث ابن عباس: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ هاتين السورتين^(٢).

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لم يتعوذ الناس بمثلهن أو لا يتعوذ الناس بمثلهن"، وفي خبر أبي بكر الحضرمي قال: "قلت لأبي جعفر عليه السلام: "إن ابن مسعود كان يحو المعوذتين من المصحف فقال: كان أبي يقول أن ما فعل ذلك ابن مسعود برأيه وهما من القرآن".

ولا تناقض بين هذه الإخبار والقول بأن النسبة لابن مسعود بعدم جزئيتها من القرآن ضعيف، لأن الجواب لبيان أنهما من القرآن فيدل بالدلالة التضمنية على قرآنيتهما وأن الشهرة في الرواية من أسباب ترجيح الخبر على ما يعارضه، ويؤكد تفسير السورتين مضامين الإعجاز فيهما وما يدل عليه تعدد الوجوه والتأويلات.

ولقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي بن أبي طالب (وفي رواية عائشة وابن عباس أنه بعث علياً والزبير وعمار) (وقال: إنطلق إلى بئر أزوان فأن فيها سحر سحرني به ليبد بن أعصم اليهودي فأنني به، قال علي عليه السلام: فإنطلقت في حاجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهبطت في البئر فاذا ماء البئر قد صار كأنه ماء الحناء من السحر فطلبته مستعجلاً حتى إنتهيت إلى أسفل القليب فلم أظفر به.

فقال الذي معي ما فيه شيء فاصعد فقلت: لا والله ما كذب ولا كذب، وما نفسي مثل أنفسكم يعني بقول رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) سورة الفلق ١.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠-٢٣٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠١

وسلم قال: ثم طلبت طلباً بلطف فاستخرجت وحقاً فأتيت به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي إقرأهما على الوتر فجعل علي كلما قرأ إنحلت عقدة حتى فرغ منها، وكشف الله عز وجل عن نبيه ما سحر به وعافاه) مصدررر.

ولقد أجمع المسلمون على إعتبار السنة المصدر الثاني للتشريع، وتشير إلى مضامين هذا المعنى عدة آيات منها قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(١).

قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ تُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(٢)، وقد ورد أن الصحابة إذا تعلموا بعض آيات القرآن لم يتجاوزوها حتى يعلموها ويعملوا بها، فتعلموا القرآن والعمل به لذا كانوا يقيمون مدة طويلة على حفظه وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين سورة من القرآن)، مما يدل في مفهومه بأنه لم يسمع القرآن كله من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ أن عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

وعبد الله بن مسعود بن غافل يتصل نسبه إلى مضر، وهو من كبار الصحابة قال: لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا)^(٣)، وقيل هو أول من قرأ القرآن جهره بمكة وأسمعه قريشاً وتحمل بسببه الأذى والألم.

وسبب إسلامه ما رأى من الآيات من النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة النحل ٤٤.

(٣) صحيح ابن حبان ٥٢٢/١٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠٢

وسلم، منها أنه كان يرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاة حائلاً من تلك الغنم فدرت عليه لبناً غزيراً.

وهاجر ابن مسعود إلى الحبشة ثم إلى المدينة وصلى القبلتين وشهد مشاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتوفي في المدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة، وبلغ عمره نحو سبع وستين سنة.

ولقد وردت مخالقات في قراءة ابن مسعود او المنسوب من القراءة له خلافاً لرسم القرآن، وإنحصر ذكرها في علم القراءات، مثلاً كان يقرأ وكفى الله المؤمنين القتال بعلي^(١) في واقعة الخندق ويحمل على البيان والتأويل وموضوع النزول.

ومثلاً في قوله تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٢)، اختلف في نصب المقيمين على وجوه:

الأول: قال سيويه والبصريون أنه نصب على المدح على تقدير اعني المقيمين الصلاة.

الثاني: قال الكسائي موضع المقيمين الجر وهو معطوف على (ما) من قوله ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾^(٣) أي وبالمقيمين الصلاة.

الثالث: قال قوم أنه معطوف على الهاء والميم من قوله ﴿ منهم ﴾.

الرابع: أنه معطوف على الكاف في ﴿ قبلك ﴾ وغير ذلك.

الخامس: عن عائشة إنه من عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب، كما في

(١) الدر المنثور ٨/١٤٧.

(٢) سورة النساء ١٦٢.

(٣) سورة الرعد ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠٣

رواية عروة عنها^(١).

السادس: ورد أنه في مصحف ابن سعود ﴿والمقيمون الصلاة﴾.

ويحتاج إلى إثبات وعلى فرض صحة النسبة فإنه مما لم يلتفت إلى قراءة هذا الحرف بالرفع ولم يعطه المسلمون في أجيالهم أهمية وشاناً كبيراً لإكتفائهم وتسليمهم بما بين أيديهم من القرآن، وهذا الإختلاف في القراءة يختلف عن موضوع السورتين وجزئتهما من القرآن وما له من أهمية عقائدية عند المسلمين إلا أنه يمكن الإستقراء منه وإحصار الملاك بالقرآن وهو ما بين الدفتين.

في القراءة

يجب في صلاة الصبح والركعتين الأوليتين في سائر الفرائض قراءة الفاتحة وسورة غيرها بعدها إلا في المرض والإستعجال وأفراد الضرورة فيجوز الإقتصار على الحمد وعليه الإجماع والنصوص ولا يجوز تقديم السورة على الفاتحة.

والقراءة ليست ركناً فلو تركها المسلم سهواً وتذكر بعد الدخول في الركوع صحت الصلاة، وسجد سجدي السهو على القول بوجوبهما لكل زيادة ونقص، ولم يذكرها في محل التدارك الذي نسب إلى جمع من المتأخرين منهم العلامة وقيل مرتين مرة للفاتحة، ومرة للسورة، والمختار هو الإتيان بهما في حال السلام في غير موقعه سهواً، ونسيان السجدة الواحدة إذا فات محل تداركها، ونسيان التشهد، والشك بين الأربع والخمس، والقيام في موضع القعود أو العكس.

وهل يمكن القول بجزئية المعوذتين من القرآن والإحتياط بعدم قراءتهما في الصلاة؟

(١) الدر المنثور ٣/٢٩٦ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠٤

الجواب لا لوجوه:

الأول: عدم الوساطة بين القرآن وغير القرآن.

الثاني: الملازمة بين القرآنية والصلاة.

الثالث: النصوص الدالة على قراءتهما في الصلاة.

الرابع: الإجماع على جزئيهما من القرآن.

ويمكن إعتبار هذا من الإحتياط مخالفاً للإحتياط، إذ لا واسطة بين القرآن وغيره، فاما أن يكون قرآناً فيصلح إنطباقاً قراءته في الصلاة، وما ليس بقرآن لا تجوز قراءته في الصلاة إجماعاً.

وفي تفسير البرهان أفرد باباً عنوانه (المعوذتان من القرآن) وذكر فيه ثمانية أحاديث، ولكن النصوص في هذا الموضوع أكثر منها مما يدل بالدلالة التضمنية على جزئيهما من القرآن لقراءتهما في الصلاة.

ومن النصوص الدالة على مشروعية قراءة المعوذتين في الصلاة:

١. روى أبو داود بإسناده عن عقبة بن عامر قال: كنت اقود برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ناقته في السفر، فقال "يا عقبة إلا أعلمك خير سورتين قرئتاً فعلمني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ قال: فلم يرني سررت بهما جداً، فلما نزل لصلاة الصبح صلى بهما صلاة الصبح للناس، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة التفت إلي فقال يا عقبة كيف رأيت^(١).

٢. صحيحة صفوان "صلى بنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام المغرب فقرأ بالمعوذتين في الركعتين".

٣. وعن داود بن فرقد عن جابر مولى بسام: "أما أبو عبد الله عليه السلام في صلاة المغرب فقرأ المعوذتين، ثم قال هما من القرآن"، ويمكن إعتبار

(١) سنن أبي داود ٥٤٦/١.

فضل القرآن على العربية

يعتبر القرآن نعمة الله في الأرض وهبة سماوية إلى الناس، وتترشح إفاضاته عليهم في أبواب العلم المتعددة والمعارف المتنوعة ومنها اللغة واللسان، ونزول القرآن باللغة العربية أضفى عليها شرفاً وإعتباراً تأريخياً خالداً وموضوعية بين اللغات، وتعيين لغة القرآن جاء بإرادة ومشئئة إلهية، قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١)

وأستدل بقوله تعالى ﴿أَنَا جَعَلْنَاهُ﴾ و ﴿أَنَا أَنْزَلْنَاهُ﴾ على كون القرآن مخلوقاً وليس بقديم، وكذلك بوصف ﴿عَرَبِيًّا﴾ لأن نعتة بالعربية يدل على الحدوث، والقرآن كلام الله.

(وعن الجبائي ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كلمة لعل يجب حملها على الجزم والتقدير، لتعقلوا معانيه في أمر الدين، إذ لا يجوز أن يراد بلعلكم تعقلون الشك لأنه على الله محال فثبت أن المراد نزوله لإرادة أن يعرفوا دلائله) وليس بمطلق، لإنحلال الخطاب بعدد المكلفين والمخاطبين، فمنهم من يؤمن ومنهم من يتخذ الجحود والعناد والكفر مذهباً.

ولعل تفيد معنى الترجي، وهو المراد في الآية لحجية الظواهر وللتبادر إلا أن يرد دليل على الجزم وفيه إشارة إلى أن الدنيا دار إمتحان وإختبار، والقرآن عربي، وفي الآية التي تؤكد على عربية القرآن فلا يصح تغيير معنى كلمة عربية، ويصرف إلى خلاف الظاهر من غير دليل أو قرينة معتبرة.

و﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لتستثمروا هذه الخصوصية ولغة القرآن وتتدبروا ما في قصص القرآن من الحكمة والموعظة، وما في آياته من

(١) سورة الزخرف ٣.

الأحكام والسنن والعلوم.

لقد أكد القرآن على عربية نزوله، وظاهر الآية وتتبعها منطوقاً ومفهوماً وتفسيراً أن العربية من أهم الصيغ للهداية وقبول الخطاب التكليفي، وفيها يتجلى الإعجاز البلاغي للقرآن، وتعدد وجوه التأويل والسعة في الأحكام، وأفضليتها كلغة للتنزيل كسبيل للهداية متعلق بالعرب وبالناس جميعاً كما في قوله تعالى ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾^(١) ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾^(٢) ورد عن ابن عباس أي بلسان قريش ولكنه أعم.

﴿ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ﴾^(٣)

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾^(٤).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٥).

لقد كان للعربية موضوعية في نزول القرآن وفي إعجازه، وهناك ديانات كتبت بلغات خاصة، ولكن تلك اللغات إندثرت وأصبح معتقوا تلك العقائد لا يعرفون اللغة التي كتبت بها، البراهمة مثلاً كانوا سادات قومهم ومترفيهم ويفرضون على عبيدهم دينهم بالقوة لم يحفظوا اللغة التي كتبوا فيها أسفارهم وأخذ الناس في شمال الهند وجنوبه يتخاطبون بالإنكليزية عند الإحتلال وحتى بعد الإستقلال.

(١) سورة النحل ١٠٣.

(٢) سورة الشعراء (١٩٣-١٩٤).

(٣) سورة طه ١١٣.

(٤) سورة الشورى ٧.

(٥) سورة الزخرف ٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠٨

لقد إندثرت ومنذ قرون لغات كثيرة كانت منتشرة، واللغة العربية تزداد شموخاً، وهناك باب في إعجاز القرآن وهو أن إضمحلال تلك اللغات وبقاء العربية الآن لغة ثابتة وشائعة وتزداد إنتشاراً هو نوع إعجاز للقرآن وحجة عليهم ومفخرة للعربية وعاء لغوياً ورداء لسانياً لكلام الله، فإن إعجاز القرآن المتصل عز وفخر لكل من يتعلق به مؤمناً أو قارئاً أو متعاهداً وحافظاً أو ناطقاً بآياته.

ورب إحصائية تجري لبعض أمراض الفم والأذن والحنجرة ونحوها تظهر أن أصابة المسلمين بها أقل من غيرهم بسبب تلاوتهم للقرآن التي هي وقاية وحصانة.

أن فتح المسلمين للبلاد غير العربية حجة عالمية لم تستقر بعد من قبل المفكرين الإسلاميين، فمنذ مئات السنين والعرب المسلمون في تلك البلاد هم القادة والحكام، ولم يفرضوا العربية على المسلمين مع أنها حاجة عبادية في الصلاة بينما إحتل الإستعمار تلك البلاد سنوات معدودات وإجتهد في فرض ونشر لغته من بين وجوه الإستعمار الثقافي ولم يفلحوا. ومن إعجاز القرآن أنه رحمة للناس ولغته وأحكامه كانت هي المتصدية للإستعمار في تلك البلاد وإن لم تكن عربية.

ولابد لنا من التحقيق وأن عدم إنتشار العربية في تلك البلاد لم يكن نتيجة إعراض تلك الأمم عنها، لاسيما وأنهم يحتاجون العربية في عباداتهم وبعض معاملاتهم، فما هو متسالم عند المسلمين وغيرهم أن إعجاز القرآن يظهر في أهم جوانبه في اللغة العربية والبلاغة والبيان، وقد أختلف في إعجاز القرآن هل هو البلاغة أم اللغة أم الإخبار عن المغيبات، وهذا الإختلاف صغروي ولفظي إذ أن كلاً منها وجه من وجوه الإعجاز وقد أثبتنا أن إعجاز القرآن يتعدها بكثير ويشمل وجوهاً متعددة لم يكشف العلم والتحقيق والإستقراء عنها بعد.

نعم، تحدى القرآن العرب في لغتهم وأهم وجوه حضارتهم إذ كان

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٠٩

منهم الخطيب المصقع والشاعر المفلق والحكيم المفوه والواعظ.
وقصة الوليد بن المغيرة معروفة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه شيئاً من القرآن فرق قلبه وأدرك الإعجاز فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم أن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لئلا تأتي محمداً لتعرضن لما قاله، فقال الوليد: قد علمت قريش أنني أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا بزجره ولا بقصيده^(١)، والله أن لقوله الذي يقول حلاوة وأن عليه لطاوة وأنه ليثمر أعلاه ويغدق أسفله وأنه يعلو ولا يعلو عليه وأنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى منك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يؤثره عن غيره.

لقد أحدث الإسلام إنقلاباً اجتماعياً وغير موازين وأسس تنظيم الأمم، ومنهم العرب رعاة الإبل والشاء أصبحوا قادة الجيوش وفتاحين للبلدان الكبيرة وشيدوا أركان الإسلام بدمائهم وسيوفهم وهدى القرآن والسنة، دخلوا إلى تلك البلاد، ومنها ما كان على درجة من الحضارة، وكان من المتوقع أن تضعف قدرة العرب على حفظ لغتهم أزاء تلك الشعوب المستقرة، إذ أن العادة جرت وإلى اليوم أن يأخذ الوافد القليل العدد من الأمة الأصلية المتجانسة في باب المحاورة واللغة والعادات، ولكن القرآن أثر في تغيير تلك القاعدة الثابتة وفتح باباً يكون مصداقاً لمدرسة جديدة في إعجاز القرآن، ويؤسس منه وشبهه قانون أطلقنا عليه إسم "إعجاز القرآن الغيري" ونحت المفكرين والمفسرين والباحثين على إستنباط الدروس منه وإستقراء مصاديقه المتشعبة في ميادين الحياة المختلفة، وبما يؤكد على الأسرار الغيبية في القرآن ونزوله بالعربية،

(١) القصيد جمع قصيدة من الشعر.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١٠

وحصر قراءته بالعربية من غير أن يتعارض مع القول بجواز ترجمة القرآن قال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١)، وفيه شاهد بأن الإنذار باللغة العربية للظالمين مطلقاً ومن كل الأمم أكثر وقعاً وتأثيراً على النفوس.

لا بأس الإلتفات إلى هذه القاعدة الكلية بل المدرسة الجديدة في علوم القرآن وتتبع آثار القرآن في المجتمعات والأشخاص وتركيبية وهيئة المؤسسات المختلفة والإقتصاد والسياسة بما يدل على إعجازه ونفاذه إلى شفاف القلوب وظهور بركاته وإفاضاته في أبوابه التشريعية والأخلاقية حتى عند غير المسلمين، نحن بحاجة إلى إعداد دراسة تكون نواة لعلم جديد في أقسام إعجاز القرآن، وكل من الإعجاز الذاتي والغيري ينشطر إلى عدة فروع علمية.

لقد ساهم القرآن في تثبيت اللغة العربية ووحدة العرب في مرضاة الله وتوجههم للإهتمام بكيانهم القوي وما يمتازون به من الصفات والمثل، وجعل لهم هبة عند الأمم الأخرى.

وشارك القرآن ولغته في بسط الأمن وإزدهار العمران وتثبيت وحدة المسلمين وأضفى بوحده معنى ومضموناً وكتاباً منزلاً بلغة واحدة عزاً إضافياً على المسلمين وأصبح باب إتحاد وإلتقاء عقائدي وعاطفي بينهم لا يمكن أن يتفكك، نعم قد يضعف أحياناً ولكنه لا ينقطع، والضعف ليس بسبب خلل ذاتي فيه بل لعوامل خارجية وأسباب عرضية زائلة، إنه أيضاً مدخل ومفتاح لأبواب في الإلتقاء والتعاون كثيرة ومتعددة.

ومن إعجاز القرآن الغيري في هذا الزمان عدم تأثير الإستعمار على العرب في لغتهم الذي يظهر بدراسة مقارنة مع الأمم التي إحتلت من قبلهم بذات الفترة، وهو عز للمسلمين لما أضفاه على لغتهم من الدوام

(١) سورة الأحقاف ١٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١١

والخلود وفيه دعوة لإعتناق الإسلام.

فلم تعد اللغة العربية لغة خاصة بالعرب، بل هي لغة كل مسلم ومحل إعتراز المسلمين عامة لقد إفتخر العرب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو من قريش ثم إفتخر المسلمون جميعاً به، فكل مسلم له حصة في القرآن، وهو مقصود في الخطاب فيه، وكذا اللغة العربية اليوم يفتخر كل مسلم بها وبارتقائها وعالميتها.

ويتصور حفظ العربية في المقام على وجوه:

١. خصوصية في القرآن لحفظ العربية.
٢. أهلية اللغة العربية لحفظ القرآن.
٣. لكل منهما خصوصية مستقلة في حفظ الذات.
٤. لكل منهما أثر في حفظ الآخر.
٥. لكل منهما أثر في حفظ الذات والطرف الآخر.
٦. للقرآن أثر في حفظ الذات وحفظ العربية، وليس للعربية أثر في حفظ القرآن.
٧. للقرآن أثر في حفظ الذات، وللعربية أثر في حفظ ذاتها.
٨. عكس السادسة أعلاه.

ولا موضوعية للقول بفضل اللغة على القرآن وحاجته إليها، إذ أن القرآن غير محتاج لحفظه من غيره، قال تعالى ﴿أَنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾^(١)، نعم قد يكون هذا الحفظ بوسائط وآلات متعددة، ومنها لغة القرآن، وكونها فرداً مما سخره الله لحفظ القرآن، ولا يعتبر ميزة ذاتية بها إنما جاءتها بالعرض، وإيراد إلهية وهو باب فخر وإمّياز للعربية من بين اللغات.

(١) سورة الحجر ٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ١١٢

أما الثالثة فهل العربية لها القدرة على حفظ نفسها ولو لم يكن نزول القرآن باللغة العربية فأنها تمتلك مقومات الحفظ والإستدامة، إن ذلك يحتاج إلى دراسات وتحقيقات وقد يتعذر الخروج بنتائج نافعة لاسيما مع ملاحظة الأهواء والآراء المحيطة بالعرب آنذاك، وإحتلال كثير من أمصار العرب من قبل الروم والفرس وهناك لغات أقوام أقل من العرب شأناً آنذاك بقيت لم تندثر، ولا ثمرة علمية كبيرة في هذا البحث وليس إلا فرضاً كفانا الله إحتمالته السلبية، وجعلنا نفتخر بشمراته بالقرآن، فالعربية لم تجاهد في سبيل الدوام والحفظ وتحتاج إلى مواجهة التحديات، ولم يتصد زعماء ورجال وجماعات لحفظها بالذات، بل أنها تمتلك الحصانة والمنعة بالقرآن وحملته وعشاقه من المسلمين عرباً كانوا أو غير عرب.

والمتيقن أن للقرآن خصوصية في تعاهد العربية وتطور وإرتقاء علومها، وبالدلالات الثلاث المطابقة والإلتزامية والتضمنية بالقرآن أصبحت العربية إحدى اللغات الأساسية في الهيئات والمنظمات العالمية ويمكن أيضاً إضافته ولو على نحو الموجبة الجزئية وبالواسطة إلى إعجاز القرآن الغيري.

وهناك أهلية خاصة للغة العربية في الإنتشار والذبايح بحيث تصلح دون غيرها لنشر علوم القرآن، ولا يعني هذا أن للغة العربية فضلاً على القرآن، ولا يوصف الله تعالى بالعجز، وهو قادر على أن ينزل القرآن بلغة أخرى غير العربية ويجعل لها ذات الأثر والتأثير.

ولقد تفضل الله سبحانه وشرف لغتنا لغة المسلمين جميعاً بالقرآن، وأصبحت العربية تسير في ظلال القرآن وبأثره، وكان الأولى أن تنتشر ببركة القرآن وسعي المؤمنين أكثر مما هي عليه الآن، وفي علوم القرآن وبلاغته توثيق للتراث الفكري العربي، وحفظ للأشعار، وفهم لمعاني القرآن ومفرداته الغامضة، (وعن ابن عباس: قال: إذا سألتموني عن

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١٣

غريب القرآن فالمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب^(١).
ومن إعجاز القرآن الغيري حفظه وتعاوده لمدارس الشعر العربي
وإبرازه لمعالمه وإعطاؤه وظيفة لغوية تفيد توثيقه وحفظه، كشعر حسان بن
ثابت الذي يعتبر منهجاً جديداً ذا صبغة عقائدية إذ أن الشعر في أيام
الجاهلية غالباً ما يحكي عصبية قبلية أو أحوالاً شخصية مدحاً وهجاء، أو
يأتي توكيداً لأهمية الشعر الأدبية والعقائدية.

وجاء القرآن ليهتم المسلمون بالشعر العربي كشاهد على إعجاز
القرآن، وإحتاج العلماء والمفسرون إلى تتبع الشعر العربي وحفظ القصائد
وتدوينها لأنه وجه أدبي من الوعاء اللفظي للقرآن أي أن لغة القرآن تدل
على الواقع الفكري المستقر للعرب.

وكانت للشعر مكانة إجتماعية خاصة عند العرب، ولكن ليست كذلك
التي أعطاها القرآن والمسلمون له، وإلا فإن المعلقات السبعة مثلاً وهي
قصائد لأشهر شعراء عرب الجاهلية منفردة ومجمعة لم تول إهتماماً
خاصاً إلا في القرن الثاني عندما إختارها حماد الراوية المتوفي سنة ١٥٥
هجرية بعد جولة في البادية وحث العرب على قراءتها وإتخاذها الشعراء
المسلمون قواعد للنظم، ولم يثبت ما تناقله الناس أنها كانت معلقة على
الكعبة، كما وأن إسم المعلقات جاء متأخراً زماناً، وبه قال ابن الأنباري.

لقد أضفت عربية القرآن على الشعر عناية عامة من المسلمين
ومفكريهم، وجدد القرآن معالم الشعر المطلوب والممدوح، وكذا الشعر
المذموم تحذيراً منه، قوله تعالى ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * أَلَمْ تَرَى
أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا

(١) الإتيان في علوم القرآن ١/١٤٣ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١٤

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا... ﴿١﴾.

وربما تعطى الأولوية لأكثر لغات العالم شيوعاً، وهذا قول قد يتعارض مع القواعد الكلية إن لم يكن ناظراً إلى جهة وزمان محدود، ويمكن إبطاله كبرى وصغرى.

الكبرى لغة العلم هي لغة القرآن.

والصغرى العربية لغة القرآن.

النتيجة وفق القياس الإقتراني أن لغة العلم هي العربية.

والقرآن عربي اللغة والمنطوق والنص ، عالمي الرسالة والمفهوم

والمعنى، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ

أُنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ أَنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٢﴾.

وقد نقرأ "أنبئوني" على خلاف طريقة القراءة بإظهار النون وعدم ابدالها وجعلها ميماً، إذ أن النحويين والصرفيين يقولون بالابدال وهو حذف حرف ووضع حرف آخر مكانه كنوع إعلال بالقلب إذا جاءت النون ساكنة قبل الباء وجب قلبها ميماً ويكون القلب لفظاً لا خطأ وجعلوه قاعدة كلية، كما في أنباء تقرأ أمباء، ولكن لم يثبت اتصالها بأيام التنزيل، وذكر في علة ابدالها أن الميم مؤاخية للباء ومن مخرجها وتشاركها في الجهر والإخفات، وهي أيضاً مؤاخية للنون في الغنة والجهر وعدم امكان ادغامها بالباء لبعده المخرجين، ولا تكون ظاهرة لتشبهها بأخت الباء وهي الميم فابدلت ميماً، وقد لا يكون هذا القول كافياً للوجوب بلحاظ موضوعية التنزيل واعتبار مدار الثواب عليه.

والأصل أن يقرأ على التنزيل وفيه الثواب والفراغ وإن قلب وفق

(١) سورة الشعراء ٢٢٤-٢٢٧.

(٢) سورة البقرة ٣١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١٥

قواعد التجويد جاز لأن متابعة علماء التجويد والتقيد بالمحسنات في القراءة أمر حسن.

وكل حرف يقرأ في القرآن بعشر حسنة، والمراد على وجوه:

الأول: الحرف الذي يؤثر به بدلاً بالقلب ونحوه.

الثاني: الحسنات والأجر للحرف المبدل والمكتوب خطأ، وفق قاعدة تؤسسها وهي موافقة الحسنات للخط والكتابة.

الثالث: العنوان الجامع، والثواب الشامل للآخرين .

والصحيح هو الثالث فلو جاءت القراءة على التنزيل أو وفق محسنات القراءة يأتي الثواب فضلاً من عند الله، وإذا ثبت الإبدال فلا كلام لتبعية الثواب قهراً للقراءة الواجبة أو المستحبة، ولكنه لم يثبت وهو من الشبهة الموضوعية، والأصل البراءة عن الإلتزام بالبدل إلا أن يرد دليل عليه، والثواب يدور على التنزيل، ولا بأس بما أشتهر من الإبدال والله واسع كريم.

ويمكن أن ندرج قاعدة أصولية هي إعتبار أصالة التنزيل في القراءة، فلو دار الأمر بين قراءة الحرف على التنزيل أو وفق قواعد التجويد فالأصل هو التنزيل، ولعله من صعوبة النطق بالحرفين معاً لاسيما وأن النحاة قالوا بالتخفيف في القراءة، ولكن قراءة القرآن وحروفه توقيفية ، لا تتغير إلا بالدليل.

وقالوا أن ما هو واجب في النحو واجب عند الفقهاء، وأطلقوها إطلاقاً للمسلمات، ولكن هذه القاعدة تحتاج إلى دليل، وعلى فرض التسليم بها واعتبار الشهرة كافية في الإستحباب فإن القدر المتيقن هو في الفقه والشريعة وحركات الإعراب لاسيما وأن التتقيط جاء متأخراً عن أيام النزول.

فإن قلت: أن هذا يقودنا إلى مراجعة القواعد النحوية في القراءة

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١٦

والحكم الفقهي مثل وجوب إدغام اللام في الحروف الشمسية وعددها أربعة عشر حرفاً، وإظهارها في بقية الحروف، فنقول في الله الرحمن الرحيم والدين والصراط والضالين مثلاً بإدغام، وفي الحمد والعالمين والمستقيم ونحوها بإظهار.

وفي رسالتي العملية (الحجة) حررت مسألة في القراءة وهي (عما اشتهر وجوبه إدغام اللام في (ال) التعريف عندما تلتقي بواحد من أربعة عشر حرفاً وهي: التاء، الثاء، الدال، الذال، الراء، الزاي، السين، الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، اللام، النون، وسميت بالحروف الشمسية لأن منها الشين الذي يكون أول حرف من كلمة الشمس، في مقابل الحروف الهجائية الأخرى والتي تسمى بالحروف القمرية لأن منها حرف القاف الذي هو أول كلمة القمر^(١).

ولكن عدم التقيد بهذا الإدغام وتركه لا يعتبر عرفاً خارجاً عن صيغ المحاورة بالإضافة إلى قاعدة نفي الحرج في الدين وأصالة البراءة وعمومات نية الرجاء في قراءة كل حرف عشر حسنات ومطابقة المأتي به للمأمور به وأصالة النطق بالحرف حسب رسمه.

وقال ابن الحاجب بوجوب الإدغام أي أنه واجب نحوي، وتبع الفقهاء النحويين والصرفيين في ذلك، فقالوا في الرسائل العملية بوجوب الإدغام ولا يعني الإتيان تمام الدليل.

ولا أقول بالدعوة إلى إسقاط هذا الإبدال فهو من المحسنات اللفظية وقواعد القراءة ولا بد له من مدرك، والأولى السعة في القراءة بلحاظ التنزيل، والمسألة تدل على الدقة والضبط في علوم العربية لأنها مادة الآيات القرآنية وطريق تعبدية تدخل قهراً في عباداتنا، ويتوقف عليه شطر من الثواب والجزاء.

(١) الحجة ١/٢٥٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١١٧

والأسماء: جمع إسم وهي أسماء المسميات بحذف المضاف إليه لدلالته، والإسم وضع للدلالة على جوهر وذات أو عرض وعنوان يرمز إليه بمعزل عن الزمان، وفي الإصطلاح المنطقي هو اللفظ الذي يمكن أن يخبر به وعنه وحده ولا يدل بهيئته وصيغته على الزمان.

والإسم عنوان للتمييز والفصل بين الأشياء، وللتنويه بالدلالة على المعنى، وقيل الإسم بمعنى الصفو، وأزاء القول بأنه مقحم.

وقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾^(١) وثيقة سماوية خالدة تؤكد ما

لآدم عليه السلام من عظيم المنزلة وما رافقه منذ بداية خلقه من الشأن الرفيع والمقام السامي بين الخلائق عامة وأهمية اللغة واللسان في الإحتجاج والبرهان وتحديد المنزلة والمقام، لذا يمكن أن يقال أن التفضيل كان نوعياً ويتعلق بالقدرة البشرية في النطق والفهم والتلقي والتمييز، وأن لغة الخطاب وبأي لسان تشريف للإنسان يجب عليه أن يؤدي شكره، ومن وجوه الشكر تعلم لغة القرآن وإكرامها.

ترى ما هي تلك اللغة التي تلقاها آدم من عند الله عز وجل رزقاً وكرامة وتشريفاً وحجة، قال الشيخ الطوسي: وظاهر الآية وعمومها يدل على أن الله علمه جميع اللغات، وبه قال الجبائي والرماني، فأخذ عنه ولده اللغات، فلما تفرقوا تكلم كل قوم منهم بلسان ألفوه واعتادوه وتناول الزمان على ما خالف فنسوه).

ولكن القدر المتيقن المستفاد من ظاهر الآية هو تعليم آدم ما يصح به التعبير عن المعنى من الألفاظ المناسبة وباللغة التي إعتادها الملائكة وما يتخاطبون به، وقد تكون تلك اللغة هي العربية فهي لغة أهل الجنان.

والقول بأن اللغات جميعاً إنما سمعت من آدم وعنه أخذت يحتاج إلى دليل أو أمانة خاصة ولعل الإستقراء التاريخي بخلافه، وفيه زيادة عن

(١) سورة البقرة ٣١.

الحاجة وإن كان لفضل من الله تعالى على عبده ونبيه الذي خلقه بيده
أمراً معقولاً وغير مستبعد.

وقد ورد عن كعب الأحبار طعب الأحبار قال: أول من وضع
الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته
بثلاثمائة كتبها في الطين ثم طبخه، فلما أصاب الأرض الغرق أصاب كل
قوم كتابهم فكتبوه، فكان إسماعيل بن إبراهيم أصاب كتاب العرب^(١).

وذكر أن إدريس النبي أول من خط بالقلم، وهناك روايات أخرى في
المقام، وقد أكدت الدراسات الحديثة في علم اللغات على الإلتقاء
والتقارب في ترتيب الحروف بين اللغات السامية القديمة، كما أن الكتابات
العربية التي عثر عليها الباحثون على الصخور والتي تعود إلى فترة ما قبل
الإسلام تؤكد وجود روابط بينها وبين الخط النبطي القديم مع تطور
ظاهر في الخط العربي كما في نقش أم الجمال الأول الذي يعود تأريخه إلى
سنة بعد الميلاد أو نحوه، علماً أن تلك النقوش وما تستخرجه الإكتشافات
الأثرية لا يستوفي الحقيقة التي تؤكد الروايات.

ودلالة الألفاظ على معانيها كما في علم الأصول بالجعل والتخصيص،
وهل هي بالذات والطبع أو بتوسط الوضع، إنها ليست بالطبع لأن الدلالة
الطبعية الذاتية لا تختلف باختلاف الأعصار والمجتمعات، ولا بد أن يكون
لإختيار الواضع للفظ الخاص معنى معين مرجح لعدم إمكان الترجيح بلا
مرجح.

لقد كان في القرآن تثبيتاً للعربية وإعزازاً لها وإظهاراً لأسرارها
الأدبية، والذين حاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخزاهم الله في
موضوع العربية نفسه، أي أن اللغة كانت مناسبة للتباري بين القرآن
وأعداء الإسلام، وإتخذها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون

(١) الإتيان في علوم القرآن ١/٤٢٧ .

سلاحاً ودعوة للإيمان.

وكان النضر بن الحارث من بني عبد الدار يجلس قبالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاذا رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ القرآن والناس يستمعون له ويدركون أمارات الإعجاز، يقول لبني قومه من حوله أي معشر قريش هلموا إلي فإني أحسن من محمد حديثاً، ثم يشرع فيلفق حديثاً عن ملوك فارس ويقص من أقاصيصهم وهو مع لباقة وقد رته على سرد الحديث وجمع الأخبار والتوسع في الكلام عاجز عن التباري وجذب الأسماع، فكانت تلك المخالفة مناسبة لإظهار إعجاز القرآن، وسرعان ما زال تحديهم والقرآن فضحه بآية موجزة نهت دائماً عن اللغو والإنشغال بالباطل، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١) والنضر هذا قتل يوم بدر صبراً قتله الإمام علي عليه السلام بأمر من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين ثلاثة منهم عقبة بن أبي معيط إذ قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (يا علي علي بالنضر ابغيه فأخذ علي بشعره وكان رجلاً جميلاً له شعر فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا محمد أسألك بالرحم بيني وبينك ألا أجريتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلني وان فاديتهم فاديتني فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا رحم بيني وبين قطع الله الرحم بالإسلام قدمه يا علي فاضرب عنقه فاضرب عنقه).

والنضر هو القائل: ﴿ان هذا إلا أساطير الأولين﴾ وقال لو شئت قلت مثل هذا، وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار للإفتراء على القرآن ، ومحاولة إيهام الناس بوجود وجوه

(١) سورة لقمان ٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٠

للشبه بينها وبين بعض قصص القرآن بخصوص الأمم السالفة وعلى فرض وجود تشبه ببعض القصص فإنه لا يتعارض مع نزول القرآن من عند الله، بل يدل على صدق نزوله لما فيه من الإعجاز والتوثيق الأمم السالفة، ولأن بعض الأخبار الموجودة في أيدي أهل الملل والنحل إنما هي من الكتب السماوية السابقة وأخبار الأنبياء، وفي علم المنطق المركب التام على قسمين:

الأول: الخبر، وهو الذي يكون مرآة لحقيقة وموضوع، وكاشفاً لمصداق خارجي، وإخباراً عن أمر كما يقال (هلّ الهلال) ويسمى القضية وقد يكون موافقاً للواقع ويتصف بالصدق أو يتصف بالكذب ومخالفة الواقع، والقسم الثاني هو الإنشاء.

وكان نزول القرآن أيام إهتمام العرب وولعهم بالبلاغة وفنون الكلام إلا أن ذلك الولع محدود بموضع معين وهو مكة وما حولها، وتتجاذب الناس آنذاك أمواج الفتن، والعرب في حال ضعف وتشتت.

إن إعطاء القرآن أولوية للغة وعلومها وأسرارها سبب دائم في دفع الجهالة والوهم، وفي عربية القرآن قوة للمسلمين وطرده للضعف، لقد كان القرآن خيمة إجتماع تحتها المسلمون بلحاظ اللسان ولم تعد العربية منحصرة بالإنتساب القبلي فقط، وكل مسلم ينتمي إلى العرب بوشائج قرآنية متينة وراسخة، وجاء علم التفسير ليفتح آفاقاً على اللغة العربية وينقح علومها ويثبت قواعدها.

فمن أهم وجوه التفسير معرفة اللغة ومعاني الكلمات، وفيها إبانة لمضامين كلام الله، إذ لا يمكن تفسير الآية إلا بعد فهم معاني كلماتها، ولا يصح في التفسير حمل ألفاظ القرآن على معاني مخصوصة أو الإكتفاء بالشائع منها، فلا بد من التحقيق والبحث عن المعنى المناسب للفظ وفيه توير للغة وإحياء لعلومها، ويظهر البحث والدراسة في السور القصار

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢١

الصيغ اللغوية المتكاملة والسجع والحلاوة في الجرس والإزدواج مع الإتيان.

ووردت في القرآن كلمة (عربي) إحدى عشرة مرة، وكلها تتعلق بالقرآن وتلك آية موضوعها عدد المرات والتكرار وما يعنيه ويتضمنه من أسرار، وما في إنحصار ذكر العربية بصفة القرآن ولغته من دلالات، كما أن هذه الكثرة والتوالي في ذكر العربية مدرسة عقائدية تدل على موضوعية اللغة العربية في نزول القرآن وبيان أحكامه ، قال تعالى ﴿وَهَذَا لِسَانَ عُرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾^(١).

ويدل عدم ذكر العربية صفة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على حقيقة ظاهرة وبيّنة وهي الهوية العالمية لرسالته بالذات وأنها لا تنحصر بالعرب أو إنتماء النبوة للعرب دون غيرهم، كذلك فإن اللغة العربية أيضاً عالمية، ولكن ليس بالذات كما في مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ شرفه الله تعالى بالنبوة، بل بالعرض والغير بإتصاف القرآن ونزوله بها لغة له وبالمنزلة التاريخية منذ نزول الإنسان إلى الأرض وهو أمر إنحلالي لكل إنسان نصيب منه، وفيه منتهى الفخر والسمو في باب اللسان والعلوم اللغوية.

وتبين أهمية اللغة في القرآن منزلتها في حياة الشعوب والعقيدة وتؤكد على إعتبار اللسان وموضوعيته في المجتمعات ، وبناء الأخلاق وقد يغني عن السيف.

وإن كان صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد عربيته وغالباً في باب الإحتجاج كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" وهذا القول يمكن إعتباره تفسيراً لتلك الآيات لاسيما وأنا نقول بان السنة بيان للقرآن.

(١) سورة النحل ١٠٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٢

وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إعربوا القرآن والتمسوا غرائبه"^(١)، وحمله بعض المفسرين على إرادة الإعراب بمعناه الإصطلاحي بإعراب الكلمات وهو الذي يفتح الألفاظ، واطنب في إبراز الإعراب في التفسير، ومع التسليم بأهمية الإعراب ولكن المراد من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم المعنى الأعم، إذ أن الإعراب - بكسر الهمزة - هو الإبانة والإيضاح والإنكشاف ومنه الحديث "إعربوا أحاديثنا فأنا قوم فصحاء"^(٢)، فالمراد من إعراب القرآن نطق كلماته بفصاحة ومن غير لحن، وإبانة ما فيه من غرائب وبدائع وبيان وتوكيد لأسرار اللغة. نحن لا نقول بعدم موضوعية الأعراب بل له وظائف متعددة وهو باب علم شريف يساعد على إفادة المعنى والمراد من الآية، ولقد اعتمد الصحابة والأئمة عليهم السلام الإعراب طريقاً للبيان والإستشهاد. قال السيوطي: ولا يجوز قراءة القرآن بالعجمة مطلقاً سواء أحسن العربية أم لا، في الصلاة أم خارجها) أي لا تجوز الترجمة بقصد القراءة دون التفسير، وعن أبي حنيفة: أنه يجوز مطلقاً^(٥)، وقيده أبو يوسف تلميذه بمن لا يحسن العربية، وقال ووجه المنع أن يذهب إعجازه المقصود منه ، ولكن المنع أعم من ذلك لأن القراءة واجبة فيجب تعلمها. لقد خطى النحويون خطوات مباركة وأسسوا قواعد لغوية ونحوية راسخة أظهرت كنوزاً تتضمنها اللغة العربية وفتحت أبواباً لعلوم اللغة الأخرى، ومنها البلاغة لاسيما وأن القرآن أعجز البلغاء وتحدى موهبتهم ونبوغهم، ومنهم من قال بأن إعجاز القرآن يتعلق بالنظم وعلم البيان والبديع ولكنه أعم وأكبر وينفذ إلى جميع العلوم، والحاجة إليه متصلة ودائمة.

(١) مجمع البيان ٣٩/١ .

(٢) مجمع البحرين ١٤١/٥ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن ١٢٩/١ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٣

وصنفت بعض الكتب في ذلك ولكنها قليلة، ولا تجسد هذه الحقيقة الثابتة، مثلاً أطرى المفسرون كثيراً على الزمخشري المولود سنة ٤٦٧ هجرية في قرية (زمنخسر) وهي قرية صغيرة من قرى خوارزم ثم رحل إلى بغداد لتلقي العلوم، وجاور في مكة زمناً، وتوفي سنة ٥٣٨ هجرية واثنوا عليه لإظهاره وجوهاً بلاغية للإعجاز وبيانه السبك القرآني، وقالوا ليس غيره من يستطيع ان يظهر لنا ذلك.

ويجب أن ترتقي علوم البلاغة باستمرار، وتتخذة ونحوه أساساً، وفي النصوص الواردة تأسيس لعلوم بلاغة القرآن.

وأرجو من الأدباء والعلماء في علوم البلاغة الإبداع في هذا الباب سواء كان في خصوص بلاغة العربية أو بلاغة القرآن والسعي لإنبثاق مؤسسات أكاديمية متخصصة في علوم البلاغة تساهم في إظهار وبيان الوجوه الإعجازية البلاغية في القرآن بما يتناسب وتشعب العلوم في هذا الزمان وإرتقاء الدراسات فيها، ووجود الكتب والدراسات القديمة كنز وعون ورافد لجيل العلماء في هذا الزمان فلقد إتخذ المسلمون المساجد دار ثقافة وحلقات للدرس وإلى يومنا هذا تعظيماً لشعائر الله، ولتصبح كتب ودراسات أمس واليوم أساساً لما يستظهر من علوم القرآن واللغة في القادم من الأيام.

وفي باب أحكام المساجد أحاديث نبوية في عمارة المساجد وعدم الخوض فيها بالباطل أو رفع الأصوات في غير العبادة والذكر، ونهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً عن قراءة الأشعار، وأن تنشد الضالة في المسجد ، كما ورد النهي عن إقامة الحدود في المساجد او إتخاذها محلاً للقضاء والمرافعة ويحمل على الكراهة، ولم ينه عن الدرس والذكر فيها لأنه من تعظيم شعائر الله بالإضافة إلى إستحباب المشي إلى المساجد مطلقاً بل في كراهة إنشاد الشعر في المسجد أستثني ما كان شاهداً على لغة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٤

"ولما جاء وفد بكر بن وائل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله عن خبر قس بن ساعدة^(١) وقال: يحشر وحده"^(٢)، وأنشد بعض الشعراء قصائد التوحيد في المسجد بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإستمع لها صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من الإقرار بالربوبية والحجة.

وهناك آفتان تدهمان العربية وتنهشان في جسم لغة القرآن منذ مئات السنين، إحداهما تتعلق بداخل الأمصار العربية، والأخرى بالعالم الإسلامي، أما الأولى فهي العامية والنطق بألفاظ محلية يتخاطب بها العوام من غير الفصحى.

واللجوء إلى العامية وإتخاذها لغة محاورة لا بد من دراسة أسبابه فهناك أسباب خاصة بمدن ومجتمعات وقبائل كلها عربية ومع هذا تجد عندهم مفردات عامية مستقلة، ترشحت من التسامح في النطق واختيار التخفيف على اللسان مع أنها ليست جديدة بل قديمة تمتد جذورها إلى أيام العباسيين وكثرة المولدين والإستقرار في المدن والرضا بما يفهم عرفاً وعدم الإلتفات والحرص على إكرام العربية الفصحى.

فحينما يتتقد أحد الفقهاء إستاذه، في قوله (مطرنا البارحة مطراً أي مطراً)، يعتذر عنه الحافظ ابن داود بأن ذلك في مخاطبة العامة وأن الناس لم يزالوا يلحفون ويتلاحفون فيما يخاطب بعضهم بعضاً اتقاء الخروج من عادة العامة فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة.

والعامية اعم من اللحن وأشد خطراً ولا بد من التمييز بينهما، فالعامية هي اللهجات المحلية غير الفصيحة والمفردات غير الموجودة في اللغة،

(١) قس بن ساعدة: توفي سنة ٢٣ قبل الهجرة المباركة احد حكماء العرب في الجاهلية واسقف **نجران وأدرکه** النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة ورآه في عكاظ.
(٢) أنظر تفسير الطبري ٤/٢٧٧ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٥

واللحن أهون وقد تجد له عذراً ويمكن تداركه وهو أقل خطورة وضرراً من العامية كماً وكيفاً، وبين العامية واللحن عموم وخصوص مطلق فكل لحن هو خلل لغوي.

ولعل من أسباب شياع العامية ونحوها الإبتعاد عن القرآن ولغته وعدم الإكتراث بأهمية اللغة، ولكن القرآن هو الذي يحجم وباء العامية ويمنع من ضررها الكبير على العربية، ولم تكن العامية ببلد دون آخر، بل أصبحت عامة في أغلب أمصار العالم الإسلامي لتعكس واقعاً متخلفاً لغة عن القرآن.

ولابد من التخلص من هذا الوباء المتفشي بيننا وإتخاذ صيغ تحد منه، وتمنع من إنتشاره أو إعتبراره واقعاً متوارثاً، ومنها إعتقاد اللغة العربية الفصحى في المحاورات وحلقات الدرس والمؤسسات العلمية أو بشرط من الألفاظ والكلمات تخلصاً من آفة العامية، وطريقاً وتمريناً للتخلص من اللحن ومساهمة في خدمة القرآن.

نعم يمكن أن يكون هذا الإعتماد على مراتب ومراحل متباينة في صيغ المخاطبة بين أهل العلم وأقل منه مع العامة، ولا مانع من تفكيك هذه الدعوة وحصر النطق بالفصحى كمرحلة بحلقات الدرس والجامعات، ويجب أن تنبذ العامية في الدروس الحوزوية مطلقاً، والدراسات الأكاديمية وإن كانت في غير إختصاص العربية والقرآن، وأن تعطى الأولوية في الدراسة فيها ومناهجها للعربية كمقدمة وبداية للحد من ظاهرة الأمية من غير أن يتعارض هذا مع إعتبار اللغات القومية للشعوب الإسلامية التي تتكلم غير العربية.

صحيح أن الأمر يحتاج إلى إيجاد ملكة وقدرة عامة عليه، ولكن المدد والعون القرآني يتجلى بسهولة ويسر مع حالة المزاولة وطول الملابس والشروع بتحرير اللغة وخروجها من طغيان وعدوان العامية.

والأولى بالهيئات والمجالس العلمية في العالم العربي والإسلامي وضع

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٦

الدراسات والخطط الشاملة لمحاربة ظاهرة الأمية، وتقتصر أن يكون هناك تعاون في باب نشر العربية الفصحى لغة القرآن وكلام الأجداد ومحاربة داء العامية.

ولغة القرآن عنوان جامع للعز والفخر ومن أفضل مصاديق الوحدة والإتحاد، لاسيما وأن الأمية تعدت إلى خارج الوطن العربي وشملت بعضاً ممن يتعلم العربية، بالمخالطة وينميها في التعامل اليومي في المجتمع فتشيع الأمية قهراً وإنطباعاً، وتبقى العربية منحصرة بمحلقات محدودة للدرس اللغوي أو الفقهي، وببركة القرآن لم ولن يصل الأمر إلى الإستهزاء بمن لا يتكلم إلا الفصحى.

أما الآفة الأخرى فهي عدم إعطاء لغة القرآن في الدول الإسلامية القدر المناسب من العناية والإهتمام النوعي والرسمي في الإنتشار بين شعوبها ومما لا ريب فيه أن المؤسسات الثقافية الدينية في الأمصار الإسلامية وغيرها من البلدان الأخرى تقع عليها مسؤولية جعل اللغة العربية لغة الدراسات فيها.

وإذ حافظ القرآن على دوام العربية وبنى لها مجدداً ووضع لها أركاناً بإظهار قواعدها، وساهم علماء الإسلام في تأسيس المدارس اللغوية والنحوية التي تتصف علومها بالدقة والإستيعاب والإحاطة، فإن اللغة العربية تنتشر بما يتناسب ومنزلتها التاريخية مقدمة لعلوم القرآن مع أنها تمتلك مقومات الإنتشار والعالمية، وسيبقى المناخ والواقع مناسباً ومفتوحاً لإتساعها، وسيظل القرآن حارساً وحافظاً لها.



سفر النبوة

بين النبوة والرسالة

النبى هو الإنسان الذى إختاره الله عز وجل للإخبار عنه ومن غير واسطة إنسان آخر، والرسول هو أيضاً نبى ولكنه يمتاز بأن له شريعة مبتدأة، فبينهما عموم وخصوص مطلق، فكل رسول هو نبى، وليس كل نبى هو رسول.

ولقد شرف الله عز وجل الأنبياء وأكرمهم وفضلهم على سائر خلقه وعددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبى، من ضمنهم الرسل وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً.

وفي الفرق بين الرسول والنبى أقوال ووجوه:

١. أن النبى لا يعاين الملك بخلاف الرسول الذى يكون أعظم منزلة وأكثر مسؤولية، ففي الكافى عن زارة قال: سألت ابا جعفر الباقر عليه السلام عن قوله تعالى ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(١) ما الرسول وما النبى؟ قال: النبى الذى يرى فى منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذى يرى فى المنام ويسمع الصوت ويعاين الملك.
٢. الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبى من لم ينزل عليه، وإنما يدعو إلى كتاب من قبله.
٣. الرسول الذى نسخ بالكتاب الذى أنزل عليه شريعة من قبله، ومن لم يكن كذلك منهم فهو نبى.
٤. إن الرسول الذى يأتىه الملك ظاهراً ويأمره بدعوة الخلق، ومن لم يكن كذلك بل يرى فى النوم فهو النبى.

(١) سورة مريم ٥١

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ١٢٨

٥. ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: الرسول الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلماته وينزل عليه الوحي، وربما يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، والنبى يسمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع.

٦. في الصحيح عن الأحول قال: سمعت زارة يسأل الإمام الباقر عليه السلام قائلاً: "أخبرني عن الرسول والنبى والمحدث. فقال: الرسول الذي يأتيه جبرئيل قبلاً، فيراه ويكلمه، وأما النبى فهو يرى في منامه على نحو ما رأى إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة، وكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل عليه السلام ويكلمه بها قبلاً. ومن الأنبياء من جمع له النبوة ويرى في منامه يأتيه الوحي فيكلمه ويحدثه من غير أن يكون رآه في اليقظة، وأما المحدث فهو الذي يحدث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه".

ان ذكر الأنبياء بلغة العموم والإطلاق ونيلهم أعلى مراتب الشرف والنبوة لا يعني أنهم على مرتبة واحدة من جهة تلقي الوحي والوظائف، فقد ورد في كتاب البصائر عن الباقرين عليهما السلام: المرسلون على أربع طبقات، فنبى تنبأ في نفسه لا يعدو غيرها ونبى يرى في النوم ويسمع الصوت ويعاين الملك وقد أرسل إلى طائفة قلوا أو كثروا كما في قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١) وقال: يزيدون ثلاثين ألفاً. ونبى يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولي العزم، وقد كان إبراهيم نبياً وليس بامام حتى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

(١) سورة الصافات ١٤٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٢٩

إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ أَيُّ مَنْ عَبْد
صَنَمًا أَوْ وِثْنًا وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ مُتَعَدِيًّا لَا يَصْلِحُ لِلْإِمَامَةِ.

وكما أنعم الله عز وجل على أهل الأرض بالأنبياء مبشرين وائمة
هدى فإنه سبحانه تفضل بإنزال الكتب عليهم لتكون حجة وباب هداية،
وعوناً لأهل الإيمان في عملهم ومناسكهم بل وجهادهم.

وقيل يارسول الله كم أنزل الله من كتاب؟

قال: مائة صحيفة وأربعة كتب، أنزل الله على شيث عليه السلام خمسين
صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى أول من خط
بالقلم وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور
والفرقان^(٢).

وفي رواية عن أبي ذر يرفعه أنها مائة كتاب وأربعة وعشرون كتاباً.
منها أنزل على إدريس خمسون صحيفة.

وروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: بعثت على
رأس ثمانية آلاف نبي منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل، وعلى فرض
صحة السند فأنها تحمل أما على أعظم الأنبياء أو الذين تجمعهم صفة
معينة حسب القرائن وسياق الحديث، أو من خلال المعنى.

لقد أكرم الله عز وجل بني آدم ولم يترك الأرض من غير حجة،
ظاهرة أو مستترة، وكان الأنبياء يتوارثون النبوة ويحرصون على ميثاقها.
وكل رسول يبشر بالذي يأتي بعده، عن الصدوق في إكمال الدين في
حديث طويل يسنده إلى الإمام محمد الباقر عليه السلام وفيه: أن آدم عليه السلام
أستكملت أيام نبوته، أوحى الله سبحانه إليه أن يجعل العلم وميراث
النبوة في إبنه هبة الله، وبشر آدم بنوح، وكان بينهما آباء كلهم أنبياء، فلما

(٢) سورة البقرة ١٢٤.

(٢) مجمع البيان ١٠/٢٩٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٠

مضت أيام نبوة نوح دفع ميراث العلم والنبوة إلى ابنه سام، وليس بعد سام إلا هود، فكان بين نوح وهود من الأنبياء مستخفين وغير مستخفين، ومن بعد هود إنتهت النبوة إلى إبراهيم، وكان بين هود وإبراهيم من الأنبياء عشرة.

ولم يكن الأنبياء بمعزل عن البلاء، فلقد واجهوا صنوف الأذى وعاشوا أقسى الأحوال، وتعرضوا للشم والضرب وأحياناً يكون القتل خاتمة لحياتهم الشريفة.

ومع هذا بالغ أقوام في منازل الأنبياء وقاربوا بها الربوبية فجاء الإسلام ليتصدى إلى تلك المبالغة بنفس الصيغ الجهادية والتربوية التي رسخها في إكرام الأنبياء ومعرفة حقيقة إرتقائهم على البشر منزلة وعلماً وكرامة وفيه منع من الإفراط والتفريط، ودعوة إلى التفقه في الدين.
(فعن صهيب ان معاذاً لما قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال : يا معاذ ما هذا؟

قال: أن اليهود تسجد لعظمتها وعلمائها. ورأيت النصرارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت: ما هذا؟
قالوا: تحية الأنبياء.

فقال عليه السلام: كذبوا على أنبيائهم^(١)

وإستمر الصحابة والأئمة عليهم السلام في التصدي لصيغ الغلو وأماراته ليتجه الناس إلى التوحيد والإخلاص في العبادة.

فعن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق^(٢) على علي بن أبي طالب فأراد أن يسجد له.

(١) تفسير الرازي ١١٢/٢.

(٢) الجاثليق - بفتح الثاء - رئيس النصرارى في بلاد الإسلام.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣١

فقال له علي: أسجد لله ولا تسجد لي^(١).

لقد جاءت آية الإسراء بصفة العبودية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

بِعَبْدِهِ﴾^(٢) للحث على الإجتهد في الطاعة والعبادة وعلى الأمل بفضل الله تعالى، وفيها رد متقدم ودعوة وحث لإكتشاف الإنسان لأسرار الآفاق، وتوصله بالعلم لكيفية الصعود في السماء وإخبار بأن معجزة الإسراء حصلت بصفة العبودية.

الإسم الأعظم

وهو سر من أسرار الكون، وكنز من ذخائر النبوة، وفضل من الله تعالى على الإنسانية، وعلى الصفوة من الأنبياء خاصة، ويمكن تعريفه بأنه باب علم تفتح منه خزائن متعددة من العلوم والمعجزات والكرامات والأسرار الربانية التي تتعلق بالحوادث والمغييات والأمور الكونية ونحوها.

إنه إسم الله الذي يستجيب له كل شيء بإذنه تعالى، وقد يرد في النصوص بعنوان إسم الله الأعظم أو إسم الله الأكبر أو السر الأعظم. ولقد حجب الله عز وجل عن العباد إلا من إصطفى، وأختلف في موضع وجوده من القرآن هل هو في آية معينة أو مجموعة آيات، والإخفاء سر من أسرار المعرفة الإلهية وجزء من الحجب والستر وأحكام الغيب ومعارفه، وهذه صغرى، أما الكبرى فهي هل هو موجود في القرآن أم لا؟ الجواب نعم، ويدل عليه الكتاب والسنة قال تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

(١) ن.م ١١٣/٢.

(٢) سورة الإسراء ١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٢

تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿٢﴾.

والأنبياء رزقوا إياه ولكن بأجزاء مختلفة في الكم والكيف والأثر.
وفي الكافي بسنده عن البرقي يرفعه إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: إن
الله جعل الإسم الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً.
فأعطى آدم منها خمسة وعشرين حرفاً.
وأعطى نوحاً منها خمسة وعشرين.
وأعطى إبراهيم منها ثمانية أحرف.
وأعطى منها موسى أربعة أحرف.
وأعطى منها عيسى حرفين، وكان يحمي بهما الموتى ويبرء الأكمه
والأبرص.
وأعطى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إثنين وسبعين حرفاً.
وإحتجب حرفاً لثلا يعلم ما في نفسه، ويعلم ما في نفوس العباد
(الكافي).

وفي رواية أنه تعالى أعطى نوحاً خمسة عشر حرفاً.

ومن هذا التقسيم البياني تعلم عظيم منزلة آدم عليه السلام وما كان يؤديه من
وظائف النبوة وتهيئة أسباب العيش لذريته في الأرض. وإن كان العدد
وحده ليس باباً للمقارنة وحصول الفارق خاصة وأن لكل حرف منها
خصوصية وأثراً وأبواباً كريمة من العلم، والمشهور في علم الأصول أن
التحديد بالعدد لا مفهوم له، لكنه هنا له دلالات لأن زيادة العدد تدل
على علو الشأن والإنفراد بشطر من العلوم إلى جانب كثرة المضامين
القدسية لكل مرة تذكر فيها ذات الكلمة بلحاظ تعدد الموضوع ونظم الآية
وسياق الآيات.

لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان مع عيسى ابن مريم

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٣

حرفان يعمل بهما.

وكان مع موسى ﷺ أربعة أحرف.

وكان مع إبراهيم ستة أحرف وكان مع آدم خمسة وعشرون حرفاً،

وكان مع نوح ﷺ ثمانية.

وجمع ذلك كله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إن إسم الله

ثلاثة وسبعون حرفاً وحُجِبَ واحد.

أولوا العزم

قال تعالى ﴿ وَتَقَدُّ عَهْدَنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَكَمْ نَجِدُ لَهُ عَزْمًا ﴾ (١).

العزم: هو ثبات الإرادة ودوامها. ويقال عزمت عزمًا - بالضم - وعزيمة

إذا أردت فعل الشيء وقطعت عليه، والوجود هنا تقيض العدم.

ويحتمل في الآية الكريمة أعلاه معنيان:

الأول: يحمل عنوان المدح بمعنى: لم نجد له عزمًا على إتيان المعصية،

ومخالفة العهد والميثاق.

الثاني: لم نجد له عزمًا على إجتناّب المعصية والتحرز من الإقتراب

من الشجرة وهو الأنسب، والاقرب بقريئة النسيان في الآية، وما تدل عليه

الآيات القرآنية الأخرى بالموضوع خاصة وأن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

ومن الصعب النظر إلى موضوع العزم في الآية الكريمة بمعناه اللغوي

فقط، بل يمكن تأويله وفق المعنى الإصطلاحي وأن الأمر يتعلق بالرسول

أولي العزم من الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو

العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٢)، وهم خمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

(١) سورة طه ١١٥.

(٢) سورة الإحفاف ٣٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٤

بالإضافة إلى النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل هم أربعة إبراهيم ونوح وهود ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذهب بعضهم إلى أنهم ستة: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب، والأول أصح وأشهر. وفي تسميتهم أولي العزم أقوال:

١. إنهم بعثوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، وجنّها وإنسها. أي أن رسالاتهم عامة. وقيل إن رسالة موسى وعيسى خاصتان.

١. إنهم أولوا الجد والثبات والصبر.

١. المراد في الآية الكريمة جميع الرسل، وأن (من) في قوله تعالى ﴿

مِنَ الرُّسُلِ ﴾ في الآية أعلاه لليان. وأن كل نبي ذو عزم وثبات، والأقرب أنها للتبعيض.

١. إنهم محور النبوة وهم أصحاب الشرائع، كل واحد منهم جاء بشريعة نسخت الشريعة التي جاء بها من قبله.

١. هم الذين أمروا بالقتال والجهاد، وأظهروا المكاشفة، وجاهدوا في الدين.

١. الأنبياء الذين سبقوا إلى الإقرار بالله، وأقروا بكل نبي كان قبلهم وبعدهم وعزموا على الصبر مع التكذيب وصنوف الأذى.

١. عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: "سموا أولوا العزم لأنهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع، وذلك أن كل نبي بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعا لكتابه، إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام".

١. لما عهد إليهم في النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأوصياء من بعده، فاجمع عزمهم على الإقرار به وأنه كذلك^(١).

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٥

رَمَّضَانَ- صبروا على مكروه الدنيا وصبروا عن محبوبها، وهو المروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد وسوس الشيطان لأدم عليه السلام فأكل من الشجرة بعد أن عهد له الله عز وجل أن لا يأكل منها، فكان ذلك منه نسياناً سواء كان النسيان بمعنى الترك أو تقيض الذكر^(١) مما يدل على التشريف والتخصيص بنعت أولي العزم، وأنها مدرسة إرتقاء تدل على إجتياز مرحلة الإبتلاء بيقين وثبات وإحترام.

وللنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خصائص كثيرة إنفرد بها بين الأنبياء وهي عديدة منها:

الأول: نبوة محمد دعوة للإيمان به وعون على اجتذاب القلوب وبعث الرعب والفرع في قلوب الكافرين وشعورهم بالتقصير والخطأ.

الثاني: النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وصاحب الشريعة الناسخة للشرائع السابقة وليس من شريعة تنسخ شريعته وإلى يوم القيامة.

الثالث: نزول القرآن على صدره، ﴿ثِيَابًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

الرابع: هو النبي الذي أمته خير الأمم قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ﴾^(٣).

الخامس: جاءت معجزات الأنبياء حسية، ومعجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عقلية وهي القرآن.

السادس: جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وخروجه إلى

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٧٢.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٦

الغزو بنفسه، وبعث الرعب في نفوس أعدائه مسيرة الشهر وتحقيق النصر والغلبة لجيوش المسلمين.

السابع: بقاء شريعة ناسخة للشرائع وليس من شريعة ناسخة لها.

الثامن: بقاء العمل بأحكام شريعته إلى يوم القيامة.

أعمار الأنبياء وصفاتهم

قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (١) لقد كتب الله عز وجل على الناس الموت ببدع حكمته وجعله سبيلاً لمغادرة الحياة الدنيا باعتبار حتمية زوالها وأنها دار إنتقال إلى الآخرة.

ويخضع الأنبياء في هذا الموضوع للنواميس الثابتة في أصل الخلقة، وبعض الأنبياء قتل في سن الشباب كيحيى عليه السلام، ومنهم من رزقه الله طول العمر حجة وآية في التبليغ. وبالإسناد عن الامام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

عاش آدم أبو البشر تسعمائة وثلاثين سنة.

وعاش نوح الفين وأربعمائة.

وعاش إبراهيم عليه السلام مائة سنة وخمساً وسبعين.

وعاش إسماعيل بن إبراهيم مائة وعشرين سنة.

وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة.

وعاش يعقوب عليه السلام مائة وعشرين سنة.

وعاش يوسف عليه السلام مائة وعشرين سنة.

وعاش موسى عليه السلام مائة وستاً وعشرين سنة.

(١) سورة الأنبياء ٣٤.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٧

وعاش هارون عليه السلام مائة وثلاثاً وثلاثين سنة.

وعاش داود عليه السلام مائة سنة منها أربعون سنة ملكه.

وعاش سليمان بن داود عليه السلام سبعمائة سنة وإثنتي عشرة سنة.

لقد رزق الله الأنبياء درجة عالية من الذكاء والحلم، وبما يناسب هذا المنصب الإلهي ويساهم في التأثير الفعال في المجتمع وأداء وظائف النبوة على أحسن وجه، بالإضافة إلى الوحي الذي هو مدد غيبي يفوق قدرات الإنسان.

روى علي بن ابراهيم عن ياسر عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا صاحب مرة سوداء صافية^(١)، أي أنه ذو قوة في العقل والرأي وثبات في الدين. وأشير إلى معناها في الطب القديم أنها غاية الحذق والفظانة والحفظ، ووصفت في الحديث بأنها (صافية) أي خالية من مخالطة الخيالات الفاسدة والأخلاق الرديئة.

آدم نبي

النبي هو الإنسان الذي إختاره الله عز وجل للإخبار عنه وليبلغ الأحكام من غير واسطة عن الله عز وجل، لذا قيل أنه سمي نبياً لأنه أنبأ أي أخبر عن الله، سواء كان له شريعة مبتدأة أو ليس له شريعة.

لقد كان آدم عليه السلام نبياً وورد في رواية أنه نبي رسول، قال تعالى ﴿أَنْبِيَّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾^(٢)، وكانت الأرض كلها لآدم وفي الحديث: خلق الله تعالى آدم وأقطعه الدنيا قطيعة^(٣).

وبالإسناد عن أبي ذر الغفاري قال: "دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس وحده، فجلست إليه فقال لي: يا أبا ذر

(١) مجمع البحرين ١٨٢/٧ .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) مجمع البحرين ٣٦٣ طبعة حجرية .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٨

أن للمسجد تحية، وأن تحيته ركعتان، فقم فأركعهما، فلما ركعتهما جلست إليه، فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ قال: خير موضوع، إستكثر أو إستقل. ثم ذكر قصة طويلة قال فيها:

قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟

قال: مائة الف وأربعة وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟

قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جمماً غفيراً. يعني كثيراً طيباً.

قلت يا رسول الله، من كان أولهم؟

قال: آدم.

قلت: يا رسول الله وآدم نبي مرسل؟

قال: نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً^(١).

وبالاسناد عن أبي إمامة عن أبي ذر قال: قلت: يا نبي الله، أنبيأ كان

آدم؟ قال: نعم، كان نبياً، كلمه الله قبلاً.

فما يبدو واضحاً أن أحكام الشريعة في الأرض بدأت مع وجود آدم فيها، وكذا ما يتعلق بواجبات الإنسان ونوع أفعاله، ولقد إختاره الله للتبليغ إلى ولده وزوجه. وفي الخبر أنه أنزل عليه إحدى وعشرون صحيفة كتبها آدم ﷺ بخطه علمه إياها جبرئيل عليه السلام.

وتعتبر الملازمة بين أول وجود للإنسان على الأرض وبين النبوة فخراً للناس جميعاً، وتشريفاً لهم، وحجة لأهل الإيمان، وبركة تتغشاهم وعبرة وموعظة، وإكراماً من الله تعالى لمقام الأبوة بإعتبار أن آدم أبو البشر.

الحياة اليومية للأنبياء

مع عظيم منزلة الأنبياء ومقامهم الإجتماعي، وما فضلهم الله عز وجل به، فإنهم يعيشون حياتهم اليومية كسائر البشر ووفق أحوال

(١) تاريخ الطبري ١/١٥١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٣٩

مجتمعهم، ويواجهون العناء الشخصي، ويمارسون الأعمال بالإضافة إلى ما يعانون من الأذى والإضطهاد.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالجوع حتى يموت جوعاً، وأن كان من الأنبياء ليبتلى بالعطش حتى يموت عطشاً، وأن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالسقم والأمراض حتى يتلفه، وأن كان النبي ليأتي قومه، فيقوم فيهم ويأمرهم بطاعة الله ويدعوهم إلى توحيد الله، وما معه مبيت ليلة فما يتركونه يفرغ من كلامه ولا يستمعون إليه حتى يقتلوه، وإنما يبتلى الله تبارك وتعالى عباده على قدر منازلهم عنده^(١).

ولقد مارس الأنبياء المهن والأعمال، وكانت في الغالب أعمالاً بسيطة متواضعة، وسبباً للمعيشة يتناسب وروح الزهد، ويدل على عدم التوجه إلى الدنيا وزخرفها، وكان نوح نجاراً وإدريس خياطاً.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "إن الله عز وجل أحب لأنبيائه من الأعمال الحرث والرعي لأن لا يكرهوا شيئاً من قطر السماء". وقال عليه السلام: "ما بعث الله نبياً قط حتى يسترعيه الغنم، يعلمه بذلك رعية الناس".

ولقد بارك الله عز وجل للأنبياء في رزقهم وإن إمتازوا في مآكلهم بالتواضع وعدم الإسراف. ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: "ما من نبي إلا وقد دعي لأكل الشعير وبارك عليه، وما دخل جوفاً إلا خرج كل داء فيه، وهو قوت الأنبياء وطعام الأبرار، أبى الله أن يجعل قوت أنبيائه إلا شعيراً"، وعن الإمام الصادق عليه السلام: السوق^(٢)، طعام المرسلين، واللحم باللبن مرق الأنبياء، وكان أحب الأصباغ^(٣) إلى رسول

(١) الجزائري / قصص الأنبياء ١٢ عن كمال الدين.

(٢) السوق: دقيق مقلو يعمل من الحنطة او الشعير.

(٣) الصيغ - بالكسر - ما استطع به من إلام والزيت لأن الخبز يغمز فيه.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤٠

الله صلى الله عليه وآله وسلم الخلل والزيت وهو طعام الأنبياء، وما إفتقر أهل بيت يأتدمون بالخلل والزيت".

لقد خلف الأنبياء للناس ميراثاً كريماً في باب الغذاء والصحة ووجوه الشفاء. فإذا تبعت القيمة الغذائية لا طعمتهم ترى فيها الفوائد الأساسية، وكفاية ووقاية البدن مع رخصها في مختلف الأزمان وسهولة تناولها.

ومع عظيم بركات الأنبياء في مجتمعاتهم، وعموم أهل زمانهم والأجيال المتعاقبة، فقد لاقوا شتى صنوف البلاء، والإيذاء الخفي. فبالإسناد عن الأشعري رفعه إلى الصادق عليه السلام قال: ثلاث لم يفر منها نبي فمن دونه، الطيرة والحسد والتفكر في الوسوسة في الخلق.

وفسرت الطيرة هنا بأنه يتطير منهم لأن الأنبياء لا يتطيرون. ويشهد على ذلك قوله تعالى في قوم صالح: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١). وقوله تعالى في ذم قوم أساءوا لأنبيائهم: ﴿قَالُوا أَنَا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْهَوْا لَتَرْجُمَنَّكُمْ﴾^(٢)، ولكن المعنى أعم تخفيفاً ورحمة منه تعالى.

وأما الحسد هنا فهو أن يحسدهم الناس لا أن يحسدوا، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا...﴾^(٤).

وأما التفكر في الخلق، فهو ابتلاؤهم بأولئك الذين يترددون في قبول دعوتهم بالتشكيك والتساؤل في أصل الكون وأسراره ولكن ظاهر الحديث يحمل على حدوثها كخواطر من غير أن تبقى في النفس، جاء

(١) سورة النمل ٤٧.

(٢) سورة يس ١٨.

(٤) سورة النساء ٥٤.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤١

الحديث للتخفيف عن الناس بعدم ترتيب الأثر على الطيرة، وأن الله عز وجل يكرم عبده المؤمن ويغفر الهنات والصغائر من الذنوب.

لقد أنعم الله على الأنبياء والمرسلين بالرزق الحلال وإظهار التقيد بأحكام الشريعة في مآكلهم ومشربهم ليطابق قولهم فعلهم، ولينذروا الناس، بلغة الأمر والإرشاد وتهيئة أسباب الهداية والتسلح بالتحرز والتحفظ من الحرام، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا

صَالِحًا﴾^(١).

وورد في الكافي بإسناده عن معمر بن خلاد قال: نظر الإمام الباقر عليه السلام إلى رجل وهو يقول: اللهم إني أسألك من رزقك الحلال. فقال: سألت قوت النبيين. قل اللهم إني أسألك رزقاً واسعاً طيباً من رزقك.

وروى الشيخ في الأمالي بإسناده عن رجل جعفي قال: "كنا عند الإمام الصادق عليه السلام فقلت: اللهم أسألك رزقاً طيباً، فقال: هيهات، هيهات. هذا قوت الأنبياء، ولكن سل ربك رزقاً لا يعذبك عليه يوم القيامة. هيهات أن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. والطيبات الرزق الحلال."

ولعل المراد إننا لا نعلم بالحكم الواقعي وأن رزق المؤمنين يجري وفق الحكم الظاهري، وما دامت الحرمة لم تثبت فالأصل الحلية. أما رزق الأنبياء فقد وعد الله عز وجل بنص الآية الكريمة أعلاه أن يكون رزقهم طيباً للملازمة بينه وبين وظائف وأحكام النبوة ولعله من ضرورات التبليغ والإنذار، وللأسوة، وإقتداء الناس بهم ولو على نحو الموجبة الجزئية.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ١٤٢

أما من حيث اللغة التي كان يتكلم بها الأنبياء. فقد أشار لها قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... ﴾ (١) فالنبي يحتاج التحدث بلغة قومه للبيان، وإنما عرف الأنبياء بالكلام والدعوة إلى الله عز وجل، وهذا لا ينفي معرفتهم للغات الأخرى من ناحية الإكرام والإعجاز.

وبالإسناد عن عمر بن أبان عن بعضهم قال: "كان خمسة من الأنبياء سريانيين آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم" أي أنهم يتكلمون بلغة قومهم الذين بعثوا لهم عدا آدم الذي تكلم وليس عنده قوم إذ خلقه الله وعلمه الأسماء في الجنة ولا يمنع من أن تكون هذه اللغة الغالبة ولعله كان لسان آدم العربية وهو لسان أهل الجنة، فلما عصى ربه أبدله السريانية ولكن هذا الإبدال لا دليل عليه.

قال: وكان خمسة عبرانيين إسحاق ويعقوب وموسى وداود وعيسى، وخمسة من العرب هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم (٢).

الهبوط

قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ... ﴾ (٣).

جاء أمر الهبوط متعباً للزلل والخطأ والأكل من الشجرة، وصحيح أن الهبوط قد يأتي بمعنى الحلول في المكان كما في قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾، إلا أنه يعني في المقام الخروج من الجنة ومغادرتها إلى الأرض والإبتلاء، ومن لواحق الخروج إختلال المزاج وإمكان وجود الغل في

(١) سورة إبراهيم ٤.

(٢) قصص الأنبياء ٩ عن الاختصاص للمفيد.

(٣) سورة البقرة ٣٦.

الصدور.

ومع أن أمر الخروج جاء في الآية بصيغة التثنية بخصوص آدم وحواء، إلا أن الخطاب جاء بصيغة الجمع مما يستبعد أن يكون الخطاب متعلقاً بآدم وحواء وحدهما وإن كان الإثنين أقل الجمع، وفي متعلق خطاب الخروج وجوه:

١. يشمل الخطاب بالإضافة إلى آدم وحواء إبليس. ولا يضر في المعنى الإجمالي لهذا القول أسبقية خروج إبليس من الجنة، فقد جمعتهما معه موضوع الهبوط، وتنجز واقعاً بهبوط آدم وحواء أمر العداوة لما فيها من المفاعلة.

٢. المراد في الآية آدم وحواء وذريتهما، أي أن العداوة تدوم وتتسع لتطال الأبناء.

٣. الخطاب موجه إلى آدم وحواء والحية بإعتبار أن إبليس سخرها لدخوله وخداع آدم، ولم يرد في القرآن ذكر لموضوع الحية. ولكن ذكر (أن إبليس دخل في شدة الحية وخاطبهما من شدتها) ونسبه الجزائري إلى القليل^(١).

وقال صاحب الكامل: أن إبليس اراد دخول الجنة فمنعته الخنزرة، فأتى كل دابة من دواب الأرض، وعرض نفسه عليها أن تحمله حتى يدخل الجنة، ليكلم آدم وزوجته، فكل الدواب أبت عليه ذلك حتى اتى الحية. وقال لا أمنعك عن ابن آدم، فانت في ذمتي إن أدخلتني، فجعلته ما بين نابين من أنيابها ثم دخلت به، وكانت راسية على أربع قوائم من أحسن دابة خلقها الله، كأنها بختية، فأعراها الله تعالى وجعلها تمشي على بطنها، كما ورد أن السم الذي في أنياب الحية من مقعد الشيطان فيه، أما لأنه أثر فيه من السم أو لأن السم خلق هناك بسببه.

(١) الجزائري / قصص الأنبياء ٥٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس ————— ١٤٤

وفي تفسير العسكري: كان إبليس بين لحبي الحية أدخلته الجنة، وكان آدم يظن أن الحية هي التي تخاطبه، ولم يعلم أن إبليس قد إختفى بين لحبيها، فرد آدم على الحية أيتها الحية هذا غرور إبليس.

وجاء في سفر التكوين

٤: فقالت الحية لحواء أنكما لو أكلتما من هذه الشجرة لا تموتان بل تكونان كآلهين عارفين بالخير والشر، وفيه أيضاً: كانت الحية أخبث كل الحيوانات التي صنعها الرب.

٤. خطاب الهبوط موجه إلى آدم وحواء والوسوسة، عن الحسن البصري. ولكن ظاهر الخطاب أنه موجه إلى العقلاء فتخرج الوسوسة بالتخصص، وهل: يحتمل توجه الخطاب على أساس الجنس، وأن العداوة حاصلة بين الرجال من جهة والنساء من جهة، وإبليس وذريته من جهة أخرى، ثمان العداوة ليست دائمة ظاهرة، فبأدنى تلبس ببعض وجوهها يتحقق موضوعها.

ومنها العداوة بين الحق والباطل، بين الظالم والمظلوم، والطاغية والمستضعفين.

وأن تلك العداوة جزء من أحكام الحياة الدنيا على سطح الأرض لحكمته تعالى في كونها دار امتحان وبلاء وافتتان، فقد نجد تلك العداوة بين الإيمان والكفر، وهي في الأصل كذلك إذ أن عداوة إبليس لآدم في أصل موضوعها كفر وحسد، وعداوة آدم لإبليس بسبب جحوده وغدره وإغوائه.

وللعداوة مراتب متفاوتة وصيغ قولية وفعلية مختلفة، وقد تكون من طرف دون الطرف الآخر خاصة وأن لفظ (بعض) يعني الشيء من الأشياء، ولكن القدر المتيقن من الآية الكريمة هو عداوة الناس لإبليس، وعداوة إبليس للناس، وتتجلى عداوته بوسوسته وسعيه لحجبهم عن الخيرات وبلوغ الخلود في النعيم.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤٥

لقد تلقى آدم موضوع الهبوط بالفزع والحزن والأسى، إذ فقد في لحظة وبأكلة أشرف مستقر وأعظم نعمة، وبكى على الجنة بكاءً شديداً، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: البكاءون خمسة آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعلي بن الحسين عليهم السلام. فاما آدم فبكى للجنة حتى صار في خديه مثل الأودية.

ولقد كان هبوط آدم عليه السلام من الجنة مناسبة سعيدة لإبليس لما فيه من وجوه البؤس والشقاء على آدم وذريته، ولكن عظيم ثواب الآخرة لأهل الإيمان يغبط إبليس والكافرين على نحو دائم من غير أن يستطيعوا منعه أو حجبه.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: رن إبليس أربع رنات، أولهن يوم لعن، وحين أهبط إلى الأرض، وحين بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم على حين فترة من الرسل، وحين أنزلت أم الكتاب، ونخر نخرتين حين أكل (أي آدم) من الشجرة، وحين أهبط من الجنة.

والرنّة: الصوت والصياح وهو علامة حزن، والنخير: الصوت من الأنف، وهو علامة الفرح والسرور.

وروي أنه لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض قال الله عز وجل له: إبن للخراب ولد للفناء^(١) أنه إخبار إلهي عن حقيقة الدنيا وأنها زائلة، ونهي عن الإنتطاع إليها، أو الإغترار بزيتها ولكي يواظب الإنسان على ذكر ربه وإتيان العبادات ووجوه الفرائض والمندوبات.

وعن حياة الحيوان أن آدم عليه السلام لما أخرج من الجنة يشتكي الوحشة فأنسه بالخطاطيف وألزمها البيوت فهي لا تفارق بني آدم إنساً لهم، ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

(١) مجموعة ورام ١١٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤٦

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. ﴿ إلى آخر السورة، وتمد أصواتها بقول العزيز الحكيم. وفي الحديث تسبيح الخطاف قراءة الحمد.

موضع الهبوط

وبغض النظر عن موضوع الجنة، ومكانها من السماء أو الأرض، ترى أين كان هبوط آدم وحواء من الأرض وهل كان في موضع واحد، أو في بقعتين متقاربتين أو متباعدتين، وهل للأمر صلة بمسألة العداوة، وأن العداوة سبقت وصولهم إلى الأرض أم أنها كانت ملازمة لهم.

لقد اختلفت الروايات الواردة في المقام ففي احتجاج الإمام علي عليه السلام مع الشامي حين سأله عن اكرم واد على وجه الأرض، قال عليه السلام: واد يقال له سرنديب، سقط فيه آدم من السماء.

وعن كعب الأحبار: أهبط الله الحية باصفهان، وإبليس بجدة، وحواء بعرفة، وأهبط آدم عليه السلام بجبل سرنديب وهو جبل بأعلى الصين في أرض الهند، يراه البحرليون من مسيرة أيام، وفيه على ما نقل أثر قدم آدم عليه السلام مغموسة^(١).

وفي تفسير القمي في قوله تعالى ﴿ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فهبط آدم على الصفا، وأما سميت الصفا، لأن صفة الله نزل عليها، ونزلت حواء على المروة، وإنما سميت المروة لأن المرأة نزلت عليها. وهذا الحديث أقرب سنداً ودلالة وموضوعاً، والظاهر أن هبوطهما كن بموضع واحد كجزء من رحمة الله تعالى، خصوصاً وأن الهبوط ليس عقاباً محضاً.

وفي قصص الراوندي بإسناده عن الإمام الباقر عليه السلام قال: إن آدم عليه السلام نزل بالهند، فبنى الله تعالى له البيت فلما خطا من الهند فكان موضع

(١) مجمع البحرين ١١٤ طبعة حجرية.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤٧

قدميه حيث خطا عمران، وما بين القدم والقدم صحارى^(١).
ويمكن الجمع بين الأحاديث بعد التسامح في موضوع سندها، بأن
الهبوط على الصفا والمروة بعد دخولهما مكة وهو بمعنى الحلول بالمكان
كما في قوله تعالى ﴿ اهْبُطُوا مِصْرًا... ﴾^(٢).

والعداوة سبب او جزء علة للهبوط، والأقوى أنها سابقة لوجودهم
على الأرض لا أقل من طرف إبليس إذ تظهر عداوته بعدم السجود لآدم
عليه السلام، ولأن آدم وحواء يبغضان الجاحد المستكبر عن طاعة الله.

إبليس في الأرض

قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ ﴾^(٣) مع هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض بدأت مرحلة الإبتلاء
والإمتحان والإفتتان، فكان إبليس غاويًا لآدم، وقاعدًا له على الصراط
المستقيم وعدوًا له في الأرض كما كان في الجنة، والتوبة تحت الذنب ولم
تؤد إلى رفع أصل الإبتلاء، لقد أغرى إبليس به السباع حال هبوطه فأناجى
الله عز وجل، ثم أخذ يزاحمه ويرهقه في قوته وعمله كجزء من الإفتتان
اليومي.

بالإسناد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "إن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة
إشتهى من ثمارها فأنزل الله تبارك وتعالى عليه قضيين من عنب فغرزهما
فلما أورقا وأثمرا وبلغا جاء إبليس فحاط عليهما حائطًا. فقال آدم: ما لك
يا ملعون. فقال إبليس: إنهما لي، فقال: كذبت. فرضيا بينهما بروح
القدس، فلما إنتهيا إليه. قص آدم عليه السلام قصته فأخذ روح القدس شيئًا من

(١) الجزائري / قصص الأنبياء ٥٢.

(٢) سورة البقرة ٦١.

(٣) سورة الأنعام ١١٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤٨

نار فرمى بها عليهما، فالتهمت في أغصانها حتى ظن آدم أنه لم يبق منهما شيء إلا إحترق، وظن إبليس مثل ذلك.

قال: فدخلت النار حيث دخلت، وقد ذهب منهما ثلاثهما وبقي الثلث، فقال الروح: أما ما ذهب منهما فحظ إبليس، وما بقي فلك يا آدم.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى لما أهبط آدم عليه السلام أمره بالحرث والزرع وطرح إليه غرساً من غروس الجنة، فأعطاه النخل والعنب والزيتون والرمان وغرسها لتكون لعقبه وذريته فأكل هو من ثمارها. فقال إبليس لعنه الله: يا آدم ما هذا الغرس الذي لم اكن أعرفه في الأرض فقد كنت بها قبلك، أئذن لي أكل منها شيئاً فأبى أن يطعمه فجاء إلى حواء. فقال لحواء: أنه قد أجهدني الجوع والعطش. فقالت له حواء: إن آدم عهد أن لا أطعمك من هذا الغرس لأنه من الجنة ولا ينبغي لك أن تأكل منه، فقال لها: فأعصري في كفي منه شيئاً، فأبت عليه، فقال: ذريني أمصه ولا آكله فأخذت عنقوداً من العنب فأعطته فمصه، ولم يأكل منه شيئاً، لما كانت حواء قد الحت عليه، فلما ذهب بعضه جذبته حواء من فيه.

فاوحى الله عز وجل إلى آدم عليه السلام أن العنب قد مصه عدوي وعدوك إبليس وقد حرمت عليك من عصيره الخمر ما خالطه نفس إبليس، فحرمت الخمر لأن عدو الله إبليس مكر بجواء حتى مص من العنب ولو أكلها لحرمت الكرمة من أولها إلى آخرها وجميع ثمارها وما يخرج منها ثم أنه قال لحواء فلو امصصتيني من هذا التمر كما امصصتيني من العنب فأعطته ثمرة فمصها.

وكانت العنب والتمر أشد رائحة وأزكى من المسك الأزفر وأحلى من العسل فلما مصها عدو الله ذهب رائحتها وانتقصت حلاوتها ثم أن إبليس الملعون ذهب بعد وفاة أبينا آدم فبال في أصل الكرمة والنخلة

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٤٩

فجرى الماء في عروقهما في بول عدو الله، فمن ثم يختمر التمر والعنب أي يتغير ريحهما ويصير منتناً، فحرم الله عز وجل على ذرية آدم كل مسكر لأن الماء جرى ببول عدو الله في النخل والعنب وصار كل مختمر خمراً لأن الماء إختمر في النخلة والكرمة من رائحة بول عدو الله إبليس لعنه الله.

لقد شاء الله عز وجل أن يكون كيد إبليس مركباً من أصل عام وفرع خاص، فالأصل العام ثوابت للإبتلاء والإغواء تهدد المجتمعات في كل زمان، والخاص هو الإبتلاء الشخصي الذي يداهم الإنسان بالوسوسة والشك ونحوهما، لذا يمكن القول أن الإستعاذة والصدقة وأسباب الوقاية والإحتراز من إبليس لا ينحصر أثرها ومنافعها بالإنسان نفسه بل تنفع في وقاية الأجيال.

إن وجود إبليس في الأرض جزء من موضوع الإفتتان في الحياة الدنيا وفق الحكمة الإلهية، أي أن مقدمات الإبتلاء تمت هي الأخرى بعلم الله تعالى وبمشيئته.

الأرض مستقر

قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١).

سيبقى موضوع هبوط آدم إلى الأرض نعمة متصلة عليه وعلى ذريته، وصحيح أن الهبوط بالقياس والمقارنة مع سكن الجنة حرمان وخسارة، إلا أن النظر إلى وجود آدم في الأرض بشكل مستقل بعيداً عن المقارنة يظهر رحمة الله تعالى في إكرام آدم وذريته وبداية الخلافة في الأرض وعمارتها بالعبادة والذكر، إلى جانب تهيئة أسباب الرزق فيها.

إن العمل في زراعة الأرض رحمة وفضل إلهي أكرم الله به خليفته في

(١) سورة البقرة ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥٠

الأرض وذريته، فمن الواجب أن تقابل هذه النعمة بالشكر لله عز وجل،
ومن الآيات بقاؤها وإزدياد مصاديقها.

ووردت نصوص تفيد أن الطيب والعطر كان إبتدأؤه من حواء
وهبوطها إلى الأرض أي أنه من إفاضات الجنة.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: أهبط آدم عليه السلام من الجنة
إلى الصفا، وحواء إلى المروة، وقد كان إمتشطت في الجنة، فلما صارت في
الأرض قالت ما أرجو من المشط وأنا مسخوط علي، فخلت مشطها
فانتشر من مشطها العطر الذي كان.

وفي حديث آخر أنها حلت عقيصتها فارسل الله عز وجل على ما كان
فيها من ذلك الطيب ريحاً فهبت به في المشرق والمغرب. وفي الكافي
يأسناده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أن الله تبارك وتعالى لما أهبط آدم
طفق يخفض عليه من ورق الجنة وطار عنه لباسه الذي كان عليه من
حلل الجنة، فالتقط ورقة فستر بها عورته فلما هبط عبت أي لصقت
رائحة تلك الورقة بالهند بالنبت، فصارت في الأرض من سبب تلك الورقة
التي عبت بها رائحة الجنة فمن هناك صار الطيب بالهند لأن الورقة
هبت عليها ريح الجنوب، فأدت رائحتها إلى المغرب لأنها إحتملت رائحة
الورقة في الجو، فلما ركدت الريح بالهند عقب بأشجارهم ونبتهم، فكان
أول بهيمة إرتعت من تلك الورقة ظبي المسك فمن هناك صار المسك
صرة الظبي لأنه جرى رائحة النبت في جسده، وفي دمه حتى إجتمعت في
صرة الظبي.

ومع هذا فقد جاء في الخبر ما يدل على سوء الحالة التي قدم فيها آدم
وحواء إلى الأرض وفقرهما في عالم الأرض وما فيه من المشاق والجهد
والحاجة إلى الحيلة والتدبير والسعي من غير أن تغيب عنهما العناية
والحفظ الإلهي لهما.

فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥١

سئل مم خلق الله عز وجل الكلب؟ قال خلقه من بزاق إبليس، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: لما أهبط الله عز وجل آدم وحواء إلى الأرض أهبطهما كالفرخين المرتعشين، فغدا إبليس الملعون إلى السباع وكانوا قبل آدم في الأرض، فقال لهم: أن طيرين قد وقعا من السماء لم ير الراؤن أعظم منهما، تعالوا فكلوهما، فتعاوت السباع معه، وجعل إبليس يحثهم ويصيح بهم ويعدهم بقرب المسافة. فوقع من فيه من عجلة كلامه بزاق فخلق الله عز وجل من ذلك البزاق كلبين احدهما ذكر والآخر أنثى، فقاما حول آدم وحواء، الكلبة بجدة والكلب بالهند، فلم يتركوا السباع أن يقربوهم، ومن ذلك اليوم صار الكلب عدو السبع والسبع عدو الكلب.

وظلت رحمة الله عز وجل تتغشى آدم في الأرض، وأولئك الملائكة الذين سجدوا لآدم في قول تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^(١) بقوا أوفياء له في جنب الله، يمدون له يد العون والتوجيه النافع والأنس الروحي ويرشدونه إلى سبل النجاة في الدارين بعد تحقق التكليف.

بالإسناد عن وهب قال: لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض إستوحش لفقد أصوات الملائكة فهبط عليه جبرئيل فقال يا آدم ألا أعلمك شيئاً تنتفع به في الدنيا والآخرة، قال بلى، قال قل اللهم تمم لي النعمة حتى تهنئني المعيشة، اللهم إختم لي بخير حتى لا تضرنني ذنوبي اللهم إكفني مؤونة الدنيا وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة في عافية^(٢).

أن نزول الملائكة وعدم إنقطاع صلتهم مع آدم عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض رحمة من الله تعالى لآدم وللناس جميعاً، وهو دليل على قبول توبته وثبوت نبوته ودوام تشريفه. وفي تفسير العياشي عن الإمام

(١) سورة ص ٧٣.

(٢) حلية الأولياء ٢٨/٤.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥٢

الصادق عليه السلام: (إن آدم كان له في السماء خليل من الملائكة، فلما هبط آدم عليه السلام من السماء إلى الأرض استوحش الملك، وشكى إلى الله تعالى وسأله أن يأذن له، فأذن له فهبط عليه فوجده قاعداً في قفرة من الأرض، فلما رآه آدم عليه السلام وضع يده على رأسه وصاح صيحة، قال الإمام الصادق يروون أنه أسمع عامة الخلق فقال له الملك يا آدم ما أراك إلا وقد عصيت ربك وحملت على نفسك ما لا تطيق أتدري ما قال لنا الله فيك فرددنا عليه؟ قال: لا، قال: أنه جعلك في الأرض خليفة، قلنا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ^(١) فهو خلقك أن تكون في الأرض أيستقيم أن تكون في السماء، قال الإمام الصادق: والله عزى بها آدم ثلاثاً) ^(٢).

ويتعلق موضوع الحديث بالعزيمة في استقرار آدم في الأرض وما فيه من المشقة والكد والابتلاء.

ولقد اتخذ آدم عليه السلام الطير دليلاً بالإضافة إلى النجم فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: كان الصرد ^(٣) دليل آدم عليه السلام من بلاد سرنديب إلى جدة شهراً، وهو أول طائر صام إلى الله تعالى.

آدم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم

لقد بلغت الكمالات الإنسانية غايتها بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو سيد البشر، جعله الله تعالى خاتم النبيين وسيد المرسلين ومن

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) تفسير العياشي ٣٤/١.

(٣) الصرد: ويلفظ على وزن رطب، وهو طائر ابيض البطن، اخضر الظهر، ضخم المنقار يصطاد العصافير، اذا نقر نقرة واحدة قده من ساعته وأكله ويسمى إلاخطب وإلاخيل، لإختلاف لونه لا يكاد يرى إلا في سعة او شجرة لا يقدر عليه احد، غذاؤه من اللحم له صفيير مختلف، يصفر لكل طائر يريد صيده بلغته فيدعوه ليتقرب اليه فاذا اجتمعوا اليه شد على بعضهم فاخذه، تشاءم به العرب، وتطير بصوته كما عن حياة الحيوان.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥٣

صفات الله تعالى الثبوتية أنه عالم، عالم بكل شيء، يعلم الحوادث والجزئيات قبل حدوثها بعلمه الأزلي، وتغير المعلومات لا يعني أبداً تغير ذاته، لأن التغير في الإضافات وهي أمور إعتبارية لا أثر لها في العلم الذاتي.

ولقد وردت نصوص كثيرة تؤكد إقرار آدم عليه السلام بمنزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم منها ما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحق محمد ألا غفرت لي، وأوحى الله إليه: ومن محمد؟ قال: تبارك إسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فاذا فيه مكتوب لا اله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس احد عندك أعظم قدراً ممن جعلت إسمه مع إسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو ما خلقتك^(١).

وإستمر ذلك الإقرار وانتقل مع آدم إلى الأرض، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: إجتمع ولد آدم في بيت فتشاجروا فقال بعضهم: خير خلق الله أبونا آدم، فقال بعضهم: الملائكة المقربون، وقال بعضهم: حملة العرش. إذ دخل عليهم هبة الله فحكوا له فرجع إلى آدم عليه السلام وقال له: يا أبت إني دخلت على إخواني وهم يتشاجرون في خير خلق الله فسألوني فلم يكن عندي ما أخبرهم، فقال آدم: يا بني إني وقفت بين يدي الله جل جلاله فنظرت إلى سطر على وجه العرش مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم محمد وآل محمد خير من برأ الله).

وبالإضافة إلى ما في هذا الحديث من شهادة كريمة فإنه توصية للأبناء وجزء من وظائف النبوة بالتبشير بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليتطلع الناس جميعاً إلى إشراقة الإسلام ويستعدوا للحفاظ على أحكامه

بنصرة سيد الأنبياء وتصديقه، إنه مدد إليّ سابق للإسلام في زمانه وحجة على تلك الأجيال.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(١)، الآية، ذكر أنه غاية التشريف وهو أبلغ من تشريف آدم بسجود الملائكة له، ويتصل تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالآخرة حيث الدرجة الرفيعة والمقام الموعود الذي ينعم الله عز وجل به عليه دون غيره، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة"^(٢)، إنه إخبار وبشارة وعنوان إكرام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين عامة إذ يلتقون بعرض واحد مع الأنبياء في الإنضمام للواء الحمد والنبوة.

ولعل في حديث الإسراء والتقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وآله وسلم بالأنبياء الذين سبقوه مناسبة لتجديد ميثاق الأنبياء وعهدهم للإقرار بتقدمه في منازل العز والفخر ومراتب السموات.

لقد كانت أفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء مطلقاً وآدم عليه السلام خاصة في باب المعجزة معروفة وظاهرة لتكون بياناً لدوام الإكرام وتمام الحجّة، ففي الخرائج عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام أن يهودياً سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مقابل معجزات الأنبياء فقال: هذا آدم أسجد الله له ملائكته فهل فعل بمحمد شيئاً مثل هذا؟ فقال علي عليه السلام: لقد كان ذلك ولكن أسجد الله لآدم ملائكته لم يكن سجود طاعة أو أنهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن إقراراً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له، ومحمد عليه السلام أعطي ما هو أفضل من هذا، إن الله جل جلاله صلى عليه في

(١) سورة الأحزاب ٥٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ٤٣٢/٣ .

جبروته والملائكة بأجمعها، وتعبّد المؤمنين بالصلاة عليه فهذا زيادة له يا يهودي).

لقد أجمع المسلمون على أفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على آدم، وفي القرآن والسنة شواهد كثيرة ومصاديق تؤكد سيادته وتقدمه رتبة في درجات النبوة صلى الله عليه وآله وسلم.

وآدم عليه السلام الذي جعله الله عز وجل خليفة في الأرض، إتخذ له خاتماً. وكان نقشه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا الخاتم هبط معه من الجنة وهو المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

وفي الحديث دلالات منها أن أبا البشر يدعو لسيد النبيين ويشير برسالته، ويجعل موضوعها زينة له ووساماً، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (١).

ويفتح الإمام علي بن الحسين عليه السلام الدعاء الثاني من أدعية الصحيفة السجادية بقوله: الحمد لله الذي من علينا بمحمد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم دون الأمم الماضية والقرون السالفة وكان من دعائه عليه السلام بعد هذا التحميد الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبدأ الدعاء بالحمد لله وهو إبتداء وموضوع الدعاء الأول من الصحيفة مما يدل على إتصال الحمد منه عليه السلام، وعدم حصره بالدعاء الموسوم بإسمه، وأفرد عليه السلام لنعمة بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حمداً مستقلاً قائماً بذاته مما يدل على عظيم النعمة التكوينية والتشريعية في بعثته صلى الله عليه وآله وسلم فهو الطريق إلى الجنة والرافد المبارك لدوام الحياة على الأرض، وهو الإفاضة السماوية التي ينتفع منها كل إنسان وإن لم يقر بالنبوة، بها تتصل النعم وتدوم الحياة ومصداق هذا من قوله

(١) سورة الاحزاب ٤٠.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥٧

وقد اجتمعت الخصائص المباركة للنبوة والرسالة كلها بشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبأرقى معانيها ومضامينها فهو مجمع الكمالات الإنسانية وأشرف المخلوقات، وعز الإسلام والكمال الذي تتباهى به الملائكة في عبوديته وجهاده وتبليغ الرسالة.

لماذا النبوة وما هي وظائفها في الأرض، لا بد من دراسة الغايات الأساسية، لوجود الإنسان على الأرض قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١).

والنبوة نعمة وفيها بعث لحياة الإيمان ودوام العبودية وحسن الإمثال للأوامر الإلهية، والعبادة حاجة ومنفعة للناس وليس لله عز وجل، إن واجب الوجود غير محتاج والحاجة ملازمة للإمكان، وقد تكون منافع عبادة الجن والناس تتعداهم إلى الملائكة وغيرهم من خلق الله إذ يرون عبادة المؤمنين وحسن إمثالهم للأوامر الإلهية، يرون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في سعيه الحثيث لتبليغ الرسالة وتسبق أصحابه إلى القتل وإختيار الشهادة لما بينه الإسلام من فلسفتها، أن الموت ليس أمراً عديمياً بل هو مناسبة للانتقال إلى عالم الخلود وأن الدنيا مزرعة للآخرة.

ويدل على هذا الوجد أن وقصر أيام الإنسان في الحياة الدنيا بعد طموحه وسعة أمله، والموت قريب منه يهدده كل لحظة.

والنبوة نوع طريقية إلى العبادة وإرشاد الناس لمصالحهم وأحوال معاشهم وحفظ النوع الإنساني ومنع الأضرار والظلم بينهم، لذا ترى الأنبياء جميعاً يشتركون في نبذ الظلم، ويتبعون الشرع الذي يجري وفق أسس الصلاح والنفع العام.

وبالنسبة لأحوال الآخرة فإن النبوة تهدي الناس إلى الحق وتدلهم

(١) سورة الذاريات ٥٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥٨

على الأعمال الصالحة وسبيل الجنة، والمليون يقرون بالنبوة ولا عبرة بمن أنكرها كالبراهمة وهم قبيلة تنتسب إلى برهم أحد حكماء الهند القدامى، ولهم علامة ينفردون بها وهي خيوط ملونة بجمرة وصفرة يتقلدون بها تقلد السيوف وهم يقولون بالتوحيد إلا أنهم ينكرون النبوات.

وقالوا لما صح أن الله حكيم وكان من بعث رسولاً وما يدري أنه لا يصدق، فلا شك أنه متعنت عابث فوجب نفي بعث الرسل لنفي العبث والتعنت عنه تعالى، وقالوا إذا كانت الغاية من بعث الرسل هداية الناس فقد كان أولى في حكمته وأوثق أن يضطر العقول إلى الهداية والإيمان

وبعثة الأنبياء عندهم ليس من الممكن بل ممتنع في ذاته، ولكن النبوة من حكمته تعالى وهي رحمة للناس وحاجة لهم وهي رافة بالبراهمة وشبههم أيضاً لو إنتنعوا منها في الدنيا ولم يضيعوها بدعوى أثبت الواقع خلافها.

وإجتهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدعوة الناس للإسلام وجاء بالمعجزات التي تدل على صدق النبوة والحاجة إليها لإصلاح النفوس، وتجنيب الإسلام شر الكفار، والنبوة رحمة لهم بما أثبتته الواقع والوجدان فحين سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الدليل على البعثة فقال: "لما أثبتنا أن لنا خالقاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً لا يشاهده خلقه، فلا يلامسهم ولا يلامسونه، ولا يباشروهم ولا يباشرونه، ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم، وهم الأنبياء الصفوة من الخلق".

ومن الصفات التي تعتبر مؤهلات للنبوة وجوه:

الأول: العصمة من الزلل والمعصية لأن القلوب لا تنجذب إلى صاحب المعصية.

الثاني: أن يكون أفضل أهل زمانه بجميع الفضائل والمحاسن

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٥٩

والكمالات لقبح تقديم المفضول على الفاضل.

الثالث: أن يكون أميناً، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمى "الصادق الأمين".

الرابع: أن يكون شجاعاً لا تأخذه في الله لومة لائم، ونحوها من الأخلاق والصفات الحميدة.

لم تبدأ النبوة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بل هي ملازمة للإنسان في وجوده في الأرض، فقد تفضل الله سبحانه وجعل آدم عليه السلام أبا البشر نبياً إكراماً لبني الإنسان ولكي لا تنقطع حجته على الأرض ابتداءً وبقاءً.

وفي نبوة آدم عليه السلام تأكيد على عدم ترك الناس بلا نبي، فإن كانت هناك فترات بين الأنبياء فبسبب وجود بقية وتركة من الأنبياء السابقين وما يتفرع عنها، ولا بشر قبل آدم عليه السلام فاقترضت الحكمة كون آدم عليه السلام نبياً وأن يُشر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بعده لأنه سيد الأنبياء، وتدل عليه جملة من النصوص، وأن النبوة الآن موجودة عندنا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "كنت نبياً وآدم بين الماء الطين"^(١)، وأن آدم لما أذنب سأل الله بحق محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم جاءت فترات من الرسل أي أيام من السكون والانتقطاع كما في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢) تتخلل بعثة الأنبياء تكون الأرض خالية واقعاً من أشخاص الأنبياء من غير أن تخلو من أتباع الأنبياء وأهل الصلاح، وقد يكون أحياناً عدة أنبياء في فترة واحدة.

(١) مفاتيح الغيب ٤٣٢/٣.

(٢) سورة المائدة ١٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦٠

وجاء نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم على فترة من الرسل أكثر من خمسمائة سنة بين بعثته صلى الله عليه وآله وسلم وبعثة عيسى عليه السلام، فكانت نبوته حاجة للناس بعد إلحادهم وجحودهم، وتلك آية في كرامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعظيم منزلته في سلم النبوة ومراتب الفضل بتحملة مسؤولية قيادة أمم الأرض في منازل التوحيد وسبل النجاة وبلوغ المقاصد السامية في السعادة الأخروية.

لقد أثبتت الديانات القديمة عدم إمتلاكها لمقومات القيادة الدائمة للإنسانية ومعاشر الأمم نحو الصلاح والجنة، وهو من مفاهيم قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١)، تلك الآية التي يمكن أن نتلمس منها منافع نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإنسانية جميعاً، لمن آمن به ومن حاربه وعاداه وللأجيال من أبنائهم لأن الإسلام ديانة وعقيدة متكاملة وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحمل أعظم المسؤوليات ونزل عليه جبرئيل على نحو متصل وقد ذكر أن جبرئيل نزل على إبراهيم عليه السلام خمسين مرة، وعلى موسى عليه السلام أربعمائة مرة، وعلى عيسى عشرات وعلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم أربعة وعشرين ألف مرة.

وبالنسبة للأديان الأخرى السابقة، فمن الأنبياء من أخبر عنه بعض أصحابه وأتباعه ولم يستوف بعد تمام رسالته وحاربه السلطان أو وكيل السلطان، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الحاكم لم يمت إلا وقد تولى المسلمون الحكم في الأرض من بعده وياتساع في رقعة حكمهم وسلطان شريعتهم ودخول الأمم الأخرى في الإسلام، حتى أن الشعوب التي أسلمت تفتخر وتعزز وتجاهد من أجل إسلامها والذب عن عقيدتها. وحارب اليهود المسيحية، وجاء الإسلام ليجعلها بعرض واحد مع

(١) سورة الأنبياء ٢١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦١

اليهودية من حيث المعاملة والإعتبار كأهل كتاب، فلقد فرض عليهم الجزية دون غيرهم، والجزية إكرام لأهل الكتاب وتثبيت لشريعتهم وإذن سماوي لهم بالبقاء على ديانتهم، وصاروا في ذمة الإسلام والمسلمين. ولا بد من مدرسة كلامية جديدة تبين فضل الإسلام على الملل، ومنافع نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن على الأديان الأخرى وعامة الناس، ليكون عندنا باب في إعجاز القرآن هو أثره على الديانات والكتب السماوية الأخرى.

من إعجاز القرآن الغيري ما يتعلق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيتها، وهو مدرسة عقائدية ولا يمنع أن يبحث مستقلاً ومتداخلاً معه أثر نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشخص الرسول في تبليغ آيات القرآن وتثبيت أحكامه.

لقد كانت آيات الأنبياء السابقين حسية في الغالب كما في عصا موسى وناقاة صالح، ومعجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عقلية بل عقلية حسية، مما يؤكد أهلية المسلمين لحمل الرسالة وحفظها ووعي وجوهها العقلية، أي أنهم مؤهلون للتصديق بالآيات العقلية، ومن بركاتها أن الدوام كتب لها، وكانت ضياءً للإيمان وآلة لحفظ الأديان الأخرى.

"ومرة خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غار حراء فناده جبرئيل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وجعلت أصرف وجهي عنه في أفق السماء فلا أنظر في ناحية فيها إلا رأيتك كذلك" ويدل الكلام على أنه في عالم اليقظة وليس الرؤيا والمنام، وهو آية إعجازية في علوم الوحي والنبوة.

لتبدأ رحلة النبوة المباركة التي تنغشانا بالرحمة بل والفخر والإعتزاز لأن أنوارها تملأ الأكوان، وتطل على النفوس لينهل الناس جميعاً منها

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦٢

كل حسب مشربه.

لا بد أن تتم الرسالة وهذا أو انها وأنت صاحبها وليس غيرك، أنت الذي ينزل على صدرك القرآن وتحمل المسؤولية العظمى، بك سيقى القرآن محفوظاً ومعمولاً بأحكامه في الأرض، وكذلك قضى الله وجرت مشيئته أن ينبعث نور النبوة من جديد مشرقاً على عموم الأرض، منطلقاً من هضاب مكة وأوديتها ليعلن رسوخه ونفاذ أحكامه وإمتلاء النفوس رضا بشريعته.

إنه العيد الاكبر، عيد النبوة والرسالة الخالدة، وهو عيد الشكر، الذي يلمى علينا الشكر القولي والفعلي، والعلماء وطلبة العلم الذين إختصوا بنعمة وشرف وكرامة طلب العلم والسعي في تبليغ أحكام الشريعة يجب أن يتجسد شكرهم بما يتناسب ووظائفهم العلمية بإبراز جوانب العظمة والفضل الإلهي في هذه المناسبة بالسعي إلى الإقتداء على نحو العموم الإستغراقي العام بسيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد ذكر المجلسي في بحار الأنوار: أن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات ما لم يكن لأحد من الأنبياء، وقد بلغت أربعة آلاف وأربعمائة وأربعين معجزة، وأنها تنقسم إلى أربعة أنواع. والنوع الأول كان قبل ميلاده.

الثاني بعد ميلاده.

الثالث بعد بعثته.

الرابع بعد وفاته.

وهو إحصاء لطيف ويمكن أن يكون التقسيم وتعدد الأنواع أكثر وأبين بتقسيم إستقرائي أكثر تفصيلاً، مع إضافة نوع عند ميلاده وما رافقه من آيات إعجازية وتعدد أبواب وموضوعات الإعجاز.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦٣

إن يوم ولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مناسبة كريمة للتدبير والإلتعاض وإستحضار لزوم الوحدة والأخوة بين المسلمين بعد الإجتماع العبادي في كل سنة مرة بفريضة الحج لتكون شاهداً عملياً على حقيقة الوحدة عبر المناسك المشتركة التي يؤديها جميع الحجاج من غير إختلاف أو تباين.

إنها أرقى حضارة جاءت للبشرية بالشواهد الحسية والعقلية والتكامل في الأحكام والفرائض، بدأت بنزول الوحي وآيات القرآن، فعندما نزل جبرئيل بآيات القرآن نجوماً تغير وجه الأرض ومن عليها، ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلة النبوة المباركة ذات المرتبة العليا في سلم الرسالات، والمتضمنة للسنن والشرائع لتشق طريقها سريعاً إلى قلوب الصالحين، يقيض الله عز وجل لها جنوداً مهاجرين وأنصاراً، وكان جبرئيل يقول سلام عليك يا محمد، أنت صاحب لواء التوحيد.

وبالبعثة النبوية إنفتحت أبواب الرحمة على أهل الأرض وحق القول على المشركين والكافرين، ثلاث وعشرون سنة في الدنيا مدة البعثة لا تُعد كثيرة فهي بالذات والقياس الزماني قاصرة عن تحقيق الاماني الشخصية المحدودة، ولكنها بآية من الله تعالى رسخت أعظم عقيدة في الأرض، ومنها ينبثق القول: "حلال محمد حلال حتى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة".

ومن صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإضافة إلى عنصر العصمة الذي تقدم الحديث عنه، أن يكون أفضل أهل زمانه بجميع الفضائل والمحاسن والكمالات، والنبوة وحدها عنصر ترجيح وتفضيل بفضله تعالى ، وأن يكون أميناً كي تطمئن القلوب لما يأتي به من عند الله.

وأن يكون شجاعاً لا تأخذه في الله لومة لائم ونحو ذلك من الأخلاق والصفات الحميدة.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦٤

لقد إختار الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم للنبوة في عالم الذر، أي أن هذا الإختيار يدل في مفهومه على الإعداد وحسن المقدمات، فلم يتولد من سفاح صعوداً إلى بدايات النكاح والزواج، ومن أيام آدم عليه السلام.

ومن إعجاز القرآن الغيري ما يتعلق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيتها، وهو مدرسة عقائدية ولا يمنع أن يبحث مستقلاً ومعه أثر نبوته، وشخص الرسول في تبليغ آيات القرآن وتثبيت أحكامه للتداخل والمفاعلة وتبادل التأثير بينهما.

إن كون معجزة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عقلية يدل على أهلية المسلمين على تحمل الرسالة وحفظها بعد وعي وجوها العقلية، أي أنهم مؤهلون للتصديق بالآيات العقلية، وكان من بركاتها أن كتب لها الدوام وكانت ضياء للإيمان وآلة لحفظ الأديان الأخرى.

ونحن لا ننكر فضل الأنبياء الآخرين في التمهيد والتبشير بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن في الديانات السماوية الأخرى شر بل هي خير محض، إنما جاء التحريف بالعرض ولا يلحق بالديانات. لقد أكرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء من قبله في قوله وفعله، وجاء القرآن بالإيمان بهم جميعاً على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي.

ومما أجمع عليه المسلمون أن السنة النبوية هي المصدر الثاني لتفسير القرآن مما يدل على عظيم منزلتها في التشريع الإسلامي وتأريخ الأمة العقائدي والأخلاقي والسياسي، ويترشح عنه بالضرورة لزوم إتفاق المسلمين، ولو على نحو الإجمال في كثير من مواضعها.

قال تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * أَزْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ ۙ

يُوحَى ﴿^(١)﴾ وعن عائشة لما سألتها هشام بن حكيم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت: "كان خلقه القرآن"^(٢)، أي أن سيرته وعمله مستوحى من القرآن وترجمة عملية لآيات القرآن، وهذا يؤكد إيجاد علم جديد هو إرجاع السنة إلى القرآن.

وفي خبر أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام قال: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله ثم قال في حديثه: "نهى الله عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال، فقالوا له أين ذلك في كتاب الله يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال قوله تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣) وقال ﴿وَلَا تَوَتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾^(٤) وقال ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ أَنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾^(٥).

لقد أدب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته وأصحابه على اللجوء إلى القرآن وإعتماده في القول والعمل كيف لا، وفيه تبيان كل شيء، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه"^(٦)، أنه صلى الله عليه وآله وسلم يحذر وينهى عن الإعراض عن السنة، ويدعو للأخذ منها وإعتبارها.

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) الكشاف ٧/١١٥.

(٣) سورة آل عمران ١١٤.

(٤) سورة النساء ٥.

(٥) سورة المائدة ١٠١.

(٦) تفسير القرطبي ٧٢/١.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦٦

وقد أمر الله تعالى بالصلاة وجاء الأمر في القرآن وبينت السنة أوقاتها وعدد فرائضها وركعاتها وأحكامها، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "صلوا كما رأيتموني أصلي" (١).

وورد وجوب الحج في القرآن مع بيان المناسك وتفصيلها لمنع الاختلاف والفرقة والخصومة ولتثبيت المناسك إلى يوم القيامة بالقرآن والسنة النبوية المباركة وتوارث المسلمين لها بالسيرة القطعية، كما قيد المطلق وخصص العام، وفي صحيحة زرارة أنه قال للإمام جعفر الصادق عليه السلام: "جعلني الله فداك، أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال عليه السلام: يا زرارة بيت حج إليه الملائكة قبل آدم بألفي عام تريد أن تفتي مسأله في أربعين عاماً".

وقوله تعالى ﴿ قُلْ أَنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَنَنْوُ كَانِ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٢).

يبين إلتقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الناس بأنه مخلوق وبشر مثلهم ليس بملك، ولكنه إمتاز عنهم بإختياره للنبوة والتبليغ. وفيها تأديب للمسلمين ومنع تأليه مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأصحابه لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم أنما أنا عبد الله (٣)، لذا لم يثن عليه المسلمون إلا بما هو حق.

ولكنه خشي الإفتتان وهو رحمة المنان وأظهر التواضع والعرفان، وهذا ما تدل عليه السيرة والوجدان وبقي سلوكاً لعامة المسلمين على مر الأزمان، يقبل دعوة المسكين ويعود المريض ويداعب الأطفال، ويقوم

(١) مفاتيح الغيب ١/١٧٠.

(٢) سورة الكهف ١١٠.

(٣) الدر المشور ٣/٣٠٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٦٧

بحاجة الفقير والضعيف، أثر الفقر والمشقة والجهد على السلطان لتكون حياته مصداقاً، وشاهداً يومياً على صدق نبوته، ووثيقة تاريخية تعلم قادة المسلمين مناهج الصلاح والتواضع.

ومن المناسب أن يكون علم الرجال معتبراً في علم التفسير فالأحاديث الواردة في أبواب الفقه تحقق رجالياً تحقيقاً وثائقياً وواقعياً أما في باب التفسير فإنها تذكر إجمالاً في الغالب من غير إشارة إلى صحتها أو ضعفها، وحتى الذي لا يقول بجبر المشهور للحديث الضعيف السند ولا يعمل بقاعدة التسامح في أدلة السنن تراه في باب التفسير يتسامح في القواعد الرجالية وهو أمر حسن لإعتبار إسقاط الأحاديث الموضوعية من كتب المسلمين المعتبرة، ويمكن القول أن باب التفسير أعم من أحكام الفقه وأنه يمكن التسامح فيما يخص المواعظ والقصص ونحوها وهذا صحيح، ولا يتعارض مع علم الرجال بنظر الإعتبار ولو على الموجبة الجزئية، وبيان نوع الحديث وهل هو من الصحيح أو الحسن أو الموثق أو الضعيف. وهناك قولان:

الأول: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين جميع ما في القرآن من معاني وألفاظ، ومن القائلين به ابن تيمية، ومما استدلوا به أن الصحابة إذا تعلموا بعض آيات من القرآن، وفي خبر عشرة لم يتجاوزوها حتى يعلموها ويعملوا بها، فتعلموا القرآن والعلم والعمل به.

الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يبين إلا الشيء اليسير جداً ولم يفسر إلا آيات قليلة ومما استدلوا به حديث عائشة أنها قالت: "ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات لقد علمه إياهن جبرئيل" (١)، يحمل على التفسير بالمعنى الأخص.

والحق أنه لا إفراط ولا تفريط بل منزلة بين المنزلتين، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضع القواعد الكلية والمنهجية السليمة والضوابط

(١) افتقان في علوم القرآن/١/٤٧٣ .

لم تكن الأرض مكاناً لخلق آدم فإنه خلق ونفخت فيه الروح في الجنة كما هو ظاهر الآيات القرآنية، ولم يهبط إلى الأرض إلا بعد أن أكل من الشجرة التي نهي عن الإقتراب والإكل منها، وفي جعل الجنة موضعاً لخلق من يسكن في الأرض نوع تشريف للأرض وللإنسان معاً، فإكرام الإنسان لم يبدأ بنفخ الروح فيه بل منذ تكوينه وخلقها، ولم تنحصر تلك النعمة بالخلق بل تغشت حال السكن والإقامة وأن أصبحت غير دائمة.

قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١).

وتدل هذه الآية على ما لآدم عليه السلام من المنزلة الرفيعة ليس فقط لشخصه وسيرته فهو نبي، ولكن بخلقه وتفضله تعالى بإنزاله من الجنة مع سعة في العيش وهو أيضاً نوع إكرام إضافي يتصف بالاتصال والدوام، وحق الإختيار في الإكل والمكان آية ولطف منه تعالى .

والظاهر أن قوله تعالى ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾^(٢) أمر بإباحة، وموضوع خال من المشقة والتكليف، وفسر الإقتراب هنا بالإكل، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾^(٣) يعني لا تأكلا منها.

ولا يمنع من حمل الآية على الدنو منها بإعتبار أن الإقتراب مقدمة عقلية للأكل، أو أن الإقتراب يسهل الإفتتان ويزيل الحواجز النفسية عن الأكل ويهيئ لإبليس فرصة للإغواء والإغراء. ويجد المتبع للآيات والنصوص أن الإنسان يمتلك واقية وحرزاً حينما

(١) سورة البقرة ٣٥.

(٢) سورة البقرة ٣٥.

(٣) سورة الاعراف ١٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٠

يكون مبتعداً عن الشبهات ومواطن الشك ومظان التهمة، وعندما يكون قريباً منها ينشط حيثئذ الشيطان بمعاونة النفس الإمارة للسوء. وأختلف في الشجرة التي أكل منها آدم على أكثر من ثمانية أقوال، ولغير المسلمين فيها قول أيضاً، وهل كان النهي تحريماً او تنزيهاً وصلة ذلك بعصمة الأنبياء.

إن أكل آدم من الشجرة أمر لم يتم إلا بعلم الله تعالى ومشيتته وهو قادر عالم مرید، عالم بما يشتمله الفعل من المصلحة الداعية إلى إيجاده، وبما يخص قوله في وقت دون آخر وعلمه تعالى حضوري ذاتي. والعلم الحضوري هو ما لا يتوقف على آلة، وهو حضور الأشياء عند العالم وجعلوا من العلم الحضوري علمنا بوجودنا باعتبار أنه لا يستدعي صورة والمستدعي لها هو العلم الحسولي وهو الذي يتوقف على آلة وحصول صور الأشياء في القوى المدركة.

ولكن نحن بحاجة إلى تقسيم للعلم ينفرد في فرع منه علمه تعالى ، فهو تعالى ينفرد بعلمه بجميع الجواهر والأعراض وحضور الموجود والمعدوم منها عنده سبحانه، أي كل موجود سوى الله من الممكنات وما يطلق عليه العالم.

وهي ظاهرة عنده تعالى وعلمه قديم لا يتصف بكونه ضرورياً ولا كسبياً، والعلوم المحدثه هي علوم الخلق من الناس والبهائم والملائكة والجن وغيرهم من الحيوانات ومع أن علمه تعالى لم يكن عن حس ولا عن فكر ونظر فإن الأشياء جميعها حاضرة عنده غير غائبة عنه.

لقد قالوا عليهم السلام بالمنزلة بين المنزلتين، فهو تعالى لم يحل بين آدم وزوجته وبين الأكل من الشجرة بالجبر والقدرة لذلك لا يعني اكلهما منها أن مشيتهما غلبت مشيته تعالى لأنه لا يوصف بالعجز، ولكنه سبحانه منعهما بالنهي والزجر ضمن باب التكليف ومسؤولية ما رزقهما من العقل والتمييز، ولإقامة الحجة في فتح باب الإبتلاء لتكون الحياة الدنيا طريقاً إلى

الجنة والخلود فيها.

وغادر آدم الجنة نازلاً إلى الأرض، وظاهر الآيات القرآنية يبين أن ذلك النزول كان عقوبة ولكنه يدل على أن آدم لم يخلق إلا ليكون خليفة في الأرض، وأنها موضعه ولا تصلح إلا له، والعيش في الأرض بالطاعة خير له من البقاء في الجنة مع الخطيئة، أي أن المشاق مع التكليف ذات عاقبة كريمة، والملائكة بقوا يتنعمون بالجنة لأنهم لم يخطئوا ولكنهم أيضاً ليس عندهم ما عند الإنسان من أسباب التكليف، وما فيه من الخصوصية والصراع بين العقل والشهوة فالتكليف ثمرات أخروية عظيمة قد لا ينالها الملائكة أنفسهم.

من هذا يمكن القول أن التكليف لطف فألله تعالى حينما كلف الناس أعد للمطيعين منهم الثواب الجزيل، وآدم من أئمة وسادة أهل الطاعة فهو نبي. لقد كان هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض بداية التكليف ليس الشخصي بل التكليف النوعي والذي يكون على نحو العموم الإستغراقي، ومن وجوه التكليف وجود إبليس قاعداً لهم على الصراط.

فهل كان الهبوط بداية صلة آدم بالأرض، الجواب: لا، فآدم خلق من أديم الأرض وعلى ذلك الآيات والنصوص المتواترة التي تؤكد خلقه من الأرض، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: أن القبضة التي قبضها الله عز وجل من الطين الذي خلق منها آدم أرسل إليها جبرائيل عليه السلام أن يقبضها فقالت الأرض: أعوذ بالله أن تأخذ مني شيئاً فرجع إلى ربه، وقال يا رب تعوذت بك مني، فأرسل إليها إسرافيل فقالت مثل ذلك، فأرسل إليها ميكائيل فقالت مثل ذلك، فأرسل إليها ملك الموت فتعوذت بالله أن يأخذ منها شيئاً، فقال ملك الموت: وأني أعوذ بالله أن أرجع إليه حتى أقبض منك.

وتظهر الرواية عزم ملك الموت على إنجاز ما أمره الله تعالى به وإعطاءه الأولوية، ولكن ذلك لا يعني قصور الملائكة الذين رجعوا بسبب إستعادة

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٢

الأرض، وورد في الرواية أن أمر الله تعالى لملك الموت كان على وجه الحتم أي أن أمر الله تعالى إلى من تقدمه من الملائكة لم يكن على وجه الحتم والوجوب، وروي قريب منه عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود.

وفي اسم آدم وإشتقاقه وجوه:

١. أنه من صفات الأرض وأنه خلق من أدمة الأرض ولونها، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن آدم لم سمي آدم؟ قال: لأنه خلق من طين الأرض واديمها".

٢. أنه من الأدم بمعنى الإلفة والإتفاق.

٣. أنه إسم سرياني أصله آدام.

٤. قال الجواليقي: أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة آدم وصالح

وشعيب ومحمد.

ولا مانع من إجتماع عدة أسباب وعلل في تسمية آدم ومنها ما يتعلق بالأرض فوجود آدم في الأرض عودة الفرع إلى الأصل ولكن بإضافة تشريفية وهي النفخ فيه من روحه تعالى ، كما أن خلق آدم لم يكن بعيداً زماناً عن خلق الأرض، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: أن الله خلق الأرض يوم الأحد والأثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك أربعة أيام، وخلق الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم.

ذلك التشريف والنفخ فيه من روحه تعالى ملازم لكلام الله معه وذكر الطبري أنه كان مما أنزل الله تعالى على آدم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير. وهذا الخبر بغض النظر عن ضعف سنده يتضمن تشريفاً مركباً لآدم عليه السلام أن آدم خلق يوم الجمعة، وأنه أفرد بالذكر من بين المخلوقات وإلا فإن كثيراً من المخلوقات لم يرد ذكرها في الحديث.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٣

قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١) والخطاب وإن كان موجهاً إلى آدم وحواء وإبليس فإنه من خلال آدم إلى ولد آدم جميعاً لذا نقول بأن الناس أكثر من بني آدم بإضافة آدم وحواء. وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله تبارك وتعالى لما أهبط آدم عليه السلام أمره بالحرث والزرع وطرح عليه غرساً من غروس الجنة فاعطاه النخل والعنب والزيتون والرمان وغرسها لتكون لعقبه وذريته فأكل هو من ثمارها، وتلك مقدمة عقلية وحاجة غريزية لينشغل الإنسان في عبادته تعالى، وتكون مناسبة للشكر والتدبر في أصل الخلق والتكوين. وهذا وجه من وجوه عناء آدم وقره في عالم الأرض وحاجته إلى التدبير والسعي والتأمل بضعف الإنسان وعجزه وقصر مدته في الأرض، ولكي يكون ذلك الإحساس مقدمة ومناسبة وفرصة لذكر الله تعالى. إن وجود كتاب الله في الأرض هو الأمانة العظمى والتكليف فيها على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي وخطاب عام ينحل بعدد أهل الأرض وهو موضوع للإكرام في الآخرة والنجاة من العذاب بحفظ هذه الأمانة وصيانتها وتعاهدتها بالالتزام بما جاء به القرآن من الأحكام.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆ سفر الدعاء في القرآن

١- يرد الدعاء بمعنى الإستغاثة وقد يكون عبادة، والسفر هو الكتاب وقيل هو الكتاب الكبير والجمع أسفار، والدعاء كتاب كبير لا يحيط بموضوعه مجلد وبحث، من وجوه:
الأول: كثرة أبواب الدعاء.
الثاني: ما يتفرع عنه من المسائل.

(١) سورة البقرة ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٤

الثالث: ما يلحق به.

الرابع: ما يترتب عليه.

الخامس: ما يترشح عن تركه من الأضرار.

٢- وفي حديث عرفة: "أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير"^(١)، لأن التهليل والتحميد ذكر لله عز وجل وهو بمنزلة الدعاء وفيه ثواب الله تعالى .

٣- والذكر وقراءة القرآن باب لقضاء الحوائج وأن لم يسألها العبد، أي من يشتغل بطاعة الله وذكره ويتكفل الله عز وجل حاجته.

قوله تعالى ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) وبداية القرآن بقوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أن المؤمن يبدأ حياته بالحمد لله لتنتهي في الجنة بالحمد لله بل إن أول ما نطق به الإنسان هو كلمة الحمد لله مما يدل على موضوعية الحمد لله في الدعاء، وفي حياة الأنسان.

٤- الدعاء الرغبة إلى الله، والتوجه إليه وسؤاله، إنه نوع إنقطاع والتجاء إليه تعالى فيبركة الدعاء تنغشانا أحكام الإسلام وفي دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾^(٣) لتكون سنة لإبراهيم في الدعاء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وحث لهم على أن يكون عملهم مرآة لدعاء الأنبياء.

٥- الدعاء سؤال المراد من الغير فهو فوق الطلب في الرتبة ورجاء

(١) الدر المنثور ١/٤٥٦ .

(٢) سورة يونس ١٠.

(٣) سورة البقرة ١٢٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٥

القدرة، وفي الإقتصاد قال: الكلام إذا صدر ممن يفهم مع من يفهم، فيما يفهم وكان فوقه سمي دعاء، وأختص في الإصطلاح بالتوجه إلى الله تعالى في السؤال والحاجة إليه تعالى.

٦- لا يتعلق الدعاء بالشخص خاصة بل يشمل غيره ومن بعده ينتفع منه، كذا تحفظ الأعقاب بدعاء الآباء وصالحاتهم فمن أراد أن يحفظ في ذريته فليشتغل بالدعاء، فمنافع الدعاء لا تنحصر بالداعي ومن حوله بل يبقى أثره ونفعه يفيض على أبنائه من بعده كما في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسَخِّرَ لَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾^(١). فقد حفظ الأبناء ومالهم بأحد آبائهم إذ كان يتصف بالصلاح، فالآية تظهر الدعاء كميراث وتركة مباركة وتحرس تركة المال.

٧- قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢)، حث على الدعاء ولما فيه منفعة الناس وهو سلاح من إليه أناب، فبالدعاء تتخلص النفوس من أدران الرذيلة، وترتقي في مراتب الكمالات الإنسانية.

٨- من منافع الدعاء في الآخرة أنه نور وكنز وعمل صالح، ويدل بالدلالة التضمنية على الإقرار بالربوبية والإعتراف بالحاجة والنقص من منازل الرق والعبودية.

٩- منزلة الدعاء في حياة الأنبياء فهو السلاح المبارك الذي جعله الله بأيديهم، وحينما قال الله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ جعل الله المسلمين ورثة الأنبياء وآتاهم ما أتى الأنبياء من سلاح وهو الدعاء، والنبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوجه بالدعاء في ساعات الشدة والرخاء

(١) سورة الكهف ٨٢.

(٢) سورة غافر ٦٠.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٦

ويدعو بالرخاء وفي ذلك مدرسة أخلاقية وعرفانية وتأديب للمسلمين
إنتفعوا منه بالذات وياتخاذ أسوة.

١٠- سيقى الدعاء ذخيرة السماء في الأرض كما نفخ الله عز وجل في
آدم من روحه كذلك لم يترك الإنسان مجرداً من السلاح، سلاحه معه
دائماً ألا وهو الدعاء، فهل من شيء أكثر قوة وحصانة وفتكاً منه.

١١- الدعاء في القرآن نموذج لمدرسة النبوة ودعوة للإقتداء بالأنبياء
والرسل والسير على نهجهم فهو الملاذ والمفرج والملجأ.

لقد أمرنا الله سبحانه أن نأتيه سائلين مضطرين محتاجين ولا بد من
الإستجابة والرد، وهو سبحانه منزه عن القبيح فإذا وعد وفى.

١٢- أنك تحتاج دعاء غيرك لاسيما الذي ظلمته وأسأت اليه والذي
أنعمت إليه، الإمام علي بن الحسين عليه السلام كان يعتق عبيده في شهر رمضان
ويطلب منهم أن يقولوا اللهم أعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا،
وأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق، فيقولون ذلك، ويقول بعدهم
راجياً الإستجابة اللهم آمين رب العالمين، اذهبوا فقد عفوت عنكم
واعتقت رقابكم للعبو عني.

١٣- قيل لسفيان الثوري أدع الله فقال: (إن ترك الذنوب هو الدعاء)^(١).
الدعاء^(١).

ويذكر هذا القول من غير تحقيق وتعليق وكأنه من المسلمات، فلذا
نقف عنده ونقول هذا خلف، ترك الذنوب وإن كان أمراً وجودياً حسناً لما
فيه من القصد والعزم ولكنه غير الدعاء، فإن موضوع الدعاء مختلف فهو
نوع عبادة ومصاديق العبادة متعددة، فترك الذنوب إحتراز وإمتناع ذاتي،
أما الدعاء فهو إتصال إختياري بالباري عز وجل من غير واسطة أو فاصل
زمانى.

(١) الكشاف ٦/١٢٩ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٧

ومن الآيات في الدعاء أنه خلاف للنواميس لا ينقطع حتى بعد مغادرة الإنسان للدنيا مع أن الآخرة دار حساب بلا عمل، ولا تعارض بينهما لأن دعاء الكافرين حينئذ لا يسمع وهم حينما عرفوا هذه الحقيقة ويأسوا من الإستجابة ضجوا وتوسلوا لعدم وجود رصيد في الدعاء لهم في الدنيا ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١)، وإحتاج أهل النار الواسطة، وقال الذين في النار لخزنة جهنم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَىٰ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

١٤- الدعاء سفر روعي يصعد بالعبد إلى عالم الملكوت فهو عالم خاص له قواعده وآدابه وأحكامه، وللدعاء آداب: المدحة ثم الثناء ثم الإقرار بالذنب ثم المسألة.

١٥- ولا تعارض بين ما يستحدث بسبب الدعاء وبين القاعدة الكونية أن الله جعل الأشياء بأسبابها، فالدعاء سبب ملكوتي يحو الله بسببه ما يشاء وهو يمتلك مقومات السببية على نحو الإستقلال كما أنه سعي وقول وعمل.

١٦- الإنتفاع من الغير وغبطته لا حسده والدعاء بالأكثر ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً أَنْكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٣)، ويمكن الإستدلال بها بأن طريق المسلمين هو الإنتفاع الأشمل والأكثر من دعاء الأنبياء فقد كان في قصصهم عبرة وموعظة، الدعاء يفوق ويتعدى بإفاضاته القواعد والنواميس المحسوسة والمقدرة من قبل البشر، لقد إنتفع زكريا من المناسبة وإتحاذاها فرصة للزيادة، واللام حرف يفيد البعد، لذا قيل بأن

(١) سورة غافر ٥٠.

(٢) سورة غافر ٤٩.

(٣) سورة آل عمران ٣٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٨

هنالك تستعمل للمكان خاصة كما أن الكاف تسمى كاف الخطاب ويحتمل أن يكون مكاناً مباركاً لأن عيسى عليه السلام كان فيه فهو من الأماكن التي هي مظان الإستجابة.

١٧- يستحب للداعي أن يلبس في يده خاتماً من العقيق والفيروزج لما ورد من المزية الخاصة لهما فالعقيق في رواية هو أول من آمن بالله من الأحجار، وعن الإمام الصادق عليه السلام: "قال ما رفعت كف إلى الله عز وجل أحب إليه من كف فيها عقيق".

١٨- التضرع ومشاركة الجوارح في الدعاء وذلك برفع اليد أثناءه، وزيادة المباني تفيد زيادة المعاني مع التضرع بإعتباره كيفية نفسانية، خضوعاً وخشوعاً ظاهراً بين طيات كلمات الدعاء ويمنع من إنشغال القلب أثناءه بالدنيا، ولا غرابة في ذلك فمع الخشوع لله عز وجل يأتي العز أو أن التضرع يضفي على الدعاء قدسية خاصة ويكون مقوماً لما يعنيه من معاني الصدق والعبودية والتوسل والإستعانة ومضامين اللجوء إلى الله تعالى.

١٩- وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرفع يديه إذا إبتهل ودعا كما يستطعم المسكين ليكون تأديباً للمسلمين وتعليماً لهم في مسالك الدعاء.

٢٠- مواصلة الدعاء وإتصاله في ساعات الليل والنهار كجزء من المواظبة والإنشغال بالدعاء سلاحاً عسى أن يتفق ذلك مع ساعة مباركة، والإنشغال بالدعاء صفة الأنبياء وسجية الأولياء وفي قوله تعالى ﴿ أَنْ يُرَاهِمَ لَحِيمَ آوَاهُ مُنِيبٌ ﴾ (١) قال الإمام الصادق عليه السلام: الأواه هو الدعاء، وكان أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً دعاءً.

٢١- إتخاذ الدعاء سلاحاً ووسيلة لقضاء الحوائج، ومدداً دائماً يساهم في التخفيف عن النفس والبدن ويختزل المراحل ويقرب البعيد، ويمهد

(١) سورة هود ٧٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٧٩

السبيل، ويهون العواقب.

٢٢- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدر أرزاقكم؟ قالوا: بلى، قال: تدعون ربكم بالليل والنهار فإن سلاح المؤمن الدعاء".

٢٣- الدعاء باب لمحو الذنوب ومغفرتها لما فيه من التسليم لله عز وجل واللجوء إليه وإلقرار بربوبيته.

٢٤- إظهار حال الذل والخضوع والمسكنة عند الدعاء خاصة وأن الإنسان وجد في مقام الحاجة وسؤال الرحمة والفضل الإلهي ورجاء القرب من منازل العفو والمغفرة، فالأصل وجوب إظهار المسكنة أزاء مقام الربوبية في مطلق الأحوال، ولكن طرو الحاجة واللجوء إلى الدعاء يجعله أكثر ضرورة، وعوناً في سبيل إنجاز الحاجة وقضائها.

٢٥- في رسالة علي بن يقطين عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "أوحى الله إلى موسى أتدري لم إصطفيتك بكلامي دون خلقي، قال: يارب ولم ذلك، قال: فأوحى الله عز وجل إليه يا موسى أني قلبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذل لي نفساً منك يا موسى إنك إذا صليت وضعت خديك على التراب".

والحديث دعوة للمسلمين لفعل ما كان عليه موسى عليه السلام وعلة لما له من عظيم المنزلة، وفيه موعظة وحث لهم للإقتداء به لأنه على نحو العلة لا الحكمة، لذا ورد في النصوص إستحباب التعفير ووضع الخد على الأرض لاسيما في سجود الشكر وهو مستحب عند تجدد نعمة أو دفع بلاء، أو إستدامة فضل سابق منه تعالى وعند تأدية فريضة أو نافلة أو فعل خير أو معروف أو إصلاح بين إثنين ويكفي فيه مجرد وضع الجبهة على الأرض مع النية ولا يشترط فيه الذكر ولكن يستحب أن يقول شكراً لله أو عفواً عفواً وهو نوع دعاء، ويتحقق بسجدة واحدة ويستحب مرتين، ويتحقق التعدد

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٠

بالفصل بينهما بتعفير الخدين أو الجبين.

وفي خبر يونس بن عمار عن الصادق عليه السلام إذا ذكر أحدكم نعمة الله عز وجل فليضع خده على التراب شكراً لله... الحديث، ويقدم الخد الأيمن على الأيسر ثم يضع الجبهة ثانياً، ويستحب فيه إفتراش الذراعين مع الصاق الجؤجؤ والصدر والبطن بالأرض، ويستحب أن يمسح موضع سجوده بيده ثم إمرارها على وجهه ومقاديم بدنه.

٢٦- من آداب الدعاء طرد الملل واجتناب الضجر ومنعه من الإلتصاق بالدعاء موضوعاً ومحمولاً ومسألة وقصداً، فكما يضر الرياء بالعبادة فإن الضجر والملل يكونان حاجباً دون الإستجابة، وقد روي عن أنس بن مالك أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما فتح لأحد باب دعاء إلا فتح الله له فيه باب إجابة فإذا فتح لأحدكم باب دعاء فليجتهدن فإن الله لا يمل حتى تملوا"، أي أنه تعالى يستجيب الدعاء إلا في حال ضجركم وسأمكم وتكاسلكم لما في الضجر والسأم من ضعف اليقين وقلة الأمل والعودة عن السؤال والتضرع.

٢٧- يستحب مسح الوجه والرأس والصدر باليدين عند الإلتهاة من الدعاء باستثناء الدعاء والقنوت في الفريضة ليس فقط أنه رمز للإستجابة بل على الحس والتقدير معاً بأن الله عز وجل لا يرد اليدين فارغتين، وفيه رضا وقبول وشكر لعطاياه سبحانه وأن لم نعلم نوع ومقدار ذلك العطاء، وعدم العلم غير مخل به، وقد يكون بسبب كبره وعظمة الفصل والعطاء وعدم إمكان استيعابه بأوهامنا وحسابنا.

٢٨- لا ينحصر الدعاء بالحاجة بل حتى بعد إنقضائها كما في قول إبراهيم ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾^(١)، وجاء سؤاله ودعاؤه بعد رفع القواعد من البيت.

(١) سورة البقرة ١٢٧.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨١

٢٩- آتات الزمان وأن كانت أفراداً طولية متساوية حتى قيل ينقسم الزمان إلى أزمنة كثيرة لا تقبل القسمة لقصرها، كما عرف بأنه نسبة المتغير إلى المتغير وأن السرمد نسبة الثابت إلى الثابت، فالسرمد مستمر الوجود بين الأزل والأبد، والأزلي هو المصاحب لمجموع الأزمنة المحققة والمقدرة بالنسبة للماضي، أما الباقي فهو المستمر الموجود في جميع الأزمنة، والأبدي هو المصاحب لجميع الأزمنة محققة ومقدرة بالنسبة إلى المستقبل، والسرمدي يعمها جميعاً، أي أنه لا بداية ولا نهاية له، والزمان أخص إذ أنه يعني مقدار حركة العالم من الأيام والليالي والشهور والسنين والقرون، وحياة وعمر الإنسان من الزمان منقطع.

إلا أن فيها تفاوت من حيث الأعراض كضياء النهار وظلام الليل والتقسيم النهاري من صبح وظهر وغروب، والتقسيم الليلي وذلك كله آيات من الله تعالى ودعوة للتفكر في الخلق، وحث على العبادة وأداء الفرائض، وتفضل سبحانه وجعل أوقاتاً معينة منها يقبل فيها الدعاء سواء على نحو الوقت الراتب المحدد في كل يوم أو في كل أسبوع أو عند حدوث حادثة إذ أن الزمان معلوم الآنية مجهول الماهية، والدعاء آلة لإستثمار الوقت والله عز وجل جعل الأوقات خزائن لفضله ومناسبة لنزول بركاته وجعل في بعضها خصوصية معينة وأسراراً ملكوتية تتعلق بحركات الأفلاك ومقاديرها، وصحيح أن تلك الأوقات أخفاها الله عز وجل في ساعات الليل والنهار كما أخفى ليلة القدر بين الليالي فقد تفضل أيضاً ببعض الشواهد، إذ وردت بعض النصوص في تحديد ليلة القدر وتقريب الدعاء من أهمها وأشرفها أوقات الصلوات اليومية الخمسة.

فبالإسناد عن الصادق عليه السلام: "ساعات الليل إثنتا عشرة ساعة وساعات النهار إثنتا عشرة ساعة، وأفضل ساعات الليل والنهار أوقات الصلاة، ثم قال عليه السلام: أنه إذا زالت الشمس فتحت أبواب السماء وهبت الرياح ونظر الله عز وجل إلى خلقه وأني لأحب أن يصعد

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٢

لي عند ذلك إلى السماء عمل صالح، ثم قال: عليكم بالدعاء في أدبار الصلوات فإنه مستجاب".

وفي الدعاء نكتة عرضية وهي أن تقسيم الفلكيين الحالي لساعات الليل والنهار مأخوذ من النظام الإسلامي المبني على تحديد ساعات الصلاة وفرائضها اليومية الخمسة، بالإضافة إلى الفضل الإلهي في إمتداد بركة الصلاة إلى ما بعدها لذا جاءت النصوص باستحباب التعقيب.

٣٠- غالباً ما تكون للفعل مقدمة، وتلك المقدمة قد تكون شرطاً فتكون حينئذ واجبة لوجوب المقدمة لوجوب ذبيها كما في الوضوء كمقدمة واجبة للصلاة، وقد تكون المقدمة صفة كمال متقدمة وباب تقريب واستحباب ومن ذلك تقديم الصدقة عند الشروع بالدعاء، إذ أنها باب لنزول الرحمة والتقرب إلى الله تعالى ونوع رأفة وإحسان بين الناس إبتغاء رحمته تعالى ورجاء فضله، وبالإسناد عن معاوية بن عمار عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "كان إذا طلب حاجة طلبها عند زوال الشمس، فإذا أراد ذلك قدم شيئاً فتصدق به وشم شيئاً من طيب وراح إلى المسجد ودعا في حاجته بما شاء الله".

٣١- من فلسفة الدعاء أن منافعه لا تنحصر بالداعي وزمان الدعوة بل إنها تدخر وتحفظ ويتعاهدها الله لتبرز بآثار مباركة على الذرية والأهل، وفي الحديث: "أنا دعوة أبي إبراهيم"^(١).

٣٢- إسباغ الوضوء أي الإتيان به تاماً كاملاً شاملاً لجميع مواضعه استعداداً للدعاء وحسن أدب في ساعة الوقوف بين يدي الله عز وجل وسؤاله، وقد ورد استحباب الوضوء للحاجة مطلقاً، وفي الوسائل عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "إنني لأعجب ممن يأخذ في حاجة وهو على وضوء كيف لا تقضى حاجته".

(١) مجمع البيان ١/٣٥٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٣

٣٣- التضرع إلى الله وسؤاله بأسمائه الحسنى لما فيها من الثناء على الله عز وجل وتعظيمه، كمقدمة مباركة للدعاء تتضمن الإقرار بالوحدانية وإنحصار الإستعانة والإستغاثة به تعالى، بالإسناد عن عبد السلام بن صالح الهروي عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لله عز وجل تسعة وتسعون إسماً من دعا الله بها استجيب له ومن أحصاها دخل الجنة، وقال الله عز وجل ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾" (١).

٣٤- يستحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله في كل دعاء في أوله وآخره، ومنهم من أوجبه.

٣٥- من المقدمات المباركة للدعاء الصلاة على النبي وآله وبه وردت نصوص عديدة ولأن الله عز وجل أمر بالصلاة على النبي وهي عنوان التسليم والإنقياد لله تعالى بإتباع من إجتبى وإصطفى من خلقه، وورد في نهج البلاغة: إذا كانت لك إلى الله حاجة فابدأ قبل مسألتك بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سل الله فإن الله إكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى.

٣٦- كما للدعاء مقدمات فإن له متمات ملازمة له ومنها البكاء أو التباكي عند التضرع إلى الله تعالى، وهو إعلان لصدق الإلتجاء واللجوء بالحاجة والقصد والسؤال والإنقطاع إلى الله تعالى، وعدم إنحصار السؤال باللسان بل إن الجوارح والأركان تساهم في المسألة بجعل العبد أقرب إلى الله عز وجل.

٣٧- قد يرد الدعاء بمعنى التسييح والحمد، فليس من تكليف في الجنة ومع هذا ورد قوله تعالى في مدح أهل الجنة ﴿ وَأَخْرَجُوا لَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) سورة الاعراف ١٨٠.

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

وفي تفسيرها ورد عن ابن عباس أن أهل الجنة كلما إشتهوا شيئاً قالوا سبحانك اللهم فيجيئهم كل ما يشتهون فاذا طعموا قالوا الحمد لله رب العالمين فذلك آخر دعواهم.

إن ورود وتجدد موضوع الدعاء في الجنة وبخصوصية وأهمية ظاهرة كخاتمة للدعاء والرجاء يدل على الحاجة إليه.

٣٨- الدعاء دعوة إلى الله وباب الهداية إلى الدين والرشاد والإمثال للأحكام الشرعية، كما يعني الإقرار بالربوبية والتسليم بالإرادة الإلهية، واللجوء إلى الله تعالى إقراراً صحيحاً بأن مقاليد الأمور بيده تعالى وله المشيئة.

٣٩- الدعاء عنوان سؤال وإلتماس حاجة فهو من الإنشاء ولكن قد يرد جملة خبرية التي تأتي أحياناً بصيغة الثناء على الله فيحتسبها الله تعالى دعاء فضلاً منه تعالى وهو سر من أسرار الدعاء وكنز من كنوزه.

٤٠- قد يرد الدعاء بمعنى التسمية كما في قوله تعالى ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا

الرَّحْمَانَ أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٢﴾ فالدعاء هنا بمعنى التسمية يتعدى إلى مفعولين أي سواء تسألونه وتخطبونه بإسم الجلالة أو بالأسماء الحسنى فإنها تدل على واجب الوجود، وقيل إن هذا العطف يصح بالواو ولا يصح ب(أو) لأنها لأحد المتغايرين ولكن الآية جاءت بمعنى التقرير والإمضاء وإتمام الحجة.

٤١- قد يرد الدعاء بمعنى العبادة كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْْبَأُكُمْ

(١) سورة يونس ١٠.

(٢) سورة الإسراء ١١٠.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٥

رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴿١﴾ أي عبادتكم، فالدعاء إقبال على الله ويتضمن قهراً قهراً وإنطباقاً الإشتغال بذكره وتمجيده تعالى والإعراض عن غيره.

٤٢- الإجتماع والإشتراك في الدعاء والتوجه إلى الباري عز وجل على نحو العموم المجموعي سواء كانت المسألة شخصية أو نوعية لموضوعية تعدد السائل والمسألة ولما يعنيه الإجتماع في المسألة من التضامن والإلتقاء والإقرار الجماعي بتعلق الحاجات بمشيئته تعالى، كما أنه مناسبة للإندفاع في العبادة، (وروي أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام: "يا عيسى تقرب إلى المؤمنين ومرهم أن يدعوني معك")^(٢).

٤٣- التأمين^(٣) على الدعاء فإنه مشاركة في الدعاء وسؤال الحاجة وتوسل إضافي، وتوكيد للحاجة، وعنوان للصدق في المسألة، وفي رسالة علي بن عقبة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: دعا موسى وأمن هارون وأمنت الملائكة فقال الله تعالى: قد أجيبت دعوتكما فاستقيما"^(٤).

٤٤- من القواعد الإمتنانية في الدعاء السعة في صيغته اذ يجوز أن يكون الدعاء بما جرى على اللسان من بيان للحاجة وذكر للفاقة والمسألة، ويجوز بل يستحب إختيار الدعاء المأثور.

الدعاء والسعي

لقد ترك الأنبياء تراثاً عظيماً في علوم الدين والدنيا تجسدت بآيات

(١) سورة الفرقان ٧٧.

(٢) بحار الأنوار ٢٩٢/١٤.

(٣) أمنت على الدعاء تأمينا: قلت عنده أمين ومنه **فلان** يؤمن على دعاء فلان، وأمين: اسم فعل مبني على الفتح وفيه **أربع لغات أكثرها استعمالاً** بالمد بعد الهمزة من غير **إمالة**، ومما ذكر له من **المعاني** أنه يعني: اللهم استجب، وأمين ليست من القرآن وعليه **إجماع** المسلمين ولم تكتب في **المصحف**.

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢/١٩٥.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٦

قرآنية تضمنت أنواراً مباركة على سيرتهم الشريفة وكيفية استثمار الزمان والمكان والحال في تعظيم شعائر الله، قال تعالى ﴿فَبِهَدَاهُمْ اقْتَدِهْ﴾^(١).

لقد كانت حياة الأنبياء دعاءً وذكرًا وتسيحاً وسعيًا في سبيله تعالى، والدعاء بذاته رحمة إذ جعله الله عز وجل باباً لقضاء الحوائج وإذن به تخفيفاً وفضلاً، وإمتاز المسلمون بأن أمرهم الله عز وجل بالدعاء وحثهم عليه وتلك خصوصية ونوع تشريف، وهي لا تتعارض مع تفضيل الله سبحانه لبعض الأمم كبنِي إِسْرَائِيلَ على أهل زمانهم لأن الأمر بالدعاء يشملهم على نحو عرضي بدخولهم الإسلام لتغير الموضوع، وصدق إسم المسلم على من يأتي بالشهادتين منهم.

عرفت الدنيا بأنها دار فناء، والعلماء هم الأطباء أما الدواء فهو القرآن والإعراض عنه هو السم، وقد يكون القرآن هو الطيب والدواء معاً والنفوس قابلة للتداوي، والنقص في العلم والعمل هو المرض، ومن المرض ما هو مركب حينما يظن الشخص جهله معرفة وعلماً.

ولابد من الملازمة بين الدعاء والعمل، بالعمل يصلح الغير وينتفع منه، بالرزق الحلال وتنزيه البطن وطيب المكسب يسمع الدعاء وفي الحديث: "أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب أن يستجاب دعائي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم طهر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام"^(٢) وفيه وجوه:

الأول: هذا الحديث مخصص لإطلاق الآية الكريمة ﴿ادْعُونِي﴾

أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿^(٣) التي هي تشريف مركب.

الثاني: تأتي الآية بالذات هذا التخصيص بورودها بلغة الخطاب،

(١) سورة الأنعام ٩٠.

(٢) بحار الأنوار ٣٧٣/٩٠.

(٣) سورة غافر ٦٠.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٧

والقدر المتيقن منه أهل الإيمان والذين اقروا برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلموا بأن القرآن كتاب من عند الله، أي لا تصل النبوة للحديث إلا على أنه مبین للآية وليس مخصصاً لها.

الثالث: هناك منزلة بين المنزلتين وبرزخ وهو أن الرزق الحلال يستجاب فيه الدعاء على الوجه الأتم والأكمل، بعكس اختلاط الحرام بالحلال في الكسب فإنه لا يجعل الإستجابة إلا على نحو الموجبة الجزئية لما في التوجه المجرد له تعالى من خصوصية بفضله تعالى ولأن من أسمائه سبحانه السميع مما يعني الإطلاق والعموم في سمعه وعلمه تعالى بالدعاء وصاحبه، هو الأخير.

والحوائج على نوعين كبيرة وصغيرة، وبينهما مراتب متفاوتة والصغيرة قد تكون كبيرة بلحاظ الحاجة إليها وندرتها أو إنعدامها، أو ترتيب أمور أخرى عليها، فتكون الحاجة إليها كمقدمة وطريق بمقدار الحاجة إلى ذي المقدمة وما تؤدي إليه، والتوجه إلى الله بالدعاء لا ينحصر بالحوائج الكبيرة ولا الصغيرة التي يترتب عليها أمر أهم بل مطلقاً في كل ما يحتاجه الإنسان، لأن كل شيء بيد الله تعالى وخاضع لمشيئته، ومستجيب لأمره، ولأن الإطلاق في التوجه إليه عنوان الإيمان وحسن الإتكال وصدق التسليم.

وفي الحديث القدسي: "يا موسى سلني كل ما تحتاج حتى علف شاتك وملح عجيناك"، وبالإسناد عن سيف التمار قال: "سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: عليكم بالدعاء فإنكم لا تتقربون بمثله ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها إن صاحب الصغار هو صاحب الكبار".

في كل آية دعاء

لقد ورد في الحديث أن الدعاء مخ العبادة، مما يدل على موضوعيته والقرآن فيه تبيان لكل شيء، فنستطيع أن نتبين هذا الحديث من الآيات

القرآنية التي تتعرض للدعاء بل ومن كل آية في القرآن، ويمكن القول أن في كل آية من آيات القرآن مناسبة للدعاء أما في منطوقها أو في مفهومها سواء كان مفهوم موافقة وهو المعنى غير المذكور فيها ولكنه موافق للمنطوق سلباً وإيجاباً، أو مفهوم المخالفة وهو المعنى المخالف غير المذكور، وكأن الأول من الدلالة المطابقة أو التضمنية، والثاني من المداليل الإلتزامية، كما في الآيات التي فيها ذكر الجنة تدعو العبد لدخول الجنة والفوز في المقام فيها والنجاة من النار، أي الدعوة للنجاة من النار لا تنحصر بالآيات التي فيها ذكر النار والوعيد والتخويف بها بل تشمل إالآيات البشارة بالجنة إذ تكون في مفهومها مناسبة للدعاء بالنجاة منها.

الدعاء والصلاة

ذكر من وجوه إشتقاق الصلاة أنها الدعاء، فالصلاة نوع دعاء ورجاء وإن كانت فعلاً تعبيرياً يؤتى به بداعي أمر المولى، لذا تجد الدعاء يتخلل أفعال الصلاة كلها فالقراءة فيها دعاء وأن جيء به بقصد القرآنية كما في قوله تعالى ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١)، وهناك حالات في الصلاة يتخللها الدعاء ولو على نحو إستجابي، ومنها القنوت الذي هو مستحب، والدعاء عند التشهد قبله وأثناءه وبعده، والصلاة قربان كل تقي، وخير ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل.

وتعتري النفس الإنسانية خواطر، وهي على قسمين، أما أن تكون للرجاء أو الطمع بما عند الله عز وجل، أو ما يدعو إلى الشر من نزغ الشيطان.

الأول: يسمى الإلهام وهو حسن ومحمود.

الثاني: مذموم ويسمى الوسواس.

(١) سورة الفاتحة ٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٨٩

وقسم أهل العرفان الأول إلى الرحماني والملكي، والثاني إلى الشيطاني والنفساني، وكل قسم يتقدم رتبة على الثاني سواء من الإلهام أو من الوسواس وهذا التقسيم وإن كان إستقرائياً إلا أنه يعكس الصراع بين الإنسان والشيطان في أهم ميادين المعركة بينهما وهي النفس إذ تتجلى مظاهر العداوة وأنواع الأسلحة على حقيقتها وبأشد وجوه الفتك والمقاومة، وقد تنحسم أحياناً لصالح أحد الفريقين فيرتقي الإنسان في مسالك الرشاد ويعيش القلب في أنوار الشريعة، وتلتزم الجوارح بأحكام الحلال والحرام، وتتهياً النفس لقبول التوفيق وما يعنيه من اللطف والإشتغال بالدعاء.

والدعاء قهر للنفس الإنسانية على فعل الصالحات، فهي مع صفائها وفطرتها على التوحيد تمتلك أيضاً القابلية لتلقي أسباب الهوى والإنكباب على اللذات والشهوات الفاسدة وقد تكون مرعى للشيطان، والباب الذي ينفذ منه، فالدعاء جهاد لها، وتسليط للإرادة الإيمانية عليها، (وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (ما منكم أحد إلا وله شيطان، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم)^(١).

وهذا الحديث في مفهومه دعوة للتغلب على الشيطان وأهم وسيلة التي يمكن بها قهره والإنتصار عليه بعد أداء الفرائض هو الدعاء، ويتصف الدعاء بإمكان ملازمته للإنسان والفرع إليه في كل وقت، إلى جانب حضور المدخر منه في ساعة الغفلة والسهو والإنشغال بالدنيا، والنفس تمتلك مؤهلات الإتصال بالملك والشيطان سواء كان بتوسط القوة العقلية للملك أو القوة الوهمية للشيطان، وإبليس من الجن، وقيل أن الجن يتصف بالخيال والتمثيل.

والإيمان على قسمين.

(١) مفاتيح الغيب ١/٧٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٠

الأول: مستقر.

الثاني: مستودع.

فالأول ما كانت التقوى سنخية ثابتة فيه وملكة تصدر عنها أعمال العبد، فيتوجه إلى الدعاء كوظيفة وسلاح وملاذ، أما الثاني فهو الذي تداهمه الشهوات ويسعى الهوى لخدلانه وزحزحته عن منازل الإيمان، فالشيطان يقف على قلبه لإغوائه بمكره وكيده، بينما يتربع العقل على باب الأول أي صاحب الإيمان المستقر وينير سراجة دروب الحياة، والحق أن كلاً منهما المستقر والمستودع يحتاج الدعاء، نعم النسبة بينهما عموم وخصوص من وجه، فكل منهما يحتاج الثبات على الإيمان، الأول بارادة دوام الثبات، والثاني وهو المستودع سؤال الثبات.

لقد إحتل الدعاء مكانة عظيمة في تأريخ المسلمين وسيرتهم، فكان غذاء يومياً وسلاحاً حاضراً يلجأ إليه المسلم عند الحاجة وغيرها، والدعاء يطرد الغلو ويمنع من التعدي، والتوجه بالدعاء إلى الباري عز وجل إقرار بالربوبية وإعتراف من منازل الذل والعبودية وإعتبار الإيمان والخضوع والحاجة لله تعالى في الحياة اليومية وإرتكازه في الذهن في حال الرخاء والشدة.

والدعاء باب في المعرفة الإلهية فهو إشعاع فكري مبارك للإرتقاء في مسالك الهدى، وسبل النجاة في الآخرة لما يتضمنه من الإخلاص في العبودية واليقين، وهو طريق وسبب لمعرفة الباري عز وجل وهو سبحانه غني عن العالمين.

وفي رسالة الإمام الصادق عليه السلام: "وعليكم بالدعاء فإن المسلمين لم يدركوا نجاح الحوائج عند ربهم بأفضل من الدعاء، والرغبة إليه، والتضرع إلى الله والمسألة، فارغبوا فيما رغبتكم الله فيه، وأجيبوا الله إلى ما

دعاكم، لتفلحوا وتنجحوا وتنجوا من عذاب الله" (١).

فلسفة الإلحاح بالدعاء

الإلحاح في الدعاء والمواظبة في المسألة، والإعتقاد الجازم بأن الحكمة الإلهية تقتضي تأخير الإستجابة وأن الله تعالى أحاط بكل شيء علماً، والإلحاح في الدعاء مدخل كريم لقضاء الحوائج وبلوغ الآمال، وهو نوع إنقطاع لله تعالى، وتوكيد ذاتي على أن اللجوء له تعالى على نحو الدوام والثبات، وهذا الإلحاح مع إستدامته لا يمنع من السعي في الأسباب بل أن الدعاء سبيل إلى تيسير الأسباب وإضفاء البركة عليها.

ومن منافع الإلحاح في الدعاء أنه واقية مما هو أسوأ من أحوال الضيق والشدة، وهو حاجز عن السيئات وإرتكاب الذنوب فمن يرجو يلتزم بأحكام الرجاء، وما يؤدي إلى غاياته، وهو وجه من وجوه الإيمان ومظهر من مظاهره، والنصوص التي وردت في إستحباب الدعاء كثيرة وتبين أهميته وما له من إعتبار، وعن زبور داود، يقول الله عز وجل: "يا ابن آدم تسألني وإمنعك لعلمي بما ينفعك، ثم تلح علي بالمسألة فأعطيك ما سألت".

والإلحاح في الدعاء غذاء روحي، ونوع تسلية وإيناس للنفس وللجوارح، وأركان البدن، وفيه دوام الأمل الذي له آثار تبرز في الأعمال، وعن ابن القداح عن الصادق عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رحم الله عبداً طلب من الله عز وجل حاجة فألح في الدعاء أستجيب له أو لم يستجب، وتلا هذه الآية ﴿وَأَدْعُرَّبِّي﴾

عَسَىٰ إِلَّا أَكُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٢﴾.

(١) وسائل ٤/١٠٨٩.

(٢) سورة آل عمران ٣٨.



تخصيص الكتاب بخبر الواحد

لقد أصبح من الشائع القول ما من عام إلا وقد خص، والقرآن كما فيه عام ففيه خاص، ومن مسائل البحث:

١- هل الخاص في القرآن يشمل كل عموماته بحيث نستغني في هذا الباب عن السنة أي أن القرآن جاء بالخاص لكل عام خصوصاً أن الإجماع والوجدان على أن القرآن يتضمن العام والخاص، والمطلق والمقيد.

الجواب: لا، لأن السنة النبوية الشريفة بيان للقرآن وهي نوع وحي وإخبار سماوي، فمثلاً ورد الحكم قطع يد السارق والسارقة مطلقاً في قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(١)، ولكن السنة النبوية خصصته وأخرجت منه ما كان قيمة العين المسروقة أقل من ربع دينار.

ولقد ثبت في علم الأصول إعتبار أصالة الإطلاق، فالعام القرآني يبقى على حاله إلا أن يخصص بأية أخرى أو بالسنة.

٢- نحتاج إلى السنة لتخصيص ذات العمومات أو غيرها.

٣- ترك التنزيل موضعاً وباباً للسنة بتخصيص بعض عموماته.

٤- تفيد السنة بذاتها تخصيص عمومات الكتاب على نحو إنطباقي إذ

فلا بد من العمل بالسنة.

وفي الحديث دعوة للأخذ والعمل بالسنة الشريفة، وتحذير من الإعراض عنها، ونهي عن تركها وعدم إعتبارها، وليس من دليل يخصص عمومات هذا الحديث، فلو جاء حديث يتضمن تخصيصاً لعام في القرآن فأما أن نعمل به فيكون مخصصاً، أو نظرته فنكون قد خالفنا أمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مع أن الإجماع والدليل العقلي على أن

(١) سورة المائدة ٣٨.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٣

أمره مدرسة شرعية تتضمن كنوزاً من العلم.
وهناك أحكام في القرآن وردت على نحو الإجمال والإطلاق ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمها بالعلم الحضورى وبالوحي والإخبار الملكوتي على نحو التفصيل رحمة بالأمة وسعة في الحكم، ولو عرضنا هذا الحديث على القرآن فلا نجد في البين معارضة بينهما، ولا يعني هذا أن من الوقائع ما ليس له حكم في القرآن، ولكنه الفضل الإلهي والحجة البالغة على الناس.

والحديث لغة هو الجديد من الأشياء، وتقيض القديم، كما يأتي بمعنى الخبر وهو المقصود في المقام، والجمع أحاديث، كقطيع وأقاطيع، وقيل أنه يجمع على حدثان وحدثان، ولكن الأول هو المتعارف.
وما إمتاز به الإسلام علم الحديث وهو بالمعنى الإصطلاحي السنة الشريفة، ومع أنه لغة يختص بالخبر، إلا أنه في الإصطلاح يشمل السنة الفعلية والتقريرية، وهو بيان وتفسير للقرآن وتفصيل لأحكام الشريعة. وينقسم الحديث إلى قسمين:

الأول: المتواتر وهو الخبر الذي ينقله جماعة عن جماعة تعتبر كثرتهم دليلاً وقرينة على عدم تواطئهم على الكذب، ويحصل بخبرهم العلم والقطع مع إختلاف في عموم القطع به، وفي عددهم في كل طبقة، والإتفاق على حصوله سواء كان التواتر لفظياً أو معنوياً.

الثاني: خبر الواحد، وهو على أقسام تلتقي كلها بعدم الوصول إلى حد التواتر كالمستفيض الذي يكون رواته في كل طبقة إثنين أو ثلاثة، وخبر الواحد في كل طبقة أو بعضها، والظاهر أن المستفيض قسيم لخبر الواحد لصيغة التعدد في رواته في كل طبقة، وليس قسماً منه، وهو واسطة وبرزخ بين خبر الواحد والخبر المتواتر.

وهذا التقسيم لا يمنع من وجود الخبر الضعيف في المستفيض إذا ما أتفق إتصاف راويه أو رواته في طبقة واحدة بالضعف والجرح.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٤

وأختلف في تخصيص الكتاب بالخبر الواحد أو عدمه على أقوال:

٥- الجواز.

٢- المنع.

٣- التوقف.

ولفظ الخبر الواحد فيه عموم ويحتاج إلى بيان وتخصيص بطرح الضعيف منه وعدم إعتبار الحديث إلا إذا كان صحيح السند أو أنه مجبور بعمل الفقهاء، وصحيح الدلالة وأن يكون جامعاً لشرائط الحجية، وليس بدليل الإنسداد الذي يعني حجية مطلق الظن، فالعمل بمطلق الظن لا يصلح للتخصيص لأنه يكون حيثئذ من باب الإحتياط وهو أصل عملي لا يصلح لتخصيص الكتاب لعدم صلاحية الأصل العملي مع وجود الدليل الذي هو القرآن وإن كان على نحو الإطلاق والعموم.

ويدل هذا المبحث في مفهومه على إمضاء تخصيص الخبر المتواتر للكتاب العزيز للأولوية القطعية ولحجيته مما يستلزم إستحضار نوع مقارنة بينهما فيما يخص موضوع التخصيص، وهو أن الكتاب قطعي الصدور، والخبر الواحد ظني الصدور، لذا إستشكل جماعة وقالوا كيف يقدم الظني على القطعي.

وعندما يرد خبر عادل يخصص عموم الآية القرآنية فتكون هناك

إحتمالات:

٦- طرح الخبر وتكذيب راويه.

٧- التصرف بظاهر القرآن وهو العموم والإطلاق، وعدم التصرف

بمضمون الخبر بل تكون له الحكومة بمعنى التوسعة والتضييق.

٨- التصرف في الخبر بما يتلائم مع ظاهر القرآن وتأويله خصوصاً مع

الرجوع إلى أحاديث المعارضة مع الكتاب وعموماتها، وإن كان

التخصيص غير المعارضة.

٩- ترك الأمر وعدم البحث عن الصلة بين الآية والخبر.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٥

ونحن أمام أمرين أما أن نأخذ بالظن بصدق الخبر، أو نأخذ بعموم الآية وطرح دليل حجية الخبر، خصوصاً وأن الخبر لم يصدر إلا لبيان الحكم الواقعي مع حكم العقل بوحدة الموضوع في منطوق الآية، ومضامينها، وبين ما جاء به الخبر إذا تم من حيث حجية الظهور وأصل الصدور، وجهة الصدور وأنه ليس للتقية أو نحوها.

وقيل بتقديم القرينة على ذي القرينة، والمراد من القرينة هي أصالة عدم كذب الراوي.

أما الأصل الجاري في ذي القرينة فهو أصالة العموم.

وفي الكفاية قال: لولا جواز التخصيص بالخبر المعتبر لزم إلغاء الخبر بالمرة أو ما يحكمه ضرورة ندرة خبر لم يكن على خلافه عموم الكتاب لو سلم وجود ما لم يكن كذلك، أي لو سلم وجود خبر لا يخالف عموم الكتاب فهو نادر مما ينتج عنه أن طرح النصوص والأخبار المخالفة للكتاب فإن معظم الأخبار تكفي ولا يبقى منها إلا القليل النادر).

ولكن هذا القول ليس بتمام إذ أن إجراء إحصائية للأخبار أو الخبر الواحد خاصة تظهر أنها موافقة للكتاب في الجملة والحق أن أكثر الأحكام تثبت بخبر الواحد وبحجية خبر الواحد، يفتح باب العلمي وينغلق باب الأنسداد، وباب العلمي هو الوصول إلى الأحكام الشرعية الفرعية بالطرق الموصلة لها للعلم بها وإمضائها من قبل الشارع أو العقل في معظم الأحكام.

وحجية خبر الواحد من المسائل الأصولية المهمة، ومسألة تخصيص الكتاب بخبر الواحد فرع حجيته.

ويمكن إثارة تساؤلات بخصوص الخبر الواحد:

١٠- هل يصح خبر الواحد للعمل به وعدم طرحه.

١١- هل العمل به مطلق.

١٢- أنه ينحصر والتوصليات والمواعظ.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٦

١٣- أنه ليس بحجة في تخصيص الكتاب العزيز.

١٤- أن حجته مطلقة وليس من دليل على تقييدها.

والمشهور على حجية خبر الواحد إذا كان معتبراً سنداً، وخبر الواحد هو الخبر الذي إتحد طريق سنده، ولم يحصل منه القطع بثبوت مؤداه في قبال الخبر المتواتر الذي يرويه جماعة عن جماعة مع إمتناع تواطئهم على الكذب مما يفيد العلم.

وهو من أهم ما يبحث في علم الأصول كوسيلة تعبدية لإحراز صدور الدليل من الشارع، وتتوقف عليه جملة من الأحكام الشرعية لإعتبار جهة الصدور والوثوق بالخبر الواحد الذي يقع في طريق الحكم الشرعي، وكون هذا البحث ليس معروفاً في أيام الإسلام الأولى لا يعني أنه مستحدث، بل أن كثيراً من النصوص تدل في مفهومها على إطلاق حجة خبر الثقة إطلاقاً المسلمات في ذلك الزمان.

ويمكن الإستدلال بالسنة الفعلية بإرسال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأمرء والسعاة وغيرهم آحاداً إلى القبائل والأمصار ليقوموا ببيان السنن وتبليغ الأحكام الشرعية.

وهناك شواهد من السنة التقريرية تدل على عدم ردع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه عند عملهم بخبر الواحد.

هذا بالإضافة إلى إرشادهم إلى ما وافق الكتاب والسنة، والأعراض عما خالفهما من غير تفصيل بين الخبر المتواتر أو خبر الواحد، كما كان أئمة المسلمين يحثون على تدوين الحديث وضبطه.

وفي كتاب القضاء نصوص كثيرة تدل على الأخذ بخبر الواحد منها الأخبار العلاجية عند التعارض بين خبرين للأخذ بأحدهما، أما على سبيل التعيين أو التخيير من دون الإشارة إلى جهة الصدور ومدخليتها في الترجيح.

وإستدل المشهور على حجية خبر الواحد بالكتاب والسنة، ومنها

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٧

مفهوم آية، النبأ وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١).

ففي الآية أمر بالتبين عن النبأ بشرط أن يكون الذي يأتي به فاسقاً وهذا هو المنطوق، أما المفهوم فهو أن خبر العادل لا حاجة إلى تبينه لوضوحه وقربه من الدليل القطعي، وبالإضافة إلى مفهوم الشرط أستدل بها من باب مفهوم الوصف أن وجوب التبين ملازم لفسق حامل النبأ ومعلق عليه فيتبني بانتفاء هذه الصفة فيقبل ويصدق عليه أن كان المخبر عادلاً، ويعتبر مفهوم هذه الآية عند المشهور دليلاً على حجية خبر الواحد.

كما أستدل على الحجية بمفهوم الشرط وهو وجوب التبين عن الخبر الذي إنحصر بإتيان الفاسق له وهو يدل في مفهومه على القبول عند إتيان غير الفاسق به لإنتفاء المشروط بانتفاء شرطه خصوصاً وأن الجزء لم يتوقف على الشرط كما في صورة إن رزقت ولداً فاخنته، فعند عدم الولد ينتفي الموضوع، والأمر مولوي تعبدي.

وأستدل أيضاً بآية النفر، وهي قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٢)، إذ تدل الآية على موضوعية الإنذار وتعقبه بالحدز العام الذي يكشف عن حجية إخبار الفقيه المنذر.

كما أستدل على حجية خبر الواحد بآية الكتمان، وهي قوله تعالى ﴿أَنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ

(١) سورة الحجرات ٦.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٨

فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١﴾ ، وتحريم الكتمان يدل في مفهومه على وجوب الإعلان الذي له أثر بالحجية والقبول. وأستدل أيضاً بآية السؤال وهي قوله تعالى ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢﴾ ، والأمر بالسؤال يدل على حجية الجواب وإفادته للعلم.

وقد ناقش القائلون بعدم حجية الخبر الواحد في الاستدلال بالآيات المتقدمة، ففي آية النبا قالوا بأنه لا مفهوم للجملة الشرطية إذ كانت مسوقة لبيان موضوع الحكم، ولا يعقل فرض الحكم بدون الشرط فالحكم فيها الأمر بالتبيين فلا يعقل فرض التبيين إذا لم يأت الفاسق بالنبأ لأنها تكون سالبة بانتفاء الموضوع، فلا يمكن إن يقال أن لم يأتكم فاسق بالنبأ فلا تبيينوا، إذ أن الأصوليين إتفقوا على إنعدام المفهوم لهذا النوع من الجملة الشرطية.

والحكم بالتبيين مغلل في الآية الكريمة بالإحتراز من الوقوع في الجهالة وهو طبيعي كلي لأخبار الأحاد لعدم ثبوت العلم فيها فتكون كالقرينة على نفي المفهوم.

واجيب على الاستدلال بآية النفر بوجوه منها أن حجة قول المنذر متعلقة برأيه وإستنتاجه لا بما هو إخبار وشهادة.

واجيب على الاستدلال بآية السؤال بوجهين:

الأول: أن كان المراد بأهل الذكر أهل الكتاب فإن مورد الآية أصول العقائد وعلامم النبوة، وخبر الواحد ليس بحجة في أصول العقائد والسؤال أعم منه، وإن كان المراد بأهل الذكر أئمة المسلمين فلا صلة للسؤال بحجية

(١) سورة البقرة ١٥٩.

(٢) سورة النحل ٤٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ١٩٩

خبر الواحد، وقد يراد من السؤال التعدد والكثرة، وتلك الردود نوقشت أيضاً من قبل القائلين بالحجية.

وتابع النافون لحجية خبر الواحد كلام القائلين بحجيته بالإستدلال بالكتاب والسنة وإلجماع والعقل، ومن الكتاب قوله تعالى ﴿ أَنْ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾^(١)، فإن الآية تنهى عن العمل بالظن، وخبر الواحد وإن كان أمانة ظنية ولكنه غير مشمول بإطلاق النهي عن العمل بالظن للسيرة القطعية بالأخذ بأخبار الثقة وإمضاء العمل بها في الشرعيات، وعدم الردع عن الأخذ بخبر الثقة كما أن خبره يفيد عند العقلاء الإطمئنان.

وهذه الآيات تفيد وجوب العلم لدفع الضرر وإن كان أخروياً، والنهي عن الظن غير المعبر الذي لا ينتج عنه نوع طمأنينة، كما أن القدر المتيقن من النهي هو خبر الفاسق، أي بسبب عرضي وهو الفسق ولا واسطة بين العادل والفاسق لعمومات قوله تعالى ﴿ أَنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾^(٢).

وإستدل السيد المرتضى على عدم حجيته بالإجماع، وجعل العمل بخبر الواحد مثل العمل بالقياس ضروري البطلان، ولكن الإجماع لم يثبت وإن تابعه ابن إدريس ونفر معه لقول الأكثر بخلافه، بل لقد ادعى الشيخ الطوسي الإجماع على الخلاف ومقتضى الأصل التعارض والتساقط.

ولكن إجماع السيد المرتضى يمكن أن يناقش لأن المشهور بين المتقدمين والمتأخرين هو حجية الخبر الواحد، والإجماع المنقول هو من أفراد الخبر الواحد.

(١) سورة يونس ٣٦.

(٢) سورة الحجرات ٦.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠٠

وحمل قولهم عدم حجية الخبر الواحد على الخبر الضعيف غير الموثق، ولكن بعض أقوال المنكرين في المباحث الفقهية تفيد عدم إعتبار خبر الواحد وإن كان ثقة.

وأستدل المنكر بالروايات التي تنهى عن العمل بالخبر المخالف للكتاب والسنة ومما ليس عليه شاهد من الكتاب والسنة وهي نصوص متواترة، ولكنها أجنبية عن المقام فحتى الذي يقول بحجية الخبر الواحد لا يأخذ بها، لأن التخصيص غير النسخ خصوصاً وأن السنة لا تنسخ القرآن على المختار، وإن ادعى في معالم الدين الإجماع على نسخها للقرآن.

أما بالنسبة للأخبار التي تدل على المنع عن العمل بالخبر الذي لا يكون عليه شاهد أو شاهدان من كتاب الله أو سنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنها تحمل على حال التعارض والتنافي، والتخصيص خارج عن موضوعنا بالتخصص.

ومع القول بحجية خبر الواحد لا بد من الإشارة إلى أمور تتعلق بالعمل بخبر الواحد وهي:

١٥- أن لا يكون مخالفاً لدليل قطعي الصدور كالقرآن الكريم، وبذا يكون النزاع صغروباً، فالمدار على القرآن، ومن بعده الخبر المتواتر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط)^(١).

١٦- أن يكون الخبر حسياً لأن عمدة أدلة حجيته الأدلة اللفظية والسيرة التي مناط العمل فيها الخبر الحسي لا الحدسي.

١٧- وثيقة الراوي كشرط في العمل بخبره بالإضافة إلى شرط الإسلام والعقل.

(١) مجمع البيان/١/٣٨ .

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠٢

تجمعها كلمة ينمو، وسمي هذا الإدغام ناقصاً لبقاء النطق بالنون مع الغنة، فإذا سبق النون أحد هذه الحروف فإنها تقلب إلى حرف مماثل ثم تدغم مع إظهار الغنة، فالنون يبقى أثرها، ولكنها تخرج من الخيشوم، أي من الأنف، وقد اختلف في مخارج الحروف والأعضاء التي تصدر منها الحروف، وعدّها الخليل سبعة عشر مخرجاً، أما سيويه فجعلها ستة عشر مخرجاً، ومنها:

الأول: أقصى الحلق.

الثاني: وسط الحلق.

الثالث: أدنى الحلق.

الرابع: أقصى اللسان، ولكل منها حرف أو أكثر يخرج منها.

والخيشوم يخرج منه النون والميم المشددان، وكيفية معرفة مخرج الحرف فتح الفم بالألف ثم النطق بالحرف فتعرف بمخرجه مقره وإستقراره، أي إستقرار الحرف، فتقول (اب) لبيان مخرج الباء وهو الشفتان والميم وتسمى الحروف الشفهية، وأقصى الحلق همزة، ووسط الحلق العين والحاء، وقيل أن لكل حرف مخرجاً.

ولا يجب على المكلف معرفة مخارج الحروف على طبق ما ذكره علماء التجويد، ومن أهم الحروف التي يلزم مراعاة قواعد النطق عند التلفظ به (الضاد) وقد ينشغل بعض أهل العلم في كيفية التلفظ به تمريناً وإتقاناً، ومخرجه من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس، ويكفي الصدق العرفي للتلفظ بهذا الحرف، وإن خرج من غير التفات إلى الكيفية التي يخرج بها.

وإذ أجمع أهل التجويد على الغنة بحرفي النون والميم المشددين مع النون الساكنة أو مع غيرها، فإنهم اختلفوا في الياء والواو فقد روى خلف عن حمزة الزيات أنه كان يدغمها مع النون الساكنة من غير غنة. ومن أمثلة الإدغام بغنة:

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠٣

عن نفسي: تقرأ: عن نفسي^(١).

فضلاً من الله: تقرأ: فضلمن الله^(٢).

ومن يعمل: تقرأ: ومي يعمل^(٣).

كتاب مبین: تقرأ: كتابمبین.

وتظهر النون في نون والقلم، ويس والقرآن أي عدم الإدغام فيها.
إدغام كامل: وهو إدغام بغير غنة، وحروفه هي اللام والراء، ويراد
بالإدغام الكامل عدم بقاء أثر للنون الساكنة أو للتونين، أي أن أثرهما
لفظي يندم وتزول الغنة أيضاً، لذا يسمى كاملاً أي الغنة هي الأخرى غير
موجودة فالنون إذا لاقت لاماً تقلب لاماً، وإذا لاقت راء تقلب راء وتدغم
فيهما، وقيل العلماء متفقون على إدغام النون مع اللام والراء من غير غنة.

ومن أمثلة إدغام النون مع اللام والراء:

أن لا تقرأ، تقرأ: إلا تقرأ.

يبين لنا^(٤)، تقرأ: يبيننا.

ولكن لا يعلمون^(٥)، تقرأ: ولكل لا يعلمون.

من ربهم: تقرأ: مر ربهم.

غفور رحيم: تقرأ: غفوررحيم.

وقال علماء القراءة في سورة الفاتحة تقرأ بالإدغام في الله، الرحمن،
الرحيم، الدين، الصراط، الضالين، والإدغام هنا للام فلا تظهر في القراءة
بل تتحول إلى حرف مماثل للحرف الأول من الإسم، وتظهر خفيفة
بالتشديد في تلفظ للحرف الأول ولكنها تبقى في الكتابة، أما في المصحف

(١) سورة يوسف ٢٦.

(٢) سورة الفتح ٢٩.

(٣) سورة المائدة ١٥.

(٤) سورة البقرة ٦٨.

(٥) سورة البقرة ١٣.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٥٤

فتوضع شدة فوق الحرف الشمسي مثل الرحمن، الصلاة الزكاة.

ويحتمل الإدغام بلحاظ إعتباره وجوه:

١٨- له موضوعية في اللغة العربية.

١٩- متعارف للرسوم في النهج العربي السليم.

٢٠- إنه نوع طريق لإحراز الإتيان باللفظ وفق القواعد والأصول.

٤- إنه من التخفيف اللساني الذي جاء مع كثرة المولدين وصعوبة تلفظ

جماعات من الذين دخلوا الإسلام وسعوا جاهدين لتعلم العربية، مع

وجود أدلة على قواعد الإدغام.

ويستحب الإدغام في مثل إذهب بكتابي، ويدرككم، مما اجتمع فيه

كلمتان متماثلتان مع كون الأول ساكناً، وتظهر اللام الموجودة في الحرف

مثل بل ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، إلا إذا وقع بعدها لام أو راء، فتدغم على

وجهين:

٢١- للتماثل مع اللام: مثل قوله تعالى ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ﴾^(١).

٢٢- إذا جاء بعدها راء فللتقارب بينهما كما في قوله تعالى ﴿بَلْ رَبُّكُمْ﴾.

أما لام الفعل أي التي وقعت في وسطه أو آخره وسواء كان الفعل

ماضياً أو مضارعاً أو أمراً فحكمها لإظهار، مثل قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا

مِنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾^(١).

وهناك تقسيم آخر للإدغام بلحاظ تباين هيئة وحركة الحرفين، فالإدغام

الكبير هو الذي يكون أول الحرفين فيه متحركاً، أما الصغير فما كان الحرف

الأول فيه ساكناً وهذا السكون على وجوه:

الأول: واجب.

(١) سورة الأعراف ٥٣.

الثاني: ممتنع.

الثالث: جائز.

وسمي بالكبير لوجوه:

الأول: كثرة وقوعه ولأن الحركة فيه أكثر من السكون، أو لتعدد وجوهه فإنه يشمل أقسام المثلين، وهما ما إتفقا مخرجاً وإختلفا صفة، والجنسين وهما ما إتفقا صيغة وإختلفا مخرجاً، والمتقاربين ما تقاربا مخرجاً أو صفة مثل الباء مع الفاء ﴿وَإِنْ نَعَبْنَا فَعَجَبٌ﴾^(١).

الثاني: كثرة العمل به.

من قواعد الإدغام أنه ليس مطلقاً بمعنى أن هناك مواضع في اللغة مستثناة من الإدغام ولا تجري فيها قواعده فالإدغام يتحقق إذا التقت النون الساكنة أو التنوين مع أحد حروف يرملون في كلمتين، والتقيد بكلمتين يخرج التقاؤهما بكلمة واحدة، فتظهر النون حيثئذ مثل (بنيان) ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾^(٢)، ومثل قنوان ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾^(٣)، ومثل بنا، أنا، وأستشهد بما يبدأ بالنون كالناس باعتبار أن النون من الحروف الشمسية. الاحوط الإدغام إذا كان بعد النون الساكنة أو التنوين أحد حروف يرملون فيما عدا اللام والراء.

وأحتج على وجوب الإدغام بدليل أنه مقتضى النهج العربي المعتبر في أداء الكلمات، وأدعي عدم ظهور الخلاف من الفقهاء في وجوبه وإن ترك الإدغام من الغلط، ولكنه أول الدعوى ويحتاج إلى بينة ودليل تقلي أو

(١) سورة الرعد ٥.

(٢) سورة الصف ٤.

(٣) سورة الأنعام ٩٩.

عقلي.

والمتيقن من الإجماع في حال ثبوته هو إعتبار الفصاحة في الجملة وقد أستعمل في القرآن بالإدغام وغيره، ومن الأول مد الأض ومن الثاني (فليمدد له الرحمن مداً) ^(١)، بل أن تحصيل الإجماع أمر ليس بالسهل.

مسائل

١- الإدغام إذا كان بعد النون الساكنة أو التنوين احد حروف يرملون مستحب، والأقوى عدم وجوبه لصدق الكلام بدونه وللأجر والثواب بقراءة كل حرف من القرآن، وكذا الغنة فيما عدا اللام والراء مستحبة.

٢- المدار في إخراج الحروف على صدق التلفظ بها، فلا تجب معرفة مخارجها وفق ما ذكره علماء التجويد لأنه نوع طريق لإحراز صدق التلفظ، وليس من دليل تعبدي على لزوم تلك القواعد كجعل أول احدى حافتي اللسان وما عليها من الأضراس مخرجاً للضاد، وطرف اللسان، وطرف الثنايا مخرجاً للظاء والذال والثاء.

٣- المد الذي يتوقف أداء الكلمة مادة أو هيئة عليه مثل ضالين واجب بالمقدار الذي تصدق معه صحة اللفظ وإفادة المعنى، اما المد الذي يكون بعد أحد حروف المد، وهي الواو المضموم ما قبلها، والياء المكسور ما قبلها، والألف المفتوح ما قبلها فهو من المحسنات في الجملة وبحسب المتعارف تكون من المستحبات، كما لو كان المد بمقدار حرف الألف مرتين، وقيل أربع مرات، والمدار على عدم خروج الكلمة عن معناها.



مس المصحف

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠٧

قال تعالى ﴿ أَنَّهُ لَقَرَّآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) اللام في القرآن مزحلقة والجملة جواب لقسم لا محل لها من الإعراب.
لا: نافية، ويمسه: فعل مضارع ومفعوله، وإلا: أداة حصر، المطهرون: فاعل يمسه.

وقيل لا: ناهية، ويمسه يكون حيثث فعلاً مضارعاً مجزوماً بلا ولكنه لما أدغم حرك آخره ورفعت السين بدل سكونها لأجل الإدغام فكانت الحركة ضمة إتباعاً للهاء، والأول ورد في قراءة عبد الله بن مسعود البيانية ولعله لإظهار أن عبد الله بن مسعود قرأها بذلك للبيان والتفسير والإيضاح ولم يثبت أن تلك قراءته، وإصطلاح (البيانية) يفتح لنا باباً لدراسة القراءات القرآنية فما قيل عن قراءات مخالفة قرأها عبد الله بن مسعود قد يكون أكثرها للبيان.

كما يرد في باب الفقه نصوص بيانية فيصلي الإمام الصادق عليه السلام أمامهم أو يدعو أحدهم للصلاة أمامه ثم يبين له نواقص صلاته، ومثل هذا الفعل البياني يتكرر في قراءة القرآن لأن المسلمين في كل زمان يسعون إلى القراءة الصحيحة التي إستقرت على الذي بين الدفتين.
وقال الرازي: إذا كان الأصح أن المراد من الكتاب اللوح المحفوظ، فالصحيح أن الضمير في ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ للكتاب، فكيف يصح قول الشافعي: لا يجوز مس المصحف للمحدث.

والمعروف أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: الدلالة المطابقة.

الثاني: الدلالة التضمنية.

(١) سورة الواقعة ٧٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠٨

الثالث: الدلالة الإلتزامية.

فالأولى: تعني دلالة اللفظ على تمام ما وضع له كدلالة المركبة على جميع ما تتضمنه من الأجزاء.

والثانية: دلالة اللفظ على جزء معناه كدلالة لفظ الدار على بعض غرفها، أو دلالة لفظ البستان على بعض أشجاره.

والثالثة: دلالة اللفظ على لازم معناه كدلالة المصباح على الإنارة والدرس على العلم، وهل لنزول القرآن من السماء دلالة على وجوب الوضوء من الأدلة الثلاثة بما يفيد إكرامه وعدم إهائه.

وصحيح أن الإكرام قد يتحصل مسماه بالقراءة والعمل بأحكامه وإجلال القرآن وتماهده إلا أن ذلك لا يمنع من الإستدلال بالدلالة الإلتزامية بأن القرآن كلام الله.

وكما أننا لا نقف بين يدي الله في الصلاة إلا على طهارة ووضوء كذلك مس كلامه ولكنه من القياس الذي لا يفيد الظن المعتبر كأن يقال تحتاج الصلاة إلى طهور لأنها وقوف بين يدي الله، وقراءة كلام الله كأنها وقوف بين يديه تعالى فتستلزم القراءة الوضوء والطهارة، وقد يقال أنه من الإستحسان وهو رجحان ينقدح في نفس الفقيه يتعلق بحكم خاص لموضوع معين عند ملاحظة القرائن والأمارات في بابه من غير دليل عليه بالخصوص.

وفي الفقه مثلاً يقال حرمة تخيل صورة المرأة الأجنبية بواسطة حرمة حال النظر واللمس والتقبيل ونحوها، والمدار على حرمة المس من غير طهر على النصوص المعتبرة شرعاً.

والكريم الذي تجتمع فيه وجوه الفضل والذي لا يلجأ إلى غيره عن حاجة، لذا يسمون الذي لا يسأل الناس كريم النفس، بل أن الكرم صفة لازمت السخاء والعطاء وهي تصدق على القرآن وكل ما يطلب تجده فيه ويعطيه، فصفة الكرم له سماوية وليست كسبية بل هي بالأصل والذات،

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٠٩

ففيه أحكام الشريعة والعلوم وأبواب الرزق والمغفرة وهو سلاح إلى الآخرة، ثم ما المراد من الكتاب في الآية خصوصاً وأن الجملة وردت في معنى الظرفية مما يدل في ظاهره على الغيرية، فالكتاب هو المصحف والمحتوى هو القرآن كما قيل، ووصفه الله تعالى بالمكنون الذي يعني أنه محفوظ بعناية تمام الحفظ موضوعاً ومضموناً وغرضاً وإفاضة.

ومن الإعجاز أن ترى المسلمين المسلمات يتعاهدون النسخ الشخصية من المصحف الجديدة والقديمة، المطبوعة والمخطوطة، وتزداد النسخ لتبلغ الملايين ونقول بالنقص والحاجة إلى المزيد، ومعها تحفظ وتكرم هذه النسخ مع الإستعداد على نحو العموم المجموعي والإستغراقي والبدلي لحفظ القرآن.

وقد لا ترى في قوانين الحكومات العربية والإسلامية أنظمة سنت لمعاقبة الذين يحاولون هتك القرآن على نحو الخصوص والتعيين، فهل هو تقصير، الجواب: لا، لأنها سألبة بإنتفاء الموضوع فلا تستلزم قانوناً وضعياً لها بالخصوص للإكرام العام لأحكام الشريعة، ونسأل الله تعالى أن يكون ذلك مستديماً باللازم والملزوم معاً، والظاهر أن الكتاب غير المصحف بالذات كوعاء للقرآن، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِيهِ نُوحٌ مَّحْفُوظٌ﴾ (١)، وقيل أن اللوح المحفوظ مستور لا يطلع عليه إلا ملائكة مخصصون.

وقوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ الضمير يعود فيه إلى القرآن، وقيل إلى الكتاب، والظاهر أن المراد هو القرآن، والجملة خبرية، ولكن هل يمكن أن تكون بمعنى الإنشائية ويستفاد منها الأمر، والخبر كما يعرف في علم المنطق هو المركب التام الذي يصح أن يوصف بالصدق أو الكذب، وهو متعلق

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٠

التصديق، وتارة لا يكون للكلام نسبة تامة ظاهرة في الواقع تطابق الكلام أو لا تطابقه، بل أن المتكلم يوجد المعنى بلفظ المركب والذي يسمى الإنشاء إذ لا يصح أن نصفه بصدق أو كذب لأن معانيه توليدية من اللفظ كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والتعجب والإيقاع.

فهل الآية أمر بالوضوء حين إرادة مس كتابة القرآن أم لمس الكتاب مطلقاً أي غلافه وأوراقه لإطلاق إسم القرآن، وربما نوقش في الكبرى وهي تعلق الآية بالمقام وأحكام المس، وأن المطهرين غير المتطهرين، والأقوى إفادة ذات المعنى، ولكنه لا يمنع من حمل الآية على فهم معاني الكتاب ومعرفة تأويلها.

فعمومات تفسير السنة للقرآن يدل على المعنى الأعم للآية، فقد كتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمرو بن حزم: "لا يمسه القرآن من هو على غير طهر".

وفي رواية إبراهيم بن عبد الحميد عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: "المصحف لا تمسه على غير طهر ولا جنباً ولا تمس خطه ولا تعلقه أن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾" (١)، فهذه الرواية تفيد أن المراد من المس هو الظاهري، ولكن نوقش في باب الفقه في سند الرواية وضعفه، والأقوى صحة سند الرواية لصحة طريق الشيخ إلى ابن فضال، كما نوقشت دلالة إذ أن حرمة المس بل وكراهته حكمان شرعيان من الأحكام التكليفية الخمسة يستلزمان الدليل المعتبر.

ونوقش في دلالة الرواية لأنها إشتملت على المنع من تعليق الكتاب ومس ظاهره من غير طهر، وليس من قائل بجرمة تعليق الكتاب ومس ظاهره من غير طهر، ولا قائل بجرمة التعليق من غير وضوء، فحمل النهي حينئذ على إرادة الكراهة، ولكن التفكيك في أجزاء الحديث ممكن

(١) سورة الواقعة ٧٩.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١١

ومتعارف عند الفقهاء ويحمل النهي في بعضها بالقرائن على الحرمة وبعضها على الكراهة، بل من النصوص ما أخذ الفقهاء شطراً منها وتركوا الشطر الآخر.

وكذا مرسله حريز عمن أخبره عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "كان إسماعيل بن الإمام الصادق عليه السلام عنده فقال: يا بني اقرأ المصحف، فقال: إني لست على وضوء، فقال: لا تمس الكتابة ومس الورق وإقرأه"، وهي ضعيفة بالإرسال ولكن المشهور جابر لضعفها.

وأختلف في التعدي من الكتاب إلى أسماء الأنبياء فإن كان مدرك حرمة المس هو الآية الكريمة فيمكن التعدي إلى كل ما هو كريم ولا يصح هتكه كأسماء الله وصفاته وأسماء الأنبياء والأئمة لأن النهي بلحاظ كرامة المسوس وشرفه، وإن كان الدليل هو الآية القرآنية والنصوص الخاصة بها فالقدر المتيقن أنها تختص بالكتاب والتعدي إلى غيره مبني على الاحتياط.

والأقوى أن الوضوء مستحب نفسي لمحبوئته عند الله وواجب غيري وهو المشهور، وإن أنكر جماعة الإستحباب النفسي للوضوء وقالوا إنما يترشح عليه الإستحباب من غاياته المستحبة.

وللوضوء غايات واجبة أهمها أنه مقدمة للصلاة الواجبة كالفريضة اليومية، والطواف الواجب الذي يكون جزء من الحج أو العمرة وإن كانا مندوبين، ومس الكتاب موجب للوضوء وفيه تفصيل يتعلق بسبب المس وموضوعه، فإذا وجب مس الكتابة فلا بد من الوضوء كمقدمة لمسه لوجوب المقدمة بسبب وجوب ذبيها، كما لو كان مس كتابة القرآن واجباً بالندر، أو أنه وقع في موضع يجب إخراجه منه، أو لتطهيره إذا صار متنجساً حال الإخراج، أو توقف التطهير على مس كتابته بشرط أن لا يكون التأخير بمقدار الوضوء موجباً لهتك حرمة.

أما لو لم يكن مس الكتابة واجباً، كما لو كان يقرأ القرآن فهل يجب الوضوء، الأقوى: لا، مع عدم جواز المس من غير وضوء، وهو المشهور

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٢

بين المتقدمين والمتأخرين وأدعي عليه الإجماع، وقال الشيخ وابن البراج وابن إدريس بكراهة المس وليس الحرمة، وتبعهم جماعة من متأخري المتأخرين.

ويجوز النذر بالوضوء عند قراءة القرآن، وفيه تفصيل بلحاظ النية واللفظ، فإذا نذر أن يتوضأ عند قراءته القرآن فلا تجب القراءة، ولكن لو أراد القراءة فلا بد من الوضوء لعمومات أدلة النذر ورجحانه لأن القراءة مع الوضوء أفضل من القراءة من غير وضوء.

أما لو نذر أن يقرأ القرآن مع الوضوء فلا بد حينئذ من الجمع بين الأمرين لأن النذر مركب منهما.

وهل تنحصر حرمة مس كتابة القرآن على المحدث بيده أم تشمل الحرمة سائر البدن، ولو بالأجزاء الداخلية للبدن كالأسنان واللسان، الجواب: أن الحرمة عامة لإطلاق الدليل وصدق إسم المس على جميع الأجزاء، أما المس بالشعر فالأقوى عدم حرمة والأحوط إجتنابه، ومن الأعلام من فرق بين الشعر الخفيف والكثيف، وقال بصدق المس في الأول كما لو مس الكتابة بشعر لحيته الخفيف أو بشعر ذراعه فيصدق عليه أنه مس الكتابة فيشملة الدليل الدال على حرمة مس الكتابة من غير طهر، ولكن إطلاقات الأدلة حاكمة وبالإمكان التفرقة بين مس الوجه وشعر اللحية، وبين مس اليد وشعرها.

والأقوى شمول الحرف الذي يُقرأ ولم يكتب، كالألف في رحمن ولقمان إذا كتب كرحمان ولقمان لأنه صحيح حسب قواعد الكتابة ولأنه جزء من القرآن المقروء وأن لم يكن جزء من القرآن المكتوب بين الدفتين في المصحف، وإنما كتب القرآن المتعارف أيام الخليفة عثمان بن عفان بالكيفية الحالية رحمن، لقمن، وظل عليها إلى الآن وهو الأنسب، أي بقاؤه على نفس الهيئة والكيفية، وعدم الإجهاد والتغيير في كتابة حروفه، فلو كتبت كلمة الرحمن بالألف فلا يجوز مسه أيضاً، خصوصاً وأن الحرمة

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٣

تشمل ما اذا كانت الكلمة القرآنية في المصحف.

والأقوى جواز مس ما على الدراهم والنقود لتغير الموضوع ولعدم الجزئية من القرآن ولقاعدة نفي الحرج وفي خبر محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام قال: "سألته هل يمس الرجل الدرهم الأبيض وهو جنب؟ فقال: أي إني والله لأوتى بالدرهم فأخذه وأنا جنب"، والدرهم إلابيض عليه سورة من القرآن، ويمكن مناقشة الرواية سنداً ودلالة خصوصاً وأن الحكم لا ينحصر بالدرهم، بل يمكن إستظهار الجواز للأعم من الدرهم لعدم خصوصية الدرهم بل يشمل غير المصحف مما هو مستعمل كالإناء والثوب والكفن، والرواية ضعيفة سنداً بالإرسال.

قاعدة رجالية جديدة

والذي لم يرد فيه مدح ولا ذم أعم من الضعيف، فإذا روى عنه الثقة فهو أرقى من الضعيف وإن لم يرق إلى الحسن أو الموثق وكأنه برزخ بين الحسن وبين الضعيف، فلا بأس بأن نستحدث عنواناً وصفة لمثل هذا ونطلق عليه عنوان (المعتمد) وهو الذي روى عنه الثقات ممن لم يذكر بمدح أو ذم، وكذا يشمل من كان من مشايخ الإجازة، وإن لم يكن مذكوراً في كتب الرجال وإنما ذكر في الطرق وهو كاف لعدم إسقاطه من الإعتبار. وحرمة المس مطلقة بلحاظ أو أن الفعل وإستدامته فلا فرق فيه بين الإبتداء والإستدامة، فلو كانت يده على الخط فحدث فلا يجوز إبقاؤها بل يجب رفعها فوراً، وقد يستلزم الأمر التوضاً أو التيمم، أو لا يستلزم كما لو كان الحدث النوم أو الريح فله حيثنذ أن يستمر على القراءة من غير أن يمس الكتابة، ولا تنحصر بالآية القرآنية بل تشمل الكلمة والحرفالقرآني وإن كان لا يقرأ كالألف في قالوا وآمنوا، ولو مسه غفلة ثم إنتفت أنه محدث فلا يجوز له المس حيثنذ.

وحرمة المس تشمل وجوه الكتابة المختلفة، فالخط بلحاظ المكتوب عليه

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٤

ونوع الكتابة ينقسم إلى:

الأول: الخط الظاهر الذي يبرز كتوء على سطح القرطاس او الجلد.

الثاني: الخط العادي الذي لا يبرز على سطح القرطاس والجسم المكتوب عليه، وهو المتعارف في الزمن الحاضر، ومنه المطبوع بأنواعه والإستنساخ.

الثالث: الخط المحفور كما لو كانت الكتابة حفراً للحروف والكلمات على الخشب او النحاس.

ولا خلاف في حرمة المس في القسم الأول والثاني، ولكن هل تنفي الحرمة بالنسبة للثالث كما ذهب إليه الشيخ الأنصاري باعتبار أن الحفر يجعل الحرف غير قابل للمس لقيام الخط فيه في الهواء فلا يصدق عليه المسمى عرفاً، والأقوى شموله بأدلة الحرمة، لأن الأحكام الشرعية لا تنزل على الدقة العقلية والتحقيق الهندسي والفلسفي المحض بل تبتنى على الدقة العرفية، فبالإضافة إلى صدق الكتابة على كل ما هو محفور فإن أطراف اللفظ والحرف القرآني تشملها أدلة حرمة المس، بالإضافة إلى عمومات إكرام القرآن.

وتشمل الحرمة الحروف والخطوط المهجورة والمتروكة لصدق إسم القرآنية عليها، وتشمل الإستنساخ ونحوه من الكتابة، وإذا تم مس الكلمة القرآنية على شاشة التلفزيون أو الكومبيوتر فلا يصدق عليه المس للتباين الموضوعي، ولأن الشاشة آلة تتبدل بها الكلمات ولا يصدق عليها الكتابة قبل أن تصل النوبة إلى أن الشاشة يكسوها غطاء رقيق تخرج الكتابة من تحته، والحرمة لا تشمل المترجم من كلام الله، ولكنه الاحوط.

فائدة

من إعجاز القرآن تعدد المعاني والمضامين القدسية للآية القرآنية والحكم القرآني، فكما يحرم مس كلمات القرآن فإن معاني الآيات القرآنية تتعدى

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٥

المتفاهم في صيغ الخطاب، وتترك في النفوس أثراً مركباً وتدعو بالحاح إلى تدبرها مع الإحساس الذاتي بأن الخطاب القرآني يتضمن معاني قدسية وتشريفية لأنه من عند الله عز وجل.

وتجب إزالة النجاسة عن ورق المصحف الشريف وعن جلده وغلافه مما يمكن إعتباره من ضروريات الدين وإكرام القرآن وعدم هتكه، ومن وجوه الإكرام تعاهد المصحف أي النسخة الواحدة من القرآن، والمنع من تنجيسه أو هتكه إذ أن الهتك أعم من التنجيس.

وهل تنحصر الحرمة بصورة الهتك لأصالة البراءة عن الزائد بعد فقد الدليل، أم تكون مطلقة، أي لو حصل تنجيس وليس فيه هتك فعلى الأول ليس مجرام، وعلى الثاني هو حرام لأن التنجيس منهي عنه بالذات وليس بالعنوان الثانوي والإعتباري الزائد، الجواب: هو الثاني فالتنجيس حرام سواء بعنوان الهتك والتعدي أو عدمه خصوصاً مع صعوبة إنفكاك اللازم عن الملزوم فيه إذ أن الهتك من الكلبي المشكك الذي يقع على مسميات بمعنى واحد وبينها تباين في الكثرة والقلّة، والشدة والضعف، وبعض الأفراد أولى بالكلبي من البعض الآخر أو أشد، وقد يكون عند بعض بذات المعنى وعند غيرهم بغيره، كما في موضوع الهتك فقد يكون فعل فيه هتك عند قوم وعند غيرهم لا يعد هتكاً، فتنجيس المصحف محرم تكليفاً من غير مدخلية لعناوين الهتك، بل إنها تترشح قهراً وإنطباقاً عن التنجيس وإن لم تكن مقصودة بالذات.

ويقابله الكلبي المتواطئ وهو عنوان جامع لأعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينها، أي أنه ينطبق على مصاديقه على السواء كالكتاب ينطبق على أفراد الكتاب المتعددة، والإنسان ينطبق على الأشخاص، والحيوان ينطبق على جنس الحيوانات، فالهتك من الأول من الكلبي المشكك فلا تنحصر الحرمة بعنوان الهتك وقصده من الفاعل، بل يشمل الهتك عرفاً أو أثراً، أو يدل على نوع جفاء وإعراض، ويكفي تحقق الهتك عند البعض ليترتب

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٦

الحكم التكليفي برفعه ومنعه.

ثم أنه مخالف للأمر بتطهير القرآن وإجلاله، وليس من منزلة برزخ بينهما على القول بأن الأمر بالشيء يعني النهي عن ضده، ولا يجوز حرق المصحف وأوراق القرآن البالية من غير حاجة وضرورة لعدم خلو الحرق من الهتك والقسوة، والنار صفة وعنوان عقوبة، بل يلزم حفظ الورق البالي منه أو دفنه في الأرض أو القاؤه في الماء الجاري أو إعادة تصنيعه، والأولى حينئذ إعادة طبع القرآن به.

وحرمة التنجيس مطلقة سواء كان المصحف ملكاً خاصاً أو ملكاً للغير لأنها حرمة ذاتية لا تتعلق بملكية وإعتبار إضافي، وهتك المصحف الشخصي والنسخة الخاصة هو تعد على الغير لما فيه من الإساءة لعموم المسلمين وإيذاء لهم.

ويمكن عده من الحقوق المركبة حق الله وحق القرآن وحق المالك وحق المسلمين، نعم في ملك الغير يستلزم الضمان لعمومات قاعدة اليد والإتلاف بما فيه ضمان الأرض والنقص فيه والأوصاف التي لها اعتبار في ماليته، ويضمن النقص الحاصل بتطهير المصحف وكذا الأجرة والمؤونة التي تصرف في تطهيره وتطهير الكتابة القرآنية لو كانت مكتوبة على الورق أو الفرش أو الجدار، بالإضافة إلى التجرد الإضافي في خصوص ملك الغير، فالحرمة في الملك الخاص أيضاً بالفتوى وليس بالإحتياط الوجوبي.

ولا فرق في حرمة التنجيس سواء كانت حرمة تنجيس ورق المصحف أو جلده أو غلافه لترشح الشرف وأسباب الحرمة على الجلد والغلاف بالإضافة إلى القرآن وإكتسابها الإحترام لإحتوائها على كتاب الله وكلامه وعده عرفاً قرآناً، فالعرف لا يفرق بين الموضوع الذي كتب عليه الحرف القرآني وبين ما جاوره منها ومطلق الورقة فيما يتعلق بجرمة الهتك، وإن كان للحكم فيه تفصيل فهو في الكيفية والإعتبار، وليس في أصل الحرمة، ووجوب الإزالة بل هما ثابتان للإثنين معاً.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢١٧

وإستدل الشيخ الأنصاري على وجوب إزالة النجاسة عن خط المصحف بفحوى حرمة مس المحدث له، وأشكل عليه (بأن الأحكام الشرعية مما لا سبيل إلى العلم بملاكاتها فمن المحتمل أن يكون لحرمة مس المحدث ملك يخصها ولا يكون ذلك الملاك موجوداً في مس غيره)^(١). والظاهر أن الشيخ يستدل بذلك للأولوية القطعية فإذا كان المس يحرم على المحدث مع أنه لا ينجس الحروف ومن باب أولى أن يحرم ما فيه انتقال النجاسة.

وقيل: الإستدلال على وجوب ازالة النجاسة بفحوى حرمة مس المحدث الكتاب من غرائب الكلام^(٢) ولكن الإستدلال بها وجيه لأولوية ومفهوم الموافقة وعمومات الأدلة وأن لم تصل النوبة إليه، لذا تسالم بلزوم تنزيه الكتاب ومنع هتكه.

وحرمة التنجيس بالأولوية القطعية ففي القرآن بيان لكل شيء مما يعني استنباط حكم حرمة التنجيس من النهي عن مسه لغير المطهرين، فالآية سور جامع، والظاهر أن الآية وتفسيرها دليل على حرمة تنجيس الكتاب بالإضافة إلى أنه من المتسالم عند المسلمين، وتشهد له سيرتهم وأحكامهم، والدليل العقلي يفيد تنزيه وإكرام القرآن.

ويحرم وضع المصحف على الأعيان النجسة لأنه هتك لحرمة ويجب رفعها عنه وإن كانت يابسة مبخرة، نعم لو لم يكن موضوعاً للهتك بل كان للحفظ مثلاً كما لو وضع المصحف في صندوق من جلد الميتة، فالأقوى عدم الحرمة مع عدم سريان نجاسة برطوبة ونحوها لأن الحكم تابع للموضوع ولأن القصد هنا الحفظ والتعاهد في وعاء متعارف.

ولا يجوز إعطاء الكافر المصحف، وجعله في يده ولا يجوز تمكينه من المصحف، وإن قلنا بأنه ليس من الإعانة على الحرام وهل يمكن استحضار

(١) التنقيح ٣٧٤/٢.

(٢) التنقيح ٣٧٤/٢.

حرمة دخول الكفار للبيت الحرام قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا ﴾^(١)، الجواب إنه قياس مع الفارق.

وقال أحد الأعلام: (أنهم يعيشون في بلاد المسلمين على حريتهم
ويعامل معهم بأحكامهم وقوانينهم ولا يعامل معهم معاملة المسلمين
بأحكامهم، فاذا علمنا أن احداً منهم يشرب الخمر في داره لم يميز لنا ردعه
دفعاً له لعدم كونه منكراً في مذهبه، وعليه فلا يجوز اخذ المصحف من يد
الكافر دفعاً لمسّه وتنجيسه لأن تنجيس المصحف ليس بمنكر على مذهبه).
ولكنه قياس مع الفارق واختلاف اللحاظ إذ أن الإذن لهم بالعمل وفق
أحكامهم إنما هو للنص والإجماع وهو أيضاً منحصر بأهل الكتاب،
والكافر يشمل غير الكتابي والوثني الذي يدعى إلى الإسلام ولا يرضى
منه بالجزية، واذا تعلق الإذن بأحكامهم فلا معنى للتعدي إلى غيرها،
وليس في أحكامهم جواز مس وتنجيس المصحف، فهو من شؤون دين
المسلمين ومختصاتهم، وللمسلمين أن يحفظوه ويتجنبوا هتكه والإساءة له
وفق القواعد الشرعية، وعلى الذمي أن يلتزم بأحكام الذمة وعدم الإساءة
إلى الإسلام وعدم التجاهر بما هو غير جائز في الإسلام مما هو حلال عنده،
فاذا تعين في موضوع أنه عنوان لهتك القرآن فيجب أن يلتزم به الذمي من
باب أولى.

ولا تمس المستحاضة القرآن إلا مع الوضوء والغسل.
ومن المس ما هو واجب ومنه ما هو مندوب، أما المس الواجب فكما
لو كان المصحف في مكان موجب لهتكه فيجب مسه لرفعه وتنزيهه.
نعم لو كان الوضوء يستغرق مدة يكون فيها تأخير إبقاء القرآن في ذات
المكان هتكاً حيثئذ تمسه من دون وضوء، ولو كانت المستحاضة قد توضأت
للصلاة فيكفيها الغسل لها، ولو أرادت تكرار المس فيجب عليها تكرار

(١) سورة التوبة ٢٨.

الوضوء، والأحوط ترك المس لها مطلقاً.

والمشهور بأن المستحاضة إذا أتت بوظائفها فتكون بحكم الطهارة فيتعلق بأدائها الصلاة وإتيان العبادات، وتعني أن الدم الخارج منها بعد الغسل والوضوء لا يعتبر حدثاً.

ومع أن المس أمر مستحب وليس من عباداتها اليومية المفروضة فالإجماع على جواز مس المستحاضة إذا أتت بوظائفها وتدل عليه إطلاقات الطهارة وأحكام الأولوية، وقاعدة نفي الحرج، وأصالة البراءة وقاعدة نفي الحرج.

وشروط المس تعود إلى أحكام تنزيه القرآن وإجلاله لأنه الكتاب السماوي في الأرض لا إلى أمور ترجع إلى القارئ أو السامع، فالتشريع الإسلامي مبني على إكرام المقدسات وهو معنى ظاهري للإلتزام الروحي والنفسي بأحكامها، فما لا يكون مهاباً في الظاهر لا تنجذب النفوس للعمل به وفق أوامره أو تجتنب نواهيه.

ومن التكامل في الشريعة الإسلامية أنك تراها حينما تخفف عن الحائض وتسقط الصلاة عنها، وهو أمر يدل بالدلالة الإلزامية على تنزيه الصلاة أيضاً وكل ما غلب الله عليه فالله أولى بالعدر، ينزل عليها الدم وتستعد للولد خلقة فيخفف عنها في العبادة، ولكنه في أحكام القراءة يجمع بين الأمرين ولا يمنع عنها الإتيان بالقراءة على نحو محدود ولكنه يمنع عنها المس، لتكون القاعدة العامة عند المسلمين هي تنزيه القرآن وإكرامه من غير أن يتعارض هذا التنزيه مع دوام ذكر الله تعالى .

وقيل: "أن المصحف لو وجب أخذه من يد الكافر بهذا المناط لوجب أن يؤخذ منه غيره من الكتب السماوية كالتوراة وغيرها لإشتمالها على أسماء الله وأسماء الأنبياء بل وعلى أحكامه سبحانه لعدم كونها مفتعلة بأسرها فلو بقيت عنده لمسها وهو حرام" ولكنه من القياس مع الفارق إذ أن حرمة مس الكافر للقرآن جاءت خاصة به لأنه كلام الله الخالي من

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٢٠

التحريف، وللتنزيه والآيات والنصوص الخاصة.

فقوله تعالى ﴿لَا يَسْتُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١)، ورد في القرآن، والآية وإن

كانت جملة خبرية إلا أنها أؤكد في البعث والتحريك، والنهي أعم من أن يتعلق بعنوان الهتك بل هو حكم تكليفي، ولا ملازمة بينه وبين الكتب الأخرى من التوراة والإنجيل من حكم المس.

فالمسلمون مأمورون بحفظ وتعاهد القرآن بالخصوص مع الإقرار بالكتب السماوية الأخرى وتلك الكتب مما أقرهم الإسلام عليه وأن من شرائط الذمة الإلتزام بأحكام القرآن الذي نزل هدى ورحمة للناس جميعاً، ولكن المسلمين وحدهم الذين إنتفعوا منه وتعاهدوه.

ولو تنجس المصحف بالإجماع على وجوب الإزالة، ولكن فيه صور:

الأولى: إختصاص الوجوب بمالك المصحف.

الثانية: إختصاصه بمن قام بالتنجيس.

الثالثة: عدم إختصاصه بمن نجسه

ولا مانع من إجتماع هذه الأقوال بلحاظ المناسبة والقرائن، وقد يكون وجوب الإزالة عينياً، ولو قام به غير المالك فله أن يرجع عليه بمؤونة الإزالة.

وحكم المصحف في رفع النجاسة كحكم المسجد، وسيأتي بيانه بالإستدلال إن شاء الله.

ونسبت حرمة مس كتابة القرآن على الجنب إلى علماء الإسلام كما في المعتبر والمنتهى ، وفي الحدائق قال: بلا خلاف فيه ظاهراً، وعن العلامة في النهاية: أنه لا خلاف هنا في تحريم المس وأن وقع الخلاف في الحدث الأصغر، وفي الذكرى عن ابن الجنيد القول بالكراهة، ولكن كثيراً ما يطلق ابن الجنيد الكراهة ويريد منه الحرمة بل هو شائع في كلام المتقدمين

(١) سورة الواقعة ٧٩ .

قراءة سور العزائم

ومما يحرم على الجنب والحائض قراءة سور العزائم الأربعة وهي سورة حم السجدة وفصلت والنجم والعلق، وهل تتعلق الحرمة بالسورة كلها أم بالآية التي فيها السجدة فقط، مع الإقرار بالكبرى الكلية وهي تعلق الحرمة بتتزيه القرآن وتعظيمه عند المسلمين، فمع كونه مسلماً فإن النجاسة جاءت به بالعارض ويحرم مسه فكيف بالكافر، فقد وقع خلاف وإن كان أكثر الفقهاء أثناء البحث لا يذكرون تلك الآيات التي فيها السجدة خشية إتيان السجود من قبل القارئ ونحوه، ولكن البحث يقتضيه إذ أن عدم الإتيان بها وعدم تكرار ذكرها في مجالس الدرس حال دون حفظها وتعاهدتها ومعرفتها من قبل كثير من طلاب العلم وكيف بغيرهم مع أن السجود لها فيه اجر وثواب ويجزي المسمى منه بالإضافة إلى حرمة قراءتها بالنسبة للجنب والحائض، فقد لا نلتفت للسجدة إلا عند القراءة في المصحف أو عند معرفة السورة بالنسبة للخاصة ويصعب ذلك على المستمع منهم.

والحرمة على خمسة وجوه:

- ١- تحريم قراءة الجنب والحائض تمام السورة التي فيها آية السجدة لأنه يستلزم سجدة التلاوة وللنص.
 - ٢- تحريم خصوص آية السجدة.
 - ٣- تحريم كل آية من السورة بما في ذلك البسملة للقول بأنها جزء من السورة.
 - ٤- تحريم كل آية من السورة، وإن لم تكن آية السجدة لسريان الحرمة إليها عدا البسملة.
 ٥. قراءة بعض الآيات أي اللفظ الذي فيه السجود، وهذا الوجه ولم يقل به احد.
- وقد وردت نصوص تفيد حصر النهي بالسجدة، والمشهور على حرمة

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٢٢

قراءة السورة بتمامها، وفي موثقة زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام: "الحائض والجنب هل يقرءان من القرآن شيئاً، قال: نعم، ما شاء إلا السجدة"، وقريب منه خبر محمد بن مسلم، والموثقة معتبرة ولو كان في السند من هو ضعيف لأتبعه السند في قوته وضعفه لأنه يتبع الأخص، وكما الحال في الصحيح والحسن فان الموثق يقسم إلى أعلى وأوسط وأدنى، والظاهر أن الحسن أقوى من الموثق وان رجاله منحصرون بالممدوح دون الثقة، ومنهم من قال أن المدار على الظن بالصدور فيكون الموثق أقوى، فالصحيح ما مدح رجاله مع الوثاقة.

وقال السيد في المدارك وليس في هاتين الروايتين مع قصور سندهما دلالة على تحريم قراءة ما عدا نفس السجدة.

وبين آيات وسور العزائم عموم وخصوص من وجه في خصوص القراءة، فموضوع الإلتقاء القرآنية، أما موضوع الإفتراق فأن آيات العزائم فيها سجود تلاوة، وفيها نصوص على اجتناب الجنب والحائض لقراءتها ولعله مترشح عن سجود التلاوة كواجب.

الجنب أخص من غير المتطهر، فيجوز مثلاً لغير المتوضأ أن يدخل المسجد الحرام وأن يطوف الطواف المندوب، في الوقت الذي لا يجوز للجنب أن يجتازه.

وفي حكمة المنع من قراءة الجنب والحائض لسور العزائم او آياتها وجوه:

- ١- خصوصية في هذه السور بالذات.
- ٢- ما فيها من ذكر للسجود.
- ٣- ما يتعلق بها من الحكم والأمر بالسجود.
- ٤- ورد النهي عن قراءتها في الفريضة خصوصاً وأنها بعرض واحد في القرآنية مع غيرها من السور.
- ٥- الإكرام والتنزيه الإضافي لبعض السور للإلتفات للأحكام الشرعية

التفصيلية.

والظاهر هو إجتماع الوجوه أعلاه خصوصاً وأنه لا تعارض بينها.
فما المراد بالسجدة هل هو إسم السورة بكاملها أو فقط الآية بعد
خروج المعنى اللغوي بالمخصص، إذ لا معنى لإرادة السجدة وإطلاقها
على القراءة، فذكر القراءة في النصوص يدل على أن المطلوب هو قراءة
الآية وليس السجود عندها أو السورة التي فيها السجدة، وهذه النصوص
مجملة لم تحدد النهي هل هو منحصر بالآية أم يشمل السورة بكاملها
لاسيما وأنه يحتمل من ذكر السورة في النصوص ذكر الكل وإرادة البعض
وهو معروف في اللغة ويلحق به أقوال بعض الفقهاء أيضاً ولكنه خلاف
الظاهر فيحتاج إلى قرينة، لذا فإن الشك في معاهد الإجماعات يجعلنا نأخذ
بالتقدير المتيقن وإن كانت تلك الإجماعات إجتهادية وليست تعبدية مما يعني
أنها ليست بحجة تامة.

وكذا الإجماع الوارد في الروض على حرمة البعض مطلقاً حتى
البسملة، ويمكن إعتبار هذه المسألة من موارد دوران الأمر بين الأقل
والأكثر، فيحرم الأقل دون الثاني إلا مع الدليل على حرمتها مطلقاً، مع
القول بالإحتياط في الأكثر.

وهناك رواية ذكرها المحقق في المعبر روى البنزطي في جامعه عن المثني
عن الحسن الصيقل عن الإمام الصادق عليه السلام: "يجوز للجنب
والخائض أن يقرأ ما شاء من القرآن إلا سور العزائم الأربع وهي اقرأ
باسم ربك، والنجم، وتنزيل السجدة، وحم السجدة".

والبنزطي من أصحاب الإجماع في تصحيح ما يأتي به بغض النظر
عمن يقع بينه وبين الإمام في سلسلة السند وقيل لم يثبت، إذ أن التقدير
المتيقن منها هو ما لم يذكر إسم الذي أخذ عنه البنزطي، أما وقد ذكرت
الأسماء أو عرفت بالقرائن فلا مانع من التحقيق، نعم يمكن إعتبار نقل
البنزطي عنه توثيقاً له.

معالم الإيمان / الجزء الخامس _____ ٢٢٤

وذكر أن حسن الصيقل ممن لم يرد توثيقه في شيء من الكتب فالرواية ضعيفة لا محالة، إلا أنه ورد مدح له، مع كثرة روايته عن الأئمة عليهم السلام، وقد عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الباقر عليه السلام ومن أصحاب الصادق عليه السلام، وعدّ الحسين بن زياد مصغراً من أصحاب الرضا عليه السلام، وكثرة روايته أمانة على حسنه.

وفيها نوع إخبار على سقوط روآيات الوضّاعين كما حصل فعلاً في عموم كتب المسلمين ولو في الجملة إذ تصدى نفر من علماء الإسلام لتتقيح كتب الحديث والرجال، وذكر الكشي في رجاله المثنى بن وليد وقال أن الحسن بن علي بن فضال ذكره وقال: لا بأس به.

والرواية ظاهرة في حرمة السورة دون بعضها، ولكن الجمع بين النصوص وإحتمال إرادة النهي عن السورة للتنزيه أو لإطلاق الكل وإرادة الجزء، ولأن المتعارف قراءة السورة كاملة في الصلاة وللحث على قراءة سورة أخرى تامة غيرها ولقاعدة نفي الحرج، فإن القدر المتيقن هو خصوص الآية التي فيها السجود، وفي غيرها يرجع إلى إطلاق ما دل على جواز قراءة الجنب أو إلى أصل جواز القراءة، فالأقوى إختصاص الحرمة بقراءة آيات السجدة منها وإن كان الإحتياط لا يترك، ويكون الغسل أو الوضوء واجباً إذا وجب المس بنذر أو بغيره.

وقال إمام الحرمين: ولا تكره القراءة للمحدث، وفي الإتيقان عن شرح المهذب: وأما الجنب والحائض فيحرم عليهما القراءة، نعم يجوز لهما النظر

في المصحف وإمراره على القلب^(١).

(١) الإتيقان في علوم القرآن/١/١٢٥.

